عائلة جادو

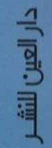
نَصُّ النُّصوص



رواية



أحمد الفخراني



دار العين للنشر

عائلة جادو

نَصّ النّصوص

روايــة

أحمد الفخراني

دار العين للنشر

يا ميديوكرز العالم، اتحدوا.

فاتحة الكتاب

بدأ كل شيء سريعا كطيف، ثقيلا وضاغطا ككابوس، تحررت من بطء الوقت، لأسير وفي يدي رسالة: فلتجد كارل ماركس، وفي قلبي مهمة: اقتله.

لكني انتهيت كدرويش في حضرته، بعدما رأيته رأي العين، حيا، دافئا، يضخ بالدم. عرفت كلماته التي يرغب في أن تقال، لمست ذقنه وشددته منها، عارضته، وأحببته، وشربنا البيرة والنبيذ الغالي والحشيش الرخيص المغشوش بهواء الفقر وحبوب الترامادول المسحوقة. سبّني بأمي وبادلته السباب، تناجينا وتعاركنا بالأيدي كطفلين. سمعت منه نفيره وبيانه إلى الناس، وغنينا الأغاني المبتذلة الحلوة في الحوراي.

لديّ فرصة واحدة وأخيرة لأروي ما رأيته وأنقل كلماته. كارل ماركس لا زال حيا، كالضجيج وعضة الناموس وعواء الكلاب الضالة في الليل، خافتا كأعمدة الإنارة الذابلة وكأكياس تطير في الهواء إلى اللا شيء، وحده، مثلنا جميعا، يصارع الجميع بلا رفقة

ولا سلاح ولا أنصار، بلا طبقات تتصارع، أو عبيد يحطمون آلة السيد.

لكنها في النهاية حكايتي، وليست حكاية ماركس، لا شيء فيها جديد، ولا شيء فيها قديم. دمي فيها مسكوب، نهاري صاخب، ليلي غارق في الأسى، طاقتي قليلة، عظمي لين، طموحي عظيم، ثقتي قليلة، أخشى الموت، وأهدر الوقت، وأحمل سرا، خارطة كنز. أعرف الطريق، قلبي عالق في التيه، رئتاي تمتصان الهواء أقل، لا أحب سوى الدخان، جسدي ضعيف، وأحمل غابة، جنة فسيحة ونارًا هائلة. أحب الحياة، أقتل نفسي. أرتكب الحماقات، أمتص غيري، أتحاشى الجمع، لا أحضر الأفراح، لا أطيق الجنازات. روحي فظة تنشد الجمال. أحب اللـه، أسامر الشيطان، لا يقود وثاقي أحد، وأتبع قيدي. شديد الشغف، خطيئتي الملل. أصنع الأشياء، وعند اكتمالها أحطمها. أتحمل الشقاء، لا أطيق الألم.

تلك حكايتي، لكنها لم تعد كذلك.

تعلمت شيئا أو شيئين في رحلة العثور على ماركس، أن الاتجاهات كالموت محض خدعة؛ فكل شيء يحيط بكل شيء.

أكتب من المــوت، حيث لا موت، الحيــاة والموت ما هما إلا شـــيئان تافهان يمران في كاميرا الأحداث الجســيمة، أليس كذلك يا كارل يا صديقي؟

الفصل الأول

التكوين

هل تقبل أن تكون عشائي؟

1

الصخب يشنق حناجر الجماهير.

يهتفون: "*هركليز.. هركليز*" يقصدون عبد المولى، الذي جلبته من العدم، وحولته إلى آلة قتل برية، نحت جسده نحتا؛ ليستمر صامدا في حلبة المصارعة المحاطة بقفص الموت، والمنصوبة في الحارة المخفية عن أعين الحكومة وتحت أقدامها.

يسألني متفرج بجواري: "*من أين أتيت بتلك المعجزة يا رزق؟*"، أجيب بفخر وبصوت يتجاوز ضجيج الأرواح: "*عبر رحلة شاقة إلى مدينة مسحورة في موريتانيا، تعرضت فيها لصعاب تلو أخرى، وكدت أن أفقد حياتي، الوحوش ما زالت هناك، والزهور البرية مخبئة وسط الجحيم*".

لكن الحقيقة غير ذلك. اشـــتريته ببســـاطة وأنـــا على مقهى في المطرية، أدخن الشيشـــة، واخترتُ جســـده من بين آلاف الأجساد والأسعار بعملة الإنترنت المشفرة.

جسد أسود من موريتانيا. لم يكن الأقوى، بل كان هزيلا. لكني أعرف عبر خبرة طويلة وهبة طبيعية وقليل من الخيال، أن هذا الجسد يملك ندرة الجمال، سيصير شيئا فاتنا، مصبوبا وشديد القوة. لكن عند اكتماله، فاقت قوته -التي بدت لا نهائية- توقعاتي.

"هركليز" كما ســـماه محبوه. كان يصرع الجميع على الحلبة، مقاتلا تلو مقاتل، ومغامرا تلو مغامر، ومســـخا تلو مســـخ. أهتف مثلهم، باســـمه، لأدفعهم إلى مزيد مـــن الصخب. عملي كما تمنيته دائما أن يكون لهوًا كرنفاليًا، مُحاطًا بالضجيج والمتعة، حتى تزهق بهما روحي، فلا أرى الموت.

أدير رهانا ســـريا يعرف بشـــأنه الجميع، مصارعة شعبية بلا قواعـــد، عدا قاعدة واحدة: ينتهي الأمر بفائز جائزته حياته، وآخر ميـــت تفوز عائلته -إن لم يكن عبدا- بنســـبة من الرهان، تكفل لها حياة كريمة.

يفوز عبد المولى/هركليز بحياته كل مرة، ويعود إلى حيث المزرعة الكبيرة لمولانا. أبي المشغول برقيقه السري من البنات القاصرات، داؤه الأخير بعد أن كان زير النساء العتيد. يعاملني

كأحد عبيده؛ لأني في النهاية ابنه غير الشرعي غير المعترف به. ولولا قدرتي على جلب البنات القاصرات والعبيد وإدارة الرهان بكفاءة، لما صرت بجواره. جوار بلا اعتراف أو محبة.

يقذف الجماهير بالمزيد من الأسلحة عبر فتحات قفص الموت: ألواح خشبية، سيوف، مناجل، صفائح، سكاكين، كزالك، سواطير، لا إلى عبد المولى بل إلى خصمه، كي تزداد الإثارة. عبد المولى لا يستخدم أسلحة، لا يلمسها إلا بعد انتصاره، حتى لو نشبت الدماء أظافرها في جسده. خصمه يفوق حجمه مرتين، لكن لا يملك أبدا عيني عبد المولى الصارخة بالحياة، وللمفارقة التي تدهشني دوما: بالحرية، أخشاه حتى وأنا في مقعدي، وأفكر كيف يمكن حبس هذا الوحش مجددا!

ينطفئ عبد المولى خارج قفص الموت، يعود عبدا مطيعا بعينين ميتتين إلى قفصه الكبير في المزرعة، يلعق جراحه الثخينة والقاتلة ولا يتفوه بكلمة، محض تمتمات صامتة، ولا ينظر إلى أحد، بل يقلب عينيه إلى الداخل بالساعات، فتصير بيضاء مفزعة. في الصباح تطيب جراحه كأنها لم تكن، بمعجزة لا أعرفها. جسد مسحور. لكن أكثر ما يبهرني فيه أسنانه النادرة شديدة البياض، قوية، لامعة، وبارزة كأنها مستعدة لأن تُغرس بلا تعاطف في جسد العالم. لم نعد نملك أسنانا كهذه. أسناننا لينة. أما أجسادنا فقد طمرها الزمن.

الصراخ يزداد. فقرة الجمهور المحببة، حين يزين الضحية بما هو أثمن من الموت. لا أحد يعلم أي ضحية ستكون مختارة، قد تكون الثامنة أو العاشرة وقد تكون الأولى، قد لا يفعلها. هذا العبد الذي يبدو غبيا خارج الحلبة، يعلم ما يفعله، لهذا يعشقونه. لقد جعل نفسه نجما، اخترع لنفسه جائزة أخرى غير حياته وطعامه.

صنعوا له دمى، طبعوا صوره المرسومة على تي شيرتات رخيصة، وأطلقوا له أغاني مهرجانات، الحكومة تعرف لكنها تراهن سرا عليه، وأبي نافذ في عظامهم. لكن شهرة هركليز لا تجعل الجميع يعرف قصته، بل جعلت له آلاف القصص.

الضحية المختارة تستسلم تماما للمصير الذي يعلقه عبد المولى بأيدي محبيه. يشيرون بإصبع الإبهام إلى الأسفل كما تعلموا من فيلم Gladiator.

عليه أيضا أن ينظر إلى الشاشة الكبيرة؛ ليرى إلى أي اتجاه يشير إبهام المتراهنين من الأثرياء في مصر وحول العالم سرا من بيوتهم، عبر نظارات مجسمة تجعل العرض حيا دون أن يختلطوا بهواء الفقراء أو دنس اللعبة. المراهنون من الفقراء الحاضرين، لا يعرفون أنهم محض خلفية؛ كي يمنحوا العرض الحياة اللازمة في غرف الأثرياء. لا يخيبون ظنه، تشير العلامة إلى الأسفل. بسكين يشق هركليز صدر ضحيته التي تكف عن الحركة أو التوسل لتستمع

مثلنا بالعرض. يخرج القلب، يقضم منه قضمة، ثم يلفظه ويرفعه في هواء الهياج وهدير الجماهير، منتصرا وعاليا للحظات.

أنظر إليهم سعيدا ومحتقرا، أشعر بنشوة الحياة، أقبض عليها لدقائق. يغمرني الرضا، ينجح عرضي، ويمر اليوم الكرنفالي بالغا ذروته، حتى لو تبع هركليز مصارعون آخرون وعروض أخرى، يظل هو درة العرض. أفكر فيما سأفعله في خطتي للتقاعد المبكر. أراقب مبيعات الطعام، المخدرات، الكحول، كل شيء على ما يرام. يوم آخر مضى. أنفث الدخان بلا انقطاع، هذا يدوم بعد انتهاء الصخب.

2

القمر يحرس طريق العودة. المصارعون في القفص، والقفص في مؤخرة الشــاحنة، وصدري بجوار الســائق بسعال لا يهدأ. لا أتــرك الدخان من فمي. لا أتذكر طعم الهواء الحقيقي قبل أن أقرر أن التبغ هو أفضل وســائل التنفس، السجائر عظيمة؛ لأنها تجعل موتك على حسابك الشخصي، ولا تحمل في طريقك إليه حقدا تجاه أحد. رغم ذلك نحن منبوذون. سـنُطارد يوما بالحصى في الأزقة، وسنُحتجز في مشافي عقاب؛ فقط لأن موضة الحفاظ على الصحة تتسيد العالم. آكلو الحشــائش يصعدون للسيادة، ثم يفرضون هرم الصحة. ينكرون اللحم والتبغ. لم يدن المخ البشري لشيء أكثر من اللحم. ولا أدين لشــيء أكثر من التبغ فــي تحمل الحياة، ولا أدين لآكلي الحشائش بشيء. حقيبة ظهري مليئة بكل أنواع الدخان النادر والجيــد والرديء خوفا من أن تنتهي. بحثت كثيرا عن ســجائر لا تنتهي ولا تقتل ولا تبذر السرطان. سأدفع فيها نصف ما اكتنزت.

أمسح نظارتي الطبية، وأدخن المزيد. لقد أكلت خطيئة القراءة عيني، ومنحتني ضوءًا خافتا تصححه لي نظارة العجزة تلك. أنا

لست ابن القراءة، أنا ابن الشارع، ابن الكلب العالق في الأزقة، لَواط الوقت، ندبات الشارع المحفورة في وجهي وجسدي لا تفارقني، لكني تعلمت من الشاشات ومن مولانا ومعلمي العالق في القبور -وأنا الجاهل الذي لم يعرف المدرسة- أن من يقرأ ولو حرفا أكثر من رفاقه يقود قبائل الصخب والدم في الشوارع، ويجيد استثمار قسوة أبناء الفقراء والتي لا يجرحون بها سوى أنفسهم. فكنت أتسلل إلى المكتبات ليلا، أقرأ بنهم، رغم ما يزودني به حفار القبور الحكيم من حقن للمعرفة.

يوقفنا كمين شرطة مفاجئ. يجزع السائق، مرته الأولى. أما أنا فأثبت، لم أكن أفكر إلا في حاجتي للنوم. يطلب أمين الشرطة الرخصة، والبطاقات. يفتش الشاحنة. محض عبيد في قفص. "*انزل يا روح أمك*".. أنزل ولا أهتز ولا أغير من نظرة الازدراء واللامبالاة. يميز أمين الشرطة وجه عبد المولى. يصرخ فرحا: "*هركليز.. لا أصدق عيني.. أنت مصارعي المفضل*". لكن الوجه المنطفئ لعبد المولى لا يبادله أي شيء.

يتوجه أمين الشــرطة إلى الضابط البدين المكوم على كرســي يأكل شيئا ما لم أميزه، لكنه عالق بأصابعه. يهمس في أذنه. ينتفض الضابــط ويتجه صوبنــا. أعرف تلك العلامة فــي عينيه، علامة الشره. يلقي نظرة على الشــاحنة، يطلب من عساكره أن يصعدوا

إلى مؤخرتها، يغلقها أمين الشــرطة ويصعد مكان السائق، يأمره الضابط بالتحرك، بينما يصعد بي عســاكره مع السائق إلى مؤخرة سيارة الشرطة.

نصل إلى المبنى الضخم لمديرية الأمن.

بكلابش واحد مع السائق، نصعد. لا ينفك الكلابش إلا عند مكتب مدير الأمن. أدخل وحدي، وينتظر السائق المرتجف في الخارج.

العجرفة في جســد مراد بك تقابلني، لكنــي أرى ما وراء غيم العجرفــة فأثبت، محض خوف وجبن. كان مــراد بك واقفا يتأمل لوحة الصرخــة لمونييه المعلقة فوق حائط مكتبه، أصلية، فأنا من بعثتها له كهدية لتيسير الأمور، وفي سلام ترقد لوحة مونييه المنتحلة حد الأصالة في متحف الميتروبوليتان. هذا الجســد المتعجرف لا يدرك أي جمال بين يديه، لولا زوجته الثرية نفيسة. يظن أن تأملها يجعل لعجرفة جســده الزائفة لحما حقيقيا. هذا الجسد تخضع تحته امرأة من جمال نادر، نفيسة البيضاء، وتحت سلطته كل شيء.

يلتفت إليّ: *"أين اختفيتَ؟"*. أرد: *"لو كنت أعلم أنك تبحث عني، لجئتك دون حاجة إلى اســتعراض"*. *"البضاعة كادت أن تفســد"*. أشعل سيجارة، تصدر الكلمات من فمي كدخان بلا معنى: *"البضاعة الجيدة لا يُفسدها الوقت"*.. *"أرني ما لديك"*.

ينفض عنه عجرفته، ويقودني إلى الحائط. يضغط على علامة التفاحة المقضومة في هاتفه الذكي، فينشق الحائط، أرى المصعد الأليف، نسميه مصعد الهاوية. نهبط إلى قاع المديرية، الجانب السري منها والذي لا يعرف إلا قِلة بوجوده. نسير معًا في ردهة، نسميها ردهة الصمت.

نصل إلى غرفة صغيرة، مكوم بها ما يقرب من خمسين جسدا بأياد مكبلة. أمين الشرطة الذي أوقف الشاحنة كان في انتظارنا وبصحبته ثلاثة عساكر. درجة الحرارة مرتفعة، مروحة السقف معطلة، ألمح جرذا أو اثنين، أجسادا محروقة ومشوهة ومبتورة، نساء بتر منهنَّ الثدي؛ الأيمن لفتيات الليل، والأيسر لعاشقات ضبطن مع عشاقهن.

ثلاثة أطفال، ولد وبنتان ما بين السابعة والحادية عشر. أميز من بين الأجساد وجها لشاب أجنبي، مشوه بالكامل، أرى وسامته خلف الندوب، والجسد الهزيل والناعم خلف حريق السجائر ومس الكهرباء، أظافره منزوعة، أصابعه مكسورة، كان يرتجف، ويشرف على الموت، ولعابه الملوث بالدم يسيل من بين فراغ أسنانه المفقودة.

تلك الأجساد يسمون اختفاءها في الصحف بالاختفاء القسري. بدأ القبض عليهم عشوائيا بعد الانتهاء من القبض على آخر الثوار

الكامنين، ليصبح الاحتمال الوحيد لوجود ثائر هو غيابه. أحدهم هنا لأنه تأفف من الحر، وآخر لأنه تأفف من البرد.

"*هل سويت ملفاتهم؟*" أسأل مراد بك، الضجر اللامبالي، يظن أنه يبيعني محض قمامة، ولا يرى الجمال الذي ينشب أظافره في عيني حد العمى. "*سأفعل، نصفهم على الأقل بلا* حضور *فعلي، لو رآهم ذووهم سينكرونهم*". أشير إلى الأجنبي، فيقول مراد بك: "*يبحثون عنه بلا جدوى، ننتظر أن يفقدوا الأمل في العثور عليه*".

أقترب منهم، أشتَمُّ الأرواح وما تبقى من الأجساد. أخبره: "*بضاعة سيئة*"؛ لأساوم أفضل. لكني أعرف، أرى الملك في الجبل، وأفروديت في الصخرة العمياء، وداود في كتلة الرخام التالفة. أعرف كيف كان جسد الغياب، قبل حتى أن تبتر أجسادهم وتنحل، لم تكن في هيئتها العادية إلا على هيئة النقصان، حتى قبل أن تبتلعها ردهة الصمت. بقاؤهم أحياء رغم التعذيب يجعل منهم سلعة أندر، لقد تطايرت منهم الأجزاء التافهة وأكلها العدم، ولم يتبق منهم سوى الجوهر الجيد والممتاز، الجيد لإعادة التدوير، الممتاز لا يمكن محوه، لكن يُقتفى مثاله الكامل للنهاية.

"*لـــن أدفع مليما في كتلة الروث تلك*". ينتفض مراد بك ويقول: "*هذا الكلام لن يرضي مولانا*"، أحتفظ بهدوئي: "*مولانا لا يراجعني في ما أراه صالحا للشـــراء والبيع*". يـــرد غاضبا: "*لماذا علينا أن*

نخوض التمثيلية نفســها كل مرة؟ تدعي أنــك تزدري بضاعتي، ثم تشــتريها في النهاية" . أرد: *"لنفس الســبب الذي جعلك تقودني مكبلا كمذنب إلى مكتبك.. لم أســتأ؛ لأني أعرف أن ما يحمينا هو الإخــلاص لماكينة الوهــم.. لا أحد منا قادر علــى تكلفة خرقها.. مولانا لا يرحم"* .

طأطأ مراد بك رأســه مستسلما، ثم أخرج مسدسه، فجر غضبه في رأس جسد مكوم، لم تصرخ بقية الأجساد، شاهدوا هذا أكثر من اللازم على ما أظن، هذا يرفع السعر، يعلم أن الأرواح التي دخلت قوقعة الموت للحفاظ على نفسها هي ما تسهل المهمة. الدم ما زال طازجا. جر مراد بك الجثة التي فجر رأسها منذ ثوان تحت قدمي. قال مراد بك: *"أتحداك أن تأتي بشــيء كهذا"* . نغز مراد بك الجثة صارخا: *"قم يا ابن القحبة"* ، ثم ظل يركله كالمجنون، حتى أذعنت الجثة، ووقفت برأســها المثقوب من أثــر الرصاصة والدم يلوثها تماما، كان شيخا في السبعين. أمسك مراد بك بالرأس، أدارها كمن يفكك صواميل لعبة، أعطى الرأس للجثة، مســح بيديه على رأسه، فانمحى الدم، والتأم ثقب الرصاصة، ثم أعاد رأسه إلى جسده كأنها لم تمس. الغبي، لقد دفعته بالاستفزاز كي يكشف عن ما يظنه أندر سلعه، وحدها ستحدد ســقف الأسعار الذي يراود ذهنه، سأدفع في الباقيــن أقل من ربع قيمة ما يظنه نادرا، وأقل فيما أعرف أنه نادر حقا.

قال مراد بك فرحا باكتشـــافه كطفل: *"لقد جربت معه كل شيء، خرقــت الرأس بالرصاص، شـــجـجتها بفأس، فصلتهـــا بمقصلة، ســـحقتها بمحطم الرؤوس، دهســـتها بعربة. كل مرة تعود سليمة، يحملها ويستكمل الثرثرة بكلام غير مفهوم، إنه معجزة حية"*.

سألت: "كم تريد فيه؟"، قال: *"ستون ألفا"*. صرخ الرجل ذو الرأس المقطوع: *"لا تدفع هذا المبلغ، أنا لا أستحق أكثر من مائة جنيه"*. ضحكتُ. لكن مراد بك ركله في خصيتيه. توقف طيف الضحك مع ألم الرجل. طلبت من مراد بك ألا يمسه، سألته عن اسمه.. أجاب: *"فريد العطار"*.

"سأشتريه بثلاثين ألفًا"، قلت لمراد بك، لخفة دمه، سأدفع عشرة آلاف في كل جسد، وخمسة آلاف للأجنبي؛ لأن ملفه لن يغلق بسهولة. *"وصلنا لسبعة للأجنبي واثني عشر ألف جنيه لكل جسد، وألفي جنيه عن كل طفل"*.

عرفــت أن الأجنبي جاء إلى مصر؛ ليكتـــب بحثا عن صحوة العمال والنقابات المســـتقلة. يقول مراد بـــك: *"يظنون أن اختفاءه متعلق بأننا في مصر نطارد الجميع، رغم أن أوامر اختطافه جاءت من خارج مصر، نحن لا نهتم حقا بمطاردة خرافات الشـــيوعيين، يكفيهم هذيانهم.. لقد هزمناهم منذ أنتجنا فيلم فوزية البورجوازية.. لم نحتج أكثر من إنتاج فيلم كوميدي"*.

عيناي لا تريان الآن كل هذا، لم أكن أرى سوى ما لم يدرك مراد بك ندرته. فتاة ليل تدعى ليزا، قطع ثديها الأيمن. اسمها الحقيقي سنية القراعي، استعملته مع الطبقة الوسطى قبل أن تدرك أنها لا تختلف عن الفقيرة إلا في التستر بآليات الادعاء، سنية القرعة قبل أن تكف عن تلبية نداء الفقراء، لتصبح ليزا التي لا تعمل إلا مع الطبقات الثرية. لم تكن شديدة الجمال، ندرتها في ذاكرتها الخرافية، تحفظ كل شيء، دون أن تفهمه حقا. لا يرى فيها مراد بك إلا مبولة للذة، أبحث عن تلك الندرة منذ سنوات، تلك الروح المثقلة بذكريات عن كل جسد عابر، روح بلا رائحة هي علامتها، هي المصطفاة. اتفقت على شرائها بخمسمائة جنيه.

الوحيـــد الذي لم أعرف فائدته، هو طفل صيني. لا أعرف حتى إن كان سيصلح للتبني في مصر، فهم يظنون أن الصينيين محض مستنسَـــخين ولا ندرة فيهم. ابتسمت عندما خطر لي، أني قد أبيعه ليعمل في مصانع الســـخرة، أين؟ في الصين. الطفلتان، من تعجب منهما مولانا تصير له، والأخرى قد تغلف كهدية لتيســـير صفقة، أو تباع بالطريقة الاعتيادية، بعرضها على الإنترنت أو في ســـوق العبيد السري في إمبابة، أو يشتهي مولانا الاثنتين دون تمييز.

ننتهي من الاتفاق. الأمين سيتكفل بنقلهم إلى شاحنة الأمن المركزي، كي أعود بالشاحنتين إلى مزرعة مولانا، في حراسة الشرطة تلك المرة.

نصعد إلى المكتب، طريق العودة إلى مصعد الهاوية يبدأ شديد الإضاءة ثم ينتهي إلى الظلمة. أطلب قهوة كي أفيق، حتى ينتهي أمين الشرطة من نقل البضاعة.

التلفاز في مكتب مراد بك يعرض الخطبة الرسمية للدولة. يرن هاتف مراد بك، أحب علامة التفاحة المقضومة لهواتف الآي فون، تجعلني أبتهــج، يرد على الاتصال، أخمن مــن خضوعه ونبرته الحانية المذنبة، أنها زوجته نفيسة.

"سأخبره.. هو لدي الآن". ينتهي الاتصال لينقل لي رغبتها في أن ترى هركليز يصارع في عرض خاص في قصرها. أقول: *"سيكلف ذلك أكثر.. هذا إن وافق مولانا"*. كدت أقول إني سأحاول إقناعه من أجل أعين نفيسة. لكني تراجعت. إنه سري الخاص، الذي أعلم أنه سينتهي عندما أنالها ولو مرة واحدة، نفيسة البيضاء، محض خرافة لا تمس قلبي، وتحرك قضيبي.

يخبرني أنها تحضر مفاجأة لهركليز، مصارع فريد ستراهن عليه، أقول: *"حسنا.. إن كنتم تريدون خسارة مزيد من الأموال.. هذا شأنكم.. لا أحد يهزم هركليز"*. يلعب مراد بك في شاربه، يتأملني قليلا، ثم يقول بثقة: *"عاجلا أم آجلا ستدفعه إلى الموت.. إنه يفسد اللعبة برهان الجميع على فوزه كل مرة، هذا يعني أموالا أقل.. مولانا لن يتحمل هذا طويلا"*. لا أرد. أنزعج لأقل من ثانية،

قبل أن أستعيد لامبالاة ملامحي وحياديتها التي تربك الجميع. أعرف أن هذا مصير هركليز في النهاية، الموت كي تستمر اللعبة، نصره المستمر يفسد ندرته.

ألتفــت في التلفاز للخطبة الرســمية للدولة التــي على الجميع حفظها.

يسألني مراد بك: "*هل تؤمن بالخطبة الرسمية؟*". أعلم أن شكه حقيقي، وأن السؤال ليس فخاء أومئ بالإيجاب: "*قدر إيماني بوجودك ووجودي ووجود مولانا*". تحضر القهوة، ونحتسي الصمت.

3

القمر فـــي نهاية ورديتـــه، ينتظر بتململ خلـــع الياقة الزرقاء المعروقة، الشـــمس تماطل، ولا أثر إلا لظلمة بيضاء، الشـــاحنتان في الطريق إلى المزرعة، البضاعة جيدة، والندرة المســـتحيلة في قفص، اخترت أن أركب مع سائق شاحنة الأمن، حيث وضعت فريد العطـــار ذا الرأس المقطوع، وليـــزا، والأجنبي، والطفل الصيني. أفكر ساخرا في شك مراد بك في الخطبة الرسمية للدولة.

الخطبـــة حقيقة، بل أكثر الحقائق التـــي يمكن التيقن منها. أكثر الدول تقدما هي دول الشـــرق الأوسط ودرتها مصر؛ لأنها سبقت الجميع إلى النهاية. من شهدت الميلاد، فلا بد أن تشهد الموت، فشل المقترحات الإنسانية ووعد الرخاء. وهنا حقيقة المسخ في مصرف نفايات الأفكار. دول الفقر هي دول الإنكار في الغرب لنهاية كل ما ظنوه جميلا وخالدا، الإنسان الأخير هنا، هرم من أفكار مهزومة، لا قويا ولا منتصرًا.

فـــي جزء ما مغلق عليـــه جيدا في الروح أحتقـــر كل هذا، لقد دربت القلب على اللامبالاة والقســـوة والمشـــاركة في اللعبة؛ كي

ينتهي كل هذا بالتقاعد المبكر، حينها سأنهي الصخب، قاتل الروح، وأبتعد عن دوائر الموت والحياة، أجمع المال بأي وسيلة كي أصنع خلاصي. ما يكفي لشراء جزيرة بعيدة حيث لا شيء سوى الصفاء والجمال النادر والهمس، الموسيقى والنخيل والنساء الجميلات، حيث لا لغو ولا ضجيج، أفكر حقا في المزايدة وصناعة أنهار من خمر وعسل، وحدي ومعي كنزي المخبأ، وطفلي زين. زين النهاية رزق السيد جادو، تيمنا بالعثور على خاتمة للصخب. لم أدون إضافة (النهاية) إلى اسمه في شهادة ميلاده ولم أخبر أحدا به، ربما أخبره أن اسمه الحقيقي هو زين بن رزق بن نخنوخ بن الهواري، مولانا، الذي لم نحظ منه يوما بالمحبة والاعتراف. عندما تكبر يا زين لن أشرح لك شيئا، سأقرأ عليك قصيدة دم فاسد لرامبو مرارا ومرارا، فتعرف وترى أي صليب حملته. على جزيرتي، سيكون الشِّعر كالمن والسلوى.

أتمتم بكلمات رامبو، لأسلي القمر: *"بالأمس إن لم تخني ذاكرتي، كانت حياتي وليمة تتفتح فيها جميع القلوب، وتنسكب فيها جميع الخمور، ذات مساء أجلست الجمال على ركبتي -فألفيته مرا- وشتمته. تسلحت ضد العدالة.*

وهربت، أيتها السواحر، أيها الشقاء، ويا أيها الحقد، إليكم عُهِدَ بكنزي!

أفلحـــت أن أزيل عن فكري كل رجاء إنســـاني. وفي اتجاه كل فرح، قمت، كي أخنقه، بالوثبة الصامتة للحيوان المفترس".

الضجيج في الشاحنة، الأجساد تهز القفص، أشم رائحة الموت لا التمرد، لكني أتحسس مسدسي تحسبا. أطلب من السائق التوقف في الطريق السريع الخالي. يتوقف سائق الشاحنة الأخرى.

نفتح شاحنة الأمن المركزي، لقد مات الأجنبي. لم يكن عليَّ أن أشتريه، كذبت حدسي، كنت أعرف أن خفوت تلك الروح، إشارة قرب الهلاك. سحبنا الجثة العارية، كي نوقف تهيج الأجساد من رائحة الموت.

لا شيء، حجارة، خلاء الطريق المرصوف بالأسفلت، خلاء الرمال التي تنتظر الإسمنت والألمونيوم، أعمدة كهرباء ومصارف، ظلمة بيضاء، وبيوت قليلة متناثرة لها عزلة الكوخ والقصر دون هيبتيهما، شاحنات عمياء تمر من حين لآخر، براميل قمامة.

أسحب الجثة مع السائق نحو أقرب مصرف، كدمات ودم متجلط في كل جزء بجسده، أذن مقطوعة، رأس مشجوجة، آثار جروح لآلات حادة، عضوه الذكري صعق بالكهرباء.

لماذا جئت إلى هنا؟ أي طيف كنت تتبع؟ الأطياف مهزومة سلفا، الأطياف ثقيلة وقاتلة.

يخبرني ســائق شاحنتي مدعي البراءة، أن من الأفضل أن نتلو صــلاة قصيرة قبل أن نلقيه في المصــرف، أطلب منه أن يخرس فأتلو صلاتي، دم رامبو الفاسد وعواء جينسبيرج:

"ورثت من أســلافي العيــن الزرقاء البيضــاء والمخ الضيّق والرعونة في القتال. أرى ملبسي بمثل بربرية ملبسهم. سوى أنني لا أدهن شــعري. كان أسلافي ســالخي جلود الحيوانات ومُحرقي العشــب الأكثر غباء في حقبتهم. لــديّ منهم: حب الخطيئة؛ جميع الرذائل، الغضب، والفجور؛ رائع هو الفجور؛ وخصوصًا الكســل والكذب.

جميع المهن تُفزعني. السادة والعمّال جميعًا فلاحون بلا نبالة. اليد حاملة اليراع تتساوى واليد حاملة المحراث. مولوخ؛ *عزلةٌ! قذارةٌ! بشاعةٌ! براميلُ قمامة ودولاراتٌ بعيدةُ المنال! أطفالٌ يزعقون تحت السلالم! صبية ينشجون في الجيوش! شيوخٌ ينتحبون في المنتزهات!* أنا لن تكون لي يدي أبدًا. ثم إن التدجّن يقود بعيدًا. ونزاهة التسوّل تؤســفني. المجرمون مُقرفون شأنهم شــأن المخصيّين: أنا سالم لم أُمسّ، وسواء هو الأمر عندي.

مولوخ الذي عقله آلية خالصة! مولوخ الذي دمُهُ مالٌ جارٍ! مولوخ الذي أصابعه عشرة جيوش! مولوخ الذي صدره دينامو آكلٌ لحوم البشر! مولوخ الذي أذنُهُ قبرٌ يعلوه الدخان! لكن من

جعل لساني بمثل هذه المراوغة حتى قاد كسلي وصانه حتى هذه اللحظة؟ دون *أن استخدم لأعيش حتى جسدي، وبأكثر بطالة من ضفدع، عشت في كل مكان. ما من أسرة إلا وأعرفها. ورثت من إعلان حقوق الإنسان كل شيء. ما من ابن أسرة إلاّ وعرفته.*

مصروع في مولوخ! مصّاص الذكور في مولوخ! محروم الحبّ ومخنّث في مولوخ! مولوخ الذي باكرًا اقتحم روحي! مولوخ الذي أنا فيه وعي بلا جسد! مولوخ الذي أرعبني وصدّني عن نشوتي الطبيعية! مولوخ الذي أهجره! أصحو في مولوخ! نور يشعّ من السماء!

لو كان لي أسلاف في مكان ما.

ولكن لا شيء!

رؤى! تكّهنات! هلوسات! معجزات! نشوات! غاصتْ *في النهر! أحلام!* عبادات! *إشراقات! ديانات!* حمولة *المركب كلها من القذارات الحسّاسة! اختراقات! على طول النهر! تشقلبات وحوادث صَلْب! غرقتْ في الطوفان! سَكَراتٌ! أعيادٌ!* حالاتُ *يأسٍ!* صرخاتٌ *حيوانية وانتحارات لعشر من السنوات!* بديهي في نظري أنني دائمًا كنت من عرق مُتدنّ، لا أقدر أن أفهم التمرّد. وما انتفض عرقي إلا من أجل النهّب: كما تفعل الذئاب بالحيوان الذي لم تفلح هي في قتله. قهقهة مقدسة حقيقية *في النهر! رأوها برمتها! العيون الوحشية!*

الصيحات المباركة! قالوا الوداع! وثبوا من السقف! إلى العزلة! ملوحين! حاملين زهورا! هابطين إلى النهر! فالشارع!.

"*آميـــن*" قال الســـائق مدعي البــــراءة، وهو يرتكـــب جريمته الأولى.

4

وصلت الشـــاحنتان إلى مزرعة مولانا، الفجر يبزغ، والقصر المهيب يطل. سور سداسي يظلل سبعة آلاف فدان، القصر واجهة خادعة لغابة أشجار عملاقة بلا نهاية، جبارة وكثيفة، طول الشجرة الواحدة يقرب من مائة متر كعمارة من ثلاثين طابقًا. لا أعرف متى زرعت، لكني أعرف أنها تعمر لآلاف الســنين. من يزرع شجرة عملاقة تعمر لآلاف السنين سوى مولانا. أبله يخطو إلى الثمانين، يعتقد أن الموت لن يصيبه.

قطر الشـــجرة خمسة عشـــر مترا. لا أعرف كيف زرعها. لا وجود لأشجار السكويا العملاقة إلا شمال العالم. من جذوعها صنع أنفاقا كالمتاهـــة، جهز داخلها بيوتا وحانـــات ومطاعم للمأكولات وأماكن للشـــواء ومنصات مســـرح متناثرة. لا يســـتعملها أبدا إلا أسبوعين في العام، حيث يجري احتفالا كبيرا لا يسمح لي بدخوله، يأتي إليه الســـادة في السياسة والاقتصاد ورجال الأعمال من دول كثيرة. أعرف أنه لا يســـمح للإناث أيضا بحضور الاحتفال. حفل من ذكورة خالصة. يقضي السادة أسبوعين كاملين هنا في معسكر،

لا يُسمع من الحفل سوى موسيقى صاخبة. فضولي يقتلني، خاصة أني أعرف أنه يسمح لابنه ناجي الذي يعترف به - أأسميه أخي؟ - أن يحضر. لكني عُذبت مرتين وهُددت بالطرد عندما حاولت التسلل. يسمح للحيوانات بالدخول للحفل ولا يسمح لولده.

أدخل الغابة أي وقت في السنة عدا أسبوعي الاحتفال، حيث مزرعة عبيد مولانا وثيرانه ولا أفهم شيئا. حاولت فهم الغابة الخاوية بالعربة مرة وبالترجل مرة. العربة لا تفيد في المتاهة، لا نجاة منها إلا بالطريق المباشر بين مدخل قفص العبيد الكبير ومدخل المزرعة. الترجل يائس، ففي كل مرة أقف أمام حضرة شجرة السيكويا العملاقة، أتأملها بالساعات وأنسى الترجل في الغابة للاكتشاف، فأشعر بغواية أنها ستنطق، لكنها تبدو كأنها هي من تستنطقني، وبعد أن تفرغ مني أشعر أنها جاهزة لابتلاعي، فأفر. الثيران وحدها هي الطليقة في هذا المكان، قد أتعثر بأحدها، تهاجمني، وأرى قرونها على وشك التهام قلبي، أرى نيتها الواثقة، لكن في اللحظة الأخيرة للطعن تتراجع، وتكتفي بدفعي بقرونها إلى الخارج.

نصل إلى بوابة القصر، بوابة الثور المجنح، فالقصر محروس بتمثالين لهما وجها إنسان وأقدام أسد وأجنحة نسر وجسدا ثور، أنا من أحضرتهما إلى هنا في صفقة ليست الأكبر مع داعش التي

حطمت أغلب التماثيل الشـــبيهة بالعراق، أنقذت ثيرانا مجنحة من الغباء والموت. كنت أظن أنه ســيخبئهما لكونهما تحفتين أثريتين، لكنــه مولانا، لا حــدود لنفوذه. في الواجهــة وليس في مكان آخر وضع ثورين مجنحين بتبــاه خالص. ووضع ثورا ثالثا على بوابة غابة السيكويا العملاقة.

أقوم ببعض الاختلاسات الصغيرة غير الملحوظة والمتراكمة، من إدراتي لصفقات العبيد والمخدرات وبيع النساء والأطفال القُصَّر للدعارة والعمل المجاني والرخيص والعاملين في مصانع مولانا وغيره وطلبات الاغتيال الشخصية والسياسية، كازينوهات قمار ورهانات للألعاب الافتراضية ومباريات كرة القدم ومصارعة الموت على الديب ويب، حيث كل رابح يخسر بالضرورة، ولا نخسر شيئا.

ثروتي الطيبة المخبئة داخل لعبة Silk Road، من عملة الإنترنت الافتراضية النمكوين، التي لا يمكن لأحد تعقب مصدرها.

كنزي من النمكوين يساوي ملايين الدولارات، أكتنزها في أرض افتراضية باللعبة، وأعيش في عباءة الفقر، وأنتظر أن يقفز سعرها إلى السماء.

لا أمتلك شيئا باسمي سوى خمسة مخازن واسعة تحت الأرض، أخبئ بها مقتنياتي الفريدة والغريبة بعيدا عن عين مولانا نفسه،

كتب وتحف ولوحات ووحوش وآدميون وحيوانات غريبة وسبائك ذهب وفضة.

لم يفلت مني سوى عبد المولى، لم أعرف أني سأبلغ بندرته هذا الحد، أردت التباهي أمام مولانا، يائسا ربما من الحصول على اعترافه بقدرتي، لكنه لم يقل أكثر من *"جميل"* بحيادية وببرود، وأشاح بوجهه عني، وأكمل تأمل زهوره وسقيها الحنون بالماء.

بدأت بالفعل في البحث عن أفضل الجزر وفقا لشروطي، هادئة، بلا ريح عاصفة ولا يصدمها صخب الأمواج، لا تطل على جزر أخرى، فقط الماء والأفق المفتوح كأن لا أحد في العالم، مساحتها لا كبيرة ولا صغيرة، لكنها تكفي للانطلاق على فرس أو عدوا كأن لا نهاية للأرض، تصلح لزراعة النخيل ونباتات لطيفة، أرى من قصري الصغير كل شيء، لا أشجار سكويا عملاقة ولا غموض.

عند بوابة القصر، أطلب من أمين الشرطة مغادرة شاحنة الأمن المركزي التي يتسلمها العاملون في قصر مولانا، أنهر أمين الشرطة قائلا: *"انزل يا روح أمك"*، ننزل معًا، المطواة في يدي، أمرر جرحا لن يندمل فوق خده الأيمن، قائلا بهدوء: *"كلما نظرت إلى وجهك في المرآة، ستعرف أن ليس عليك أبدا أن تذكر أمًا لا تعرفها بسوء"*. يرتعش أمين الشرطة المتبجح، ويومئ بعلامة الخضوع، لا أعرف لم فعلت هذا، فأنا لم أر أمي الحقيقية التي سلمتني رضيعا لجارتها

الفقيرة واختفت، لا أعرف عنها إلا حكايات متناثرة ومتناقضة تؤكد لي ألا أحد يعرفها، ففي حكايات تظهر كقديسة، وفي أخرى تظهر كأشد النساء عهرا.

أُخبر أحد العاملين بعدد الأجساد في الشاحنة، سآتي غدا لآخذ بعضا من السلع إلى مصنع ترميم الأجساد. أطلب منه التأكد من تطبيبهم سريعا وتغذيتهم جيدا، يعرف أن الطفلتين لمولانا، لكنه لن يراهنَّ إلا في هيئة بهية، يسألني عن نسبة الفاقد، أخبره: لا أعرف قد تصل إلى ستة في المائة من البضاعة. هكذا سأختلس الأجساد التي أريدها لنفسي، لن يتكرر خطأ هركليز. *"مولانا ينتظرك"*. أمين الشرطة المجروح ينتظر عودة شاحنته فارغة، لا أنسى أن أكرمش ورقة من فئة الخمسين جنيها في يده. هكذا يصفح العبد، ويمنحني خده الأيسر.

5

أعبر من بوابة الثور المجنح إلى حديقة صغيرة لنباتات نادرة، تتناثر حولها أقفاص لأسود وثعابين وحيوانات على وشك الانقراض. للقصر برج يدور كل ساعة مع الشمس، على قاعدة متحركة، من يجلس فيه يستطيع أن يحيط بكل الاتجاهات، لا سلالم تؤدي إليه، بل أعمدة حديدية يتسلقها مولانا وحده ليشرب الشاي في الغروب. العاج منثور خارج القصر وداخله.

أصعد درجات السلم الرخامية البيضاء الممتدة حتى مدخل القصر، إحدى الدرجات يقف عليها تمثال لفارس روماني يرفع سيفه وتحت قدمه رأس مقطوعة. درجات أخرى، ثم أرى تمثالا لفارس روماني آخر، يتكئ على يد ويرفع الأخرى، رأسه مقطوعة وبلا ذراعين، أظنه ضحية الفارس الأول.

تماثيل الفيلة الهندية تحمل شرفات القصر من الخارج، نوافذ القصر من زجاج بللوري يرى من خلاله كل شيء دون أن يراه أحد، باب القصر من خشب معشق بالزجاج، على جانبيه تمثالان لامرأتين بلا رأس.

في بهو القصر، مولانا برفقة ناجي، أخي الذي لا يعرف ذلك، يظنني عبدا آخر في فلك مولانا. ناجي شديد الجمال، نظيف كالماء، لا خطأ فيه. بلا كرش، أو صلعة، أو ندبة. وسيم، طويل القامة، بقوام رياضي. المثال الحي لما يجب أن يكون عليه الكائن، فظاظته خفة دم، استخفافه بكل شيء إدارك، بروده ثقة، خضوعه لرغباته إلى النهاية إنسانية، وهجه عارم، غضبه قاتل وبلا قطرة دم. جسدي يتحول مع الزمن -رغم أن عمري لا يزيد عن خمسة وثلاثين عاما- إلى نقيضه.

أيحبه مولانا؟ لكن مولانا لا يحب إلا نزواته وماله، على الأقل هذا ما أعرفه، أقدر مشكلة ناجي، وريث رجل لا يخطط للموت، يقول مولانا دائما: *"أحضّر مفاجآة للموت عند حضوره"*. كانا يتأملان معا نموذجا مصغرا لمبنى، تبينت أنه للكولوسيوم الروماني، مبنى الألعاب الأكثر بهاء ووحشية في التاريخ. كما تعودت، عندما يكون مولانا مع ناجي، أكتفي بالصمت والجلوس بعيدا، لا يخبراني أبدا عن خططهما الدائمة والحيوية للمستقبل. أتأمل كمتطفل، دوري فقط هو التنفيذ.

بهو القصر مليء بتحف من الذهب والبلاتين، ساعة أثرية قديمة لا مثيل لها إلا في قصر باكنجهام الملكي بلندن، تحكي الوقت بالدقائق والساعات والأيام والشهور والسنين والتقلبات في وجه

القمر ودرجات الحرارة، لماذا يهتم رجل سيفاجئُ الموت بالوقت إلا ليقينه في هشاشة خلوده. أرضية من الرخام والمرمر. تماثيل لبوذا ولتنين أسطوري. للقصر أربعة طوابق يربطها سلم حلزوني، نقش درابزينه بصفائح البرونز، وبتماثيل هندية صغيرة الحجم، دقيقة النحت. قصر مصمم كي لا تغيب الشمس عن حجراته وردهاته. الدور الأرضي، ليس إلا صالات ضخمة، محاطة بعدد كبير من الأبواب والشرفات. بقاعة المائدة، رسوم مأخوذة من مايكل أنجلو ودافينشي. في كل ركن تمثال ثمين لإله هندي.

هناك سرداب، يضم أماكن إقامة الخدم، وغرفًا للضيوف، أفرانا ضخمة، مغاسل رخامية. إحدى غرف السرداب، تتصل بقاعة المائدة عن طريق مصعد فخم من خشب الجوز.

لا شيء جديد، نسخة من قصر البارون إمبان في مصر الجديدة، قبل أن يتآكل بهاؤه، ويتحول إلى خرابة لقصر مهجور، ثم يهدم بأمر من الحكومة، ويصعد مكانه مول تجاري من ثلاثين طابقًا كشجرة السكويا، مملوك لمولانا.

أعـــرف لأني من دفعت القصر الأصلـــي للخراب؛ كي تصبح نسخته في الصحراء هي الوحيدة والأصلية.

فقبل عدة سنوات، أعدت إحياء قضية عبدة الشيطان التي أثيرت في التســـعينيات. لا شيء أكثر من شباب يبغي اللهو وجد بغيته في

القصر المهجور لإقامة حفلات صاخبة يرقصون فيها على أغاني البلاك ميتال، وهو ما جعله ملهما لأساطير المارة والجيران التي صورته أنه مأوى للشياطين.

كنت أقوم بتخريب يومي متعمد للقصر الأصلي، وسرقة دؤوبة لتحفه. كنت أتسلل لأشعل حرائق وأطفئها؛ كي يرى الناس دخانا من نار اشتعلت وانطفأت بلا سبب. أطلق من حين لآخر موسيقى البلاك ميتال من جهازي حامل علامة التفاحة المقضومة موصلا إياه بسماعات كبيرة.

خدمني الحظ في مريم ابنة البواب، كانت الطفلة تتسلل ليلا لتجلس في المصعد الذي انحشرت فيه منذ قرن زوجة البارون وماتت. كنت أشفق على مريم لإصابتها بشلل الأطفال، كان مزاجها معتلا بسبب مرضها، لكني بدأت في الحديث معها دون أن تراني مستغلا الظلام. صرنا أصدقاء، وتحسنت حالتها كثيرا، كانت تعود لأبيها وتخبره أنها وجدت صديقا ترتاح إلى الكلام معه. ذات مرة انتظرتني مريم، لم أجئ؛ كنت مشغولا في التأسيس الأول للرهان الصاخب. سقطت في بئر المصعد. لقد حزنت، لقد ذكرتني بالأثر المفقود لأخواتي البنات، لكن ذلك لم يجعلني أغفل بهجة الحظ في المسألة. قالوا إن الأشباح قتلتها، وإن الصديق كان روح البارون إمبان الهائمة. هذا المصعد القاتل، حُشرت فيه منذ قرن مدام دي مورييه، رئيسة خدم

القصر، حمل المصعد رأســها منفصلة عن جسدها. شقيق البارون لقي مصرعه داخل الســرداب الذي كان يصل بين القصر وكنيسة البازيليك العريقة، يقولون إن هنـــاك نفقًا آخر يؤدي لقصر رئيس الشياطين. احتفظنا بالفكرة نفسها في النسخة المنتحلة والتي صارت أصلية، حيث يــؤدي أحد الأنفاق الطويلة إلى قصر الجنرال، أعلم أن هناك أنفاقًا أخرى، لكن منعني مولانا من الإشـــراف عليها، فلا أعلم إلى أين تؤدي. يحمل الســرداب غرفة مسحورة، يقولون إن ابنة البارون كانت تحاول الاتصال بالشيطان عبر البخور والتراتيل الحزينة.

إدوارد إمبان، صاحب المشاريع العملاقة في أوروبا وإسبانيا وروسيا والصين ومصر في نهاية القرن التاسع عشر، حيث انتصر التطور الصناعي كديانة. باني مصر الجديدة، منحته الحكومة تسهيلات كي ينشئ ضواحيها بجنيه واحد لكل فدان، أنشأ شركات المياه والكهرباء والمترو وبناء العقارات.

عملي الدقيق هو ما سهل على مولانا هدمه في النهاية، لكنه لا يسمح لي حتى بغرفة في ظله.

"لمن يا ترى أؤجرنـــي؟ أي حيوان ينبغي أن نعبد؟ أية صورة مقدســة نهاجم؟ أية قلــوب أحطم؟ بأية أكذوبــة أنطق؟ في أي دم أخوض؟" يتســلل رامبو إلى عقلي، بينما تلتقط أذني بضع كلمات

شـــاردة من حوار مولانا وناجي الهامـــس، تنفلت بعض العبارات بصوت عال تحـــت ضغط الحمـــاس *"جينات المـــدن"* .. *"الواقع الافتراضي هو المستقبل"* .. *"تنام في القاهرة، وتصحو في روما"* .. *"النسخ الشـــعبية الرخيصة"*. أعلم من لمعة عيني مولانا الخاطفة، ومن اتكائه ومن تلذذه اللامبالي بالســـيجار أنه شـــديد الحماسة لما يحاول ناجـــي إقناعه به، فقط يدعي العكس، ويمنح نفســـه الوقت لمضغ الكلمات وفهمها، ستصير كلماته فيما بعد.

لمولانا لحية بيضاء شديدة الجمال، مهذبة وقصيرة، تلفه بالهيبة والحكمة، أسمر اللون بشعر أكرت ملفوف في حلقات بيضاء كثيفة، بدانته هي بدانة الكسل لا الشره، التلذذ البطيء بالحياة. ذراعان يحتضنان العالم داخل تلك البدانة الوسيمة، قد أكتفي بهما عن كل شيء، لكنه لن يفعل، أحب تلك اللحظة، التي ينفث فيها حوله سحابة دخان من السيجار، وحدي أراها حروفا ورسومات طفولية مدهشة.

أغفو. أصحو على لكزة مولانا. ناجي رحل. يعود مولانا إلى كرسيه الهزاز، موسيقى الدانوب الأزرق لشتراوس تعبق القصر كبخور. يصحو في الرابعة صباحا كل يوم، ولا أعرف أبدا متى ينام. علي أن أعطيه تقريرا عن أهم ما حدث الأسبوع الماضي. لا يسأل أبدا عن الأرقام. كل ما يهتم به هو نزوات العملاء، تسليه حقا. يسأل عن أفضل طلبات القتل التي وردتنا.

"راسلتنا سيدة اسمها الافتراضي على شبكة الخدمات: جندرية، تطالب باغتيال روائي؛ لأنه جعل بطلة روايته سلبية ولم تقاوم الهيمنة الذكورية، ولم يصورها إلا كسلعة، ولم ير فيها سوى وسيلة للجنس".

ضحك مولانا، قائلا: *"على أيامنا كانوا يسمون ذلك بالأدب الملتزم، تلقيت عروضا مثيلة في شبابي لاغتيال نجيب محفوظ من شيوعيين، لكني لم أفعل. أسميته نجيب محظوظ، لو نفذت طلبهم في الستينيات لما حصل على جائزته، قابلته مرة في سنواته الأخيرة بعد أن حاول إسلاميون اغتياله، همست له بالحكاية وأنه يدين لي بالعالمية، ابتسم دون أن يعلق".*

سألته: *"هل أبلغ القناص أن يوقف عملية القتل؟"*. رد: *"لا.. لا.. الأمور تغيرت.. هؤلاء يدفعون كثيرا في هذه الأيام، كما أن الروائيين صاروا أكثر شيوعا من فقراء الماركسيين على أيامنا، لماذا في رأيك لا نستجيب لطلباتهم في قتل الفائزين بالجوائز الأدبية؟ اقتل الروائي، معدم آخر سيضيف خرائية جديدة للعالم، وتعقب عنوان تلك الـ.. (جندرية)؛ أي هراء تختبئ الماركسيات الجميلات والثريات خلفه هذه الأيام!".*

يسألني عن أغرب الإعلانات التي وردتنا. أخبره: *"نشر أحدهم إعلانا مع فيديو قصير: هل تقبل أن تكون عشائي؟ مصور بشكل*

سيئ، لرجل في غرفة، أجزاء من لحمه مقطوعة، أمامه فتاة بيضاء صغيرة الحجم وعارية على طاولة، عينا الرجل تفيضان شبقا بالفتاة، لكن بدلا من أن يقبلها يقطع جزءًا صغيرا من ذراعه اليسرى ويلتهمها؟ ثم ينظر إلى الكاميرا، ليخاطب جمهوره: كنت في الماضي أعجز عن أكل من أحبه، فآكل نفسي. لكن الآن.. يبدأ في التهام أجزاء من الفتاة البيضاء المستسلمة والسعيدة. يدلف إلى الغرفة شاب وسيم. يتلفت إليه الرجل ويسأله: هل تقبل أن تكون عشائي؟ يجيب الشاب: بكل سرور. ثم يلتفت عن الفتاة البيضاء، ويبدأ في التهام الشاب. ثم تظهر على الشاشة هذه الجمل آكلهم لأني أراهم شديدي الجمال، وأرغب في أن أحتفظ بأجزاء حية منهم بداخلي أنت أيضا.. بإمكانك أن تكون عشائي.

لقد تلقى هذا الرجل مئات الطلبات.. إنه ينتقي الأفضل الآن".

نفث مولانا دخان سيجاره، نظر إلى السقف، ثم سأل إن كان الرجل قد طلب مالا مقابل انتقائه لأفضل شخص للأكل، أو طرح الأمر في مزاد علني. أومأت بالنفي. يصمت مفكرًا في شيء ما.

يقطع الصمت صوت طفلة، نورا، عشر سنوات، جلبتها له من قرية في القليوبية، وأخريات من السوق السرية والعلنية في إمبابة وعبر الإنترنت ومراكش وبانكوك. تقترب نورا من مولانا، فزعة، تخبره أنها رأت أشباحا تصرخ في غرفتها داخل السرداب. يجلسها

على حجره، ويهدهدها، يحتضنها برقة بين ذراعيه الحنونتين: *"لا شيء يا طفلتي لا شيء، أنا هنا ولا خوف، سأمنعهم من مضايقتك مجددا"*.

مولانا هو الطفل الآن. نورا جميلة، ذكية، نشيطة، تمتص الحياة ببهجة، كما رأيتها حين اخترتها، هل تظن حقا أنها تصدقك عندما تخبرها أنك ستحميها من أشباح لا وجود لها، هل تظن أنها بريئة إلى هذا الحد. تقبله بشهوانية في فمه، وتمتثل لطلبه في العودة إلى فراشها، وعيناه تتابعان عدوها الطفولي والمصطنع بهيام. نورا ترغب في أن تكون أميرة القصر، ألّا تلقيها كأخريات عقب الاستعمال كمنديل ورقي، لقد رأت كيف تعامل حريمك من فتيات الهابي ميل، كمحض لصوص وكلاب. لقد أفلت مرات من صراخهم طلبا للشفقة على الأقل، لكن تلك؟ لقد جذبتك إلى الفخ، فهمت الأمر أكثر مما تظن، وألا مجال للتمرد أو الهرب.

أخبره عن رغبة نفيسة البيضاء في رؤية عبد المولى في عرض خاص بقصرها. يقول مولانا بنظرة أدرك مغزاها: *"افعل.. عاجلا أو آجلا لن تخلد نجومية هركليز طويلا"*. أتجاهل إشارته.

أهم بالرحيل، لكنه يستوقفني، يسألني عن أي شيء آخر غريب قد حدث ولم أذكره. أجيبه: *"لا"*. يسأل: *"والبضاعة؟"*. أتذكر الأجنبي، لا أعرف إن كان يهمك أم لا يا مولانا. لقد نفق أحدهم ونحن في

الطريق. أحكي له قصة الماركسي، كما قرأتها في أوراقه.

قال مولانا: "*قتله من أخرجه. جرثومة ماركس لا تموت*". ثم غاضبا: "*عم يبحثون؟ عن الحتمية التاريخية لانتصارهم؟ لا شيء حتمي إلا الفناء. كل ما نملكه هو تأجيله قليلا ومراوغته. الماركسيون أكثر القتلة ذكاء على الأرض، قتلة ملتحفون بالشعارات. لو ملكونا لصاروا رسل الجحيم لكل من لا يؤمن بوعد جنتهم. سرطان لا شفاء منه. يعينون بعضهم في المؤسسات الكبيرة، هكذا يتسللون، يتصدرون المناصب في الصحف، ويتكتلون للتآمر، يدافعون عن العفن، لا يستنكرون الثراء، ثم يحدثونك عن البروليتاريا المطحونة، يستخدمون آلات الرفاهية ويأملون بامتلاكها ليقفزوا فوق صانعيها، يتبعهم الغاوون في نظريات عن الاقتصاد والفن والفلسفة، يحصدون الجوائز، يتسللون عبر السينما والأدب، يسيطرون على الرؤى بإنتاج رأسمالي، ثم يشتكون، قرأت مقالا لأحد دعاتهم اليوم يتحدث عن (الذكاء الماركسي) الذي تسرب في كل شيء، وأنهم رغم هزيمة دولتهم المثال، سيتجمعون يوما من هذا (الشتات الماركسي)، ويشبّه الرأسمالية بأفران الغاز التي تقتل الجميع. كيف نشفى من طاعون ماركس؟ أمل الفئران*".

يتناول حبة من علبة دواء، أنتظر حتى يهدأ. ثم استأذن للرحيل. يستعيد صفاء وجهه، ويسأل: "*أترحل هكذا دون قبلة لأبيك؟*".

أرتبك، لم يقل جملة كتلك أبدا، أقترب منه، أهم بتقبيله، أحار أأقبل رأسه أم خده كي أمنع نفسي من تقبيل قدميه، هل أحتضنه؟ لكنه يسألني بصوت هادئ: *"كم سرقت مني اليوم؟"*. أنتفض بجسدي إلى الوراء، لكنه يمسك بذراعي مطمئنا إياي. أقول: *"لم أسرق شيئا"*. يسأل مرة أخرى بثبات: *"كم سرقت مني اليوم؟"*. أثبت على كذبتي: *"لم أسرق مليما منك طيلة حياتي"*. يمسك خصيتيَّ بيديه الثقيلتين، يضغط عليهما بشدة، أجن من الألم. يسألني مرة أخرى: *"كم سرقت مني اليوم؟"*. لا أجيب، فيضغط أكثر. يكرر سؤاله، أتمالك نفسي، وأنظر إلى عينيه بتحد، أجيب: *"ما يكفيني"*. يتركني قائلا: *"جدع"*. ما إن أستدير، حتى يبعبصني في مؤخرتي، ويضحك، أهرول مبتعدا، أسمع بصقته المحتقرة تطاردني، فأستمر في الهرولة دون أن أنظر إلى الوراء.

6

السادسة صباحا. أشتهي النوم، لكني أعرف أنه لن يطيب لي إلا بعد أن ألقي نظرة على أحد مخازن كنزي، هكذا يشفى قلبي من إهانات مولانا ومن أثر الصخب. الإعلان على الشاحنة يتغير تلقائيا من صورة عبد المولى إلى صورة فتاة لطيفة تقول: *"كل حاجة حلوة في روما"*، بعض الإعلانات في الطريق تتبدل إلى نفس الرسالة الغامضة، كان ناجي على صواب بحديثه عن روما الذي لم أفهمه.

الإعلان على شاحنتي هو ترمومتر، ينتقل تلقائيا إلى شاشات الإعلانات في الشوارع. يلتقط رغبات الناس، أحاديثهم الصاخبة والهامسة واللامبالية أمام التليفزيونات الذكية، هواتفهم، أجهزة الألعاب، أجهزة التحكم عن بعد، رسائلهم النصية، تغريداتهم، بياناتهم الشخصية، المواقع التي يقرأونها، الأماكن التي يزورونها، ويحول رغباتهم إلى إعلان يتخذ تلقائيا رسالة قصيرة وصورة قبل أن يصنع المنتج أصلا، قد لا يصنعه مولانا، لكنه يطرحه، مع تصورات بأفضل المنتجات على الشركات التي تدفع له ثروات طائلة.

الإنترنت يعرف عنك أكثر مما تعرفه عن نفسك، ما تفكر به، ما تنويه، ما تعتقده، خطاياك السبع، نقاط ضعفك وقوتك، طول قضيبك، لون ملابسك الداخلية.

"*هذا أفضل ما تم اختراعه*"، يقول مولانا. يسميه رسول النزوات، وهو الاسم الذي أعلم أنه يرى فيه نفسه، فهو يؤمن أن "*كل الأفكار الكبرى احتاجت إلى أنبياء، عدا الرأسمالية، لم تفرز إلا حواريين، فهي ابنة الغريزة، صنعت تلقائيا دون أن يشكلها أحد بالقوة، بعد أن تخلصت من مرثيات الكسالى والفاشلين التي تعدهم بتجميع حسناتهم في الدنيا لشراء أثاث الفردوس في الآخرة. الشركات الكبرى آلهة، والأرباح حسنات العاملين بجهد في الدنيا، والفقر هو جحيم الكفرة، والكسل والغباء علامتان للخطيئة*" الجملة نفسها التي جعلت مولانا يطرح فكرة أجهزة وتطبيقات تعطيك حسنات ونقاطا كأرباح للآخرة، وفوائد على قروض اللـه، فهي تنطق التسبيحات والأدعية والاستغفارات بدلا عنك، وتنشرها على حساباتك تلقائيا، تقرأ عنك السور وترفع الأذان. كان الإعلان المصاحب: "*اكسب الملايين في دقيقة*". لقد جنى مولانا من تلك الفكرة أضعاف ما جنته كنيسة روما من بيع صكوك الغفران.

يتدخل أحيانا بفرض نزواته الخاصة، أعرف فترة لم تشهد لوحة الإعلانات سوى صور لطفلات مبهجات، لا يقلن شيئا، فقط يظهرن،

حيويات، ذكيات، نشطات، إقبالهن على الحياة يبدو سرمديا وبلا عوائق كأميرة قصره الأخيرة نورا. كنت أعرف أن المنتج المراد ترويجه سرا هو دمى جنسية للأطفال تصنع في الصين.

لكن رغم كل هذا الإحكام، ينفلت رسول النزوات أحيانا عن الخط المرسوم. فعندما انتشرت أفكار ومقالات ترصد مراقبة بيانات المستخدمين على الإنترنت، ظهرت صورة لعلامة الواي فاي كتب تحتها الأخ الأكبر يراقبك. غضب مولانا بشدة ولما هدأ، أشار إلى تسريبات إدوارد سنودن موظف وكالة الأمن القومي الأمريكية السابق، والذي كشف تجسس الحكومة الأمريكية على الهواتف والاتصالات على الإنترنت، قائلا: "*من يراقب من؟*".

عندما عم الحزن على وفاة ستيف جوبز، ظهرت صورته على لوحة رسول النزوات، في هيئة النبي داود وهو يهزم العملاق جالوت بقذفه بنسخة أولية من جهاز ماكنتوش. ضحك مولانا كثيرا، قائلا: "*ومن يقتل داود بعد أن يصبح عملاقا؟ أوهام اليسار خرائية*".

يعزو مولانا أي خراء يقابله إلى كارل ماركس. في شبابه، كان يعبده. كان ماركسيا عتيدا، ومثقفا رغم كونه عاملا بسيطا في مصانع الحديد والصلب بحلوان.

أبي معتقل كل العصور وفقا لروايته، طفلا، كان يوزع منشورات

ضد حكومة السـراي، اعتقل أياما قليلة. في منتصف الخمسينيات اعتقـل لانتماء واهٍ للإسـلاميين، كنت أميل إلى مـا يقولونه فقط، يقول مولانا: *"لم أرتكب حتى جريمة الإيمان الكامل، وأثناء تعذيبي صرخت: يا إلهي.. يا إلهـي.. لماذا تركتنـي؟"*. أجابوني: *"لو ربنا نـزل هنا، هنعتقله"*، عرفت أنه ليس هنا، لـو كان هنا لما تركني لأعذب.

تعرف هناك على الشـيوعيين المعتقلين، راقت له محاوراتهم عن كانط وهيجل وماركس ولم تفارقه القراءة من وقتها، انضم إلى تنظيم حدتو. في بداية الستينيات، اعتقل مرة أخرى. تعرض للتعذيب بأشكال أشد من المرة الأولى.

يقول مولانا: *"سـحلت عاريا، زحفت على الطين سـتة عشر ساعة بلا شراب أو طعام، العسـاكر تدهس جسدي، سرت عاريا فوق ألواح من مسامير، انحنيت على أربع، أطلقت أصوات الأغنام، أُجلد في المرة الواحدة خمسمائة جلدة، ثم يرشون الملح على شقوق الجـروح، كان جلادي فنانا لا يخطئ سـوطه موضع الخصية إذا أراد، يكررها كل مرة بدقة تدعـو للإعجاب. يضغط الجلاد على حنجرتي في أماكن معينة، حتى أصل إلى الإعياء وأرى الموت"*. يقول: *"إنهم أطلقوا كلابا تغتصب المعتقلين"*. لا ينسـى أن يضيف *أنها لم تمسه. أتمنى أحيانا أن تكون قد فعلت رغم شكي في روايته*

كلها. يقول مولانا: *"نجــوت أيضا من منفاخ يوضع في المؤخرة، تمتلــئ البطن بالهواء ليقف الحــارس فوقها،* وضعوني في برميل ميــاه مليئة بالقاذورات، *ابتلعت كميات كبيرة منه، ما زالت ذكراها فــي حلقي. يميز وجه جلاده في المرتين، حمزة القســيوني، أثناء تعذيبه وهو يكرر السؤال مرة أخرى: "لن ينجدك اللـه، لن ينجدك إلا أن تطلــب الغوث من عبد الناصر"*. يقول مولانا: *"لا خصومة لي مع اللـه، فقد عرفت أنه ليــس هنا، تلوت أمام جلادي المقاطع الأولى من المانفيســتو كما يلقي هاملت مونولوج الكينونة: "شــبحٌ ينتاب أوروبا - شــبح الشــيوعية. ضد هذا الشبح اتحدت في طراد رهيــب قوى أوروبا القديمة كلها: البابا والقيصر، مترنيخ وغيزو، الراديكاليون الفرنسيون والبوليس الألماني.*

فأيّ حزب معارض لم يتهمه خصومه في السلطة بالشيوعية؟ وأيّ حزب معارض لم يردّ، بدوره، تهمة الشيوعية الشائنة، إلى أقسام المعارضة الأكثر تقدمية، وإلى خصومه الرجعيين؟" تلوتها، لأذكر جلادي أني أؤمن بما يؤمن به. أكون أو لا أكون، الحياة أو الموت، هل كان هاملت يفكر في قتل نفسه أم قتل الملك؟ رد الجلاد: *"لو كارل ماركس اعترض على عبد الناصر، كان هيبقى مرمي هنا زي الكلب. لا خصومة مع اللـه ولا كراهية، كيف أكره ما لا أتيقن من وجوده؟"* لكني على يقين بأن كارل ماركس كان هنا، هو شرارة كل هذا الجحيم، خصومة قلبي مع ماركس، وليس سواه.

أرى أبناء حدتو، وهم يهتفون لمعذبهم وينضمون إلى تنظيمه الطليعي ويُنظرون لقبولهم رشوة الوظائف بعد الخروج من السجن، ينقسم الأربعة منهم إلى اثنين، والاثنان إلى واحد، والواحد على نفسه لأسباب تافهة. لو حكموا مكان جلادهم، لما كانوا أقل دموية منه. لكن أكثر ما أثار حنقي، هو محاولاتهم البائسة لإيجاد الفردوس داخل السجن، يكتبون الروايات والأشعار، يكونون فرقا مسرحية، يزرعون حدائق صغيرة للخضروات ليتبرزوا ما يزرعون، يقيمون معارض ويرسمون لوحات، يغنون ويطلقون صحفًا وإذاعة، مائة يوم من كوميونة باريس، جنة الماركسيين المزعومة.

"*عندما خرجت*" يقول مولانا: "عرفت عدوي. وعرفت إيماني. لن يمس هذا الجسد إلا النعيم، سميت نفسي رسول النزوات. بتحقيق ما حُرم الناس منه. عملت بالتهريب، هربت كل السلع التي كانوا يرونها رفاهية لا تليق باللحظة الثورية ومحض مرض برجوازي. أتعرف من كانوا أفضل زبائني؟ أثرياء الطبقة الجديدة من الضباط الذين صاروا حكاما ومدراء مصانع، وسكنوا قصور الإقطاع. سهلوا لي عملي كثيرا، من يطيق الصناعة الوطنية البائسة فوق جسده أو في جوفه أو بيته؟ كونت عصبة، ولازمت معرفة النجوم في السياسة والثقافة والفن. كل طلب أحققه، القتل، التأديب، السطو. كل خصم سياسي أو ثقافي أو فني، كنت أعرف كيف أهينه. شبعت من كل شيء حرمت نفسي منه؛ كي تنتصر ديكتاتورية البروليتاريا

المهووسة بالجنة، ولو بحرق أرواح الجميع. أمنت المومسات الراقيات والشيكولاتة الفاخرة والثلاجة السرية والمخدرات للقادة، سهلت للحكام الجدد بيع الآثار وتهريب ثروات القصور المسروقة إلى الخارج، سرقت الدعم -رشوة ناصر الحقيرة- وبعته بأسعار مضاعفة، كيف يعبد المرء شخصا لأنه يقدم له زجاجة زيت مجانية؟ كنت أقوى من الجميع، أقوى من زعيمهم نفسه.

لكني لم أنس وجه حمزة القسيوني، جلادي. كيف يستقيم الجسد وجلاده بلا عقاب. لم يشف غليلي أنه اعتقل في نهاية الستينيات في خلاف مع العصابة المهزومة. انتظرت خروجه. بعد عام من وفاة سيده. كان يقود سيارته إلى الإسكندرية، عندما سبقته شاحنة كبيرة تتدلى من مؤخرتها أسياخ الحديد، يعرف السائق متى يتوقف، وفي أي سرعة مثالية، سيفعل ليصدم سيارة (النصر) البلهاء، فخر الصناعة الوطنية (من الإبرة إلى الصاروخ). الأسياخ مزقت رقبته، وفصلت كتفه عن جسده، خرج من السيارة قطعة قطعة، مات كثور يخور. الإسلاميون الذين عذبهم، سيتفاخرون بتلك القصة، ويظنون أنها عقاب الله، لا عقاب نخنوخ.

في بداية أيام السادات، اعتقلت لخلاف بين مهربين اخترت أن أساند أحدهم، لم يثبتوا عليّ تهمة واحدة، للمفارقة لم يجدوا سوى انتمائي القديم للشيوعيين، خرجت. وفي بداية أيام مبارك، سجنت

عاما في تهمة ملفقة، أثناء انقلاب السارقين الجدد على السارقين القدامى، حتى صرت أهم أعمدة الحكم، منسق الانتخابات السري، معري المعارضين في الصحراء، قاتل النابشين في صفقات الرئيس ودولته، عراب صفقات السلاح وبائع العبيد. كنت المستشار السري لرجال الأعمال في التعامل مع إضرابات العمال وهراءات الماركسيين، أشرح لهم تكتيكاتهم، وأعري خططهم، جنيت ثروة كبيرة من إرثي القديم.

"اسمي لم يكن معروفا" يقول مولانا *"فضّلت الظل دوما، رسول النزوات لا يرغب في الشهرة. في أول أيام الثورة البائسة على مبارك، لم يجدوا كبش فداء سوى نخنوخ، فاعتقلت لشهور قليلة، وخرجت؛ لأن لا أحد يملك أدلة، لم أكن قد انتقلت بعد إلى القصر الكبير، صوروا الفيلا الصغيرة، وتعجبوا من أقفاص بريئة لأسود وحيوانات نادرة، ألفوا الأساطير عن ليالي ألف ليلة التي كنت أقيمها للصفوة، دون أن يعرفوا ولو ذرة واحدة من الحقيقة.. لا أعرف حقا الفارق بيني وبين زملاء أوردي أبو زعبل، لقد أيدوا صعود الجنرال في النهاية بحماسة أكثر مما فعلت"*. صرخ مولانا عندما قبض عليه قائلا: *"آثار التعذيب على جسدي تشهد، كنت ثوريا قبل كل الثوار، مناضل حدتو، معتقل كل العصور"*.

7

أصل إلى مخزني القريب من بيتي المنعزل بأحد الضواحي. أهبط في الظلمة تحت الأرض، أعرف الطريق. أكشف الأنوار عن كنزي. سبائك الذهب والنحاس والفضة المستخرجة من مخلفات الحواسيب والهواتف الذكية، أجساد محنطة تنتظر البعث، بذور نباتات لطيفة تنتظر غرسها في جزيرة الفردوس، حيوانات أخيرة من نوعها ستشهد قيامتها فوق جزيرتي، دفتر يوميات دافنشي.

أول جهاز ماكنتوش تم تصنيعه، ليزا، فشل ستيف جوبز الأكبر وبرهانه. الرقاقة التي سلمها ستيف جوبز لراهب الزن، علامة حصوله على برهان التنوير، لم يحصل أبدا على علامته كراهب، حتى لو ادعى ذلك عبر ملازمته ارتداء التي شيرت الأسود. الرقاقة التي تنتظر ذاكرة كتلك التي قد تكون في جسد ليزا العاهرة، الذاكرة الأصيلة للعالم. ماض أعمى يعرف المستقبل.

عظمة من قبر فانجا عرافة البلقان التي عرفت كل شيء، ولم تنطق بكل شيء. سأستنطقها من موتها للتسلية؛ كي أحصل على نتائج المراهنات لمائة عام قادمة، تكفل لي ولزين فردوسًا لا يبلى،

فانجا تنبأت بالحرب العالمية الثانية، وانتحار هتلر، وموت ستالين، وسقوط برجي التجارة، وتسونامي المحيط الهندي.

تنبأت فانجا بأن الخلافة الإسلامية ستحتل أوروبا، وعاصمتها ستكون روما، وأن المسلمين سيصفّون سكانها الأصليين بحرب كيميائية، قبل أن تعود الشيوعية من جديد. كل الأشباح ستجتاح أوروبا.

فانجا رأت؛ لأنها عبرت وادي ظلال الموت. حتى الثانية عشرة من عمرها، كانت طفلة عادية لا ترى المستقبل أو النهاية، عندما جاء الإعصار المجنون، وحملتها الرياح لترتطم بالأرض، وجدوها بعد عدة أيام، شبه ميتة وعيناها اللتان فقدتا البصر مُغطاتان بطبقتين سمكيتين من التراب.

ماتت في منتصف التسعينيات، قد يكون معاصروها احترموا ما قالته، لكني أظن أنهم ضحكوا عندما قالت: *"إن الإنسان لن يقاوم رغبته في أن يصير إلها، عندما يتحول إلى (السيبورغ) مستبدلا أجزاءه الميتة بأجزاء من الآلة. إنسان جديد. سيتحكم الخالد في الميت، الأثرياء وحدهم سيملكون أن يكونوا آلهة بلا موت. العلم يدحض الخرافة، والتكنولوجيا تحققها"*.

يحب مولانا ناجي؛ لأنه أول الطريق للآلهة، لقد اصطفاه على محبة عينه، وبأمواله أنجبه في معمل دون زوجة. ذهب مولانا بقائمة

رغبات: نوع الجنس، لون البشرة، العينين، طول القامة، الصفات النفسية والشخصية. والأهم استبعاد جين القدم التائهة، الذي رآه في أمه ابنة عائلة جادو، والذي ظهر في بعض أفراد العائلة، وأدى بهم إلى الجنون. ومن أجل هذا الجين الضال، أجهض سبع نساء عاشرهن، كدن أن ينجبن سبع بنات. لا يرغب مولانا إلا في ذكر صاف، فما بالك ببنات يحملن الجين الضال. كل ما أعرفه أن أمي هربت؛ كي لا أُجهض.

فانجا رأت، وأنا أيضا رأيت صغيرا أرواحا تصرخ؛ لأنها ماتت غيلة ولم تدفن باحترام. لكني رددت هبتي، ولم أستسلم لها كفانجا، كيف تتحمل الروح العويل؟

لكن البنات السبع وجدن أكفانهن في أحلامي، تربيت على يد أطيافهن، هن أمهاتي. يظهرن كفاتنات لا رضيعات. يعاتبنني على الموت وعلى الحياة. ولا يفلتن مرة دون أن يشتكين من أني لا أزورهن، ولا يخبرنني مرة أين قبورهن. لكن يخبرنني دوما عن قبور الآخرين. على الدارك ويب، يؤمن جماعة أن أرواح الأجنة المجهضة تعود للانتقام من قاتليها، لذا يشترون هوياتها المفترضة، وتباع للراغبين في هويات مزورة، ظنا أن هذا يهدأ من روع المجهضين.

السبع بنات كن يرشدنني إلى رزقي المخبوء في الأرض، في

أماكن قريبة بعيدة وأماكن بعيدة قريبة: احفر ستجد حلقا مفقودا، قارورة عطر، حجابًا لفك أسر العشاق، أقمشة فارسية من كتاب ألف ليلة وليلة، ريشة فضية، خمورًا معتقة، معالق خبأتها الجنيات سارقة المعالق من المطابخ والنيش. كل شيء كان جميلا، حتى رأيت رأسا طافيا لرضيع ميت فوق نهر، تملكني الفزع، فجريت، حتى انتهيت أمام كوخ، لكن جاءتني أول نوبة صرع. فرأيت البنات السبع يولولن على رضيعة قتيلة، وأنا أصرخ في وصف الجريمة والقتلة، أقول بكلمات توحى إلي: *"إبراهيم يحب زينب، سافر من أجل زينب. سبعة أعوام. عاد، ليعرف أنها أنجبت سفاحا من شقيقه. فكر إبراهيم في قتل زينب. لم يستطع؛ لأنه يحبها. عامان وهو ينظر إلى ابنة السِّفاح، ابنة الغرام، ابنة زوجته، ابنة الأخوة العالقة في إنكار العداوة وتزوير المحبة، ولا يقدر على هجران زينب أو معاتبة زينب أو الغفران لابنة زينب، ابنة المحبة وجوهرة العائلة. لم يسجلها في بيانات الميلاد؛ كي لا يسجلها في بيانات الموت. إبراهيم وزينب، ضربا ابنة المحبة فلم تمت، كسرا أسنانها بالشاكوش، سخنا سكينا على بوتاجاز الخليج، انتظرا حتى اكتسب السكين طلاوة النار، ومررا السكين على كل جزء في جسد الرضيعة ابنة المحبة، فلم تمت، جلداها بسلك كهربائي حتى ماتت ابنة العامين، أكان ذلك فطامها؟"*.

ومن يومها وأنا في كل مرة أجد رزقي، أجد معه الموت، أكتشف

جرائم الموت غيلة، كانت تلك هي قدمي التائهة، جين جنوني. الناس تأتي إلي، وتظن أن عراف الموت ولد مبروكا لا ملعونا بسماع العويل الهامس والقابض.

حتى عثر عليَّ حفار قبور عائلة الهواري، صديق مولانا. مخفي جرائم قتله. مرمم أجساد العبيد. وجدتني أمامه، أنبش وأنبش في قبور موتى دفنوا بجوار عظام العائلة. الحكيم كاسمه عرف أني ابن مولانا. علمني مرمم الأجساد كل شيء. وعالجني من رؤية الموت.

حفار القبور/ الحكيم/ مرمم الأجساد، عرف أن خيالي يجعله يرمم الأجساد بشكل أفضل، لم أزرع إزميلا في حجر، لكني كنت أخبره بالسر الكامن وراء كل جسد، أرى الملك في الجبل، وأفروديت في الصخرة العمياء، وداود في كتلة الرخام التالفة، أخبره بالرسم كيف للجسد أن يكون، فيسعد ويسلم عملا لا يقارن بما قبل ظهوري. والدي الحقيقي هو حفار القبور، من منحني كل شيء، عالجني من رؤية الموت، وساعدني على اختلاس مولانا، *"حقك الضائع"* ، ما الأبوة إلا عطاء غير مشروط بجودة الابن.

أنظر إلى كنزي المخبوء، وأفكر في الرجل الذي كان يسأل بأدب: *"هل تقبل أن تكون عشائي؟"*. أفكر لمَ تحركت الضحايا إليه طواعية؟ أي غواية؟ هل يمكن لوم رجل قدم عرضه دون إجبار؟ يخبرهم أنه بأكلهم يحتفظ بجمالهم حيا. وأفكر: أي فارق بين الغواية والإجبار؟

سوط اللذة أم سوط العقاب؟ أفكر أن بطولتي الحقيقية هي في كبت اشتهائي لكنزي المخبوء، حتى تأتي لحظة العتق. الجوع ينهشني، الصخب ينسيني الطعام كما ينسيني الموت. أقترب من قفص، سلحفاة سيشيل النادرة والمنقرضة، أسميها سلحفاة داروين، السلحفاة الأخيرة. هذا الجمال كيف له أن يصير نهائيا وخالدا؟ أفتح القفص، أنحني أمام جمالها كعاشق، دون أن أفكر أسألها: هل تقبلين أن تكوني عشائي؟ تنظر السلحفاة في عيني مباشرة، تجيبني دون كراهية: بكل سرور. الحيوان كائن عاقل. الإنسان جرثومة أرسطو.

الحل البرازيلي

1

تركت الشهوة العارمة تشوي السلحفاة على مهل. وفي أحلامي أكلتها بنهم. السلحفاة في قفصها لم تمس، والشهوة لم تطبخ سوى جسدي. صحوت على رنين الهاتف. سبعة اتصالات متعاقبة بلا انقطاع، أيقظتني من سباتي كشاكوش يحطم رأسي. لم أنم إلا ساعتين. على الهاتف وجه ليلى. طليقتي. ولهي. فنائي. تعشقني كالممسوسة بجن، وتخبر الجميع أنها تكرهني كطاعون. أرد بصوت النعاس والتخمة الزائفة، لم أتبين كلماتها إلا بصعوبة: *"مات.. أسعد مات. جادو. فعلها النذل وتركني.. تعال الآن، زين.. زين.. لا يجب أن.. مات.. جادو مات.. خذ زين من هنا.. لا أريده أن يجلس وسط الصراخ أو يرى جده كجثة.. مات.. حبيبي مات"*.

أسـعد جادو. منافسـي اللدود على قلب ابنته. مات. تكتم عويل

الموت في صوتها، تدعي التماسك، وينفلت البكاء كحشرجة تحطم الكلمـــات. وأنا لا يؤذيني إلا العويل الهامـــس والقابض والصوت المحطم حيث يســـكن شـــبح الموت حقا. أهدئهـــا بقلب لا يتعاطف إلا مع نفســـه، لا أرغـــب إلا أن يعود صوتهـــا لطبيعته. الصراخ الملتاع حقيقة، لكنه يُخلط بالصراخ الزائف بســـهولة ادعاء النساء للأورجازم فلا تميز إلا الضجيج، أدعي التعاطف، وأكتم بصعوبة خاطرًا حمل أملا ضعيفا أن اتصالها المتكرر الملتاع جاء ليمنحني غفران المحبة من جديد. أي وغد.

"ثمة بؤساء لن يعثروا على الأخت الرؤوم أبدا، امرأة كانت أو فكرة"، يقول رامبو الحبيب.

أنهيت الاتصال، أشعلت سيجارة، أحتاج إلى أكواب من القهوة. أفكر في أزمة اضطراري لحضور الجنازة ومراسم الدفن، ثم أفكر أن زين قد يكون خلاصي، ستنحصر مهمتي في إحضاره، سأذهب به إلى الحاجة ميمي، أمي التي ليست أمي، قد أبيت عندها الأيام التي سيقضيها زين معي. لا أملك الوقت لأمنحه الرعاية طيلة اليوم. لكني أخاف عليه من الشرفة العالية في الطابق الثالث عشر، شرفة فتحاتها تسقط فيلا، لا طفلا في الخامسة.

أخبرني أي شيء، لكن لا تخبرني أن هناك جنازة جديدة من فضلك. لا أحضر الجنازات ولا الأفراح. طقوس عبور تعرينا

أهمية زائفة، تنقلنا من جماعة وهم إلى جماعة وهم. أنا لا أعترف إلا بالندرة. كل فرح وجنازة هما روث جديد يعيق تنفسي للجمال الأبدي. لم أحضر طقوس دفن ميت منذ شفائي من صرع رؤية الموتى. لم أقم فرحا عندما تزوجت ليلى رغم إصرارها. ارتديت بذلة في جامع في نصف ساعة كي ينتهي كل هذا الهراء، لكن الأفخاخ التي أعدتها العائلة بالتعاون مع العروس لم تبهجني، لا بد من الرقص، أخبروني أني في طريقي إلى مطعم عادي، لأكتشف أنه قاعة كبيرة حجزت لنا وحدنا. رقصت قليلا كي يصمت عواء القبيلة، متى يتوقف العالم عن الدوران، لا أخطط لفتح عكا، لكني استسلمت وأنا أخبر نفسي: *"سينتهي هذا الكابوس حتما"*، لم أفرح إلا عندما أغلق الباب علينا، حتى أنني نسيت المفتاح خارجه، ولم أنتبه إلا وجار أراه للمرة الأولى، يضرب الجرس ليعطيني مفتاح شقتي مع ابتسامة صفراء. لذة اليوم الأول، فستان الفرح ينخلع وحده، والعري فراش الأحبة، لو كانت هناك فائدة واحدة للعذرية، لكانت ندى الجسد وبهاءه. طلاوة مستحيلة لا يحققها الجسد سوى مرة واحدة. نفض الوهم؛ لنغوص مرات ومرات في جمال يمكن إمساكه وتنفسه. لم يمنعنا الولد عن خوض اللذة للنهاية، ولا صراخ البرية، حتى بدأتِ في التشكك أني أستحق الغفران ثم اليقين فالطلاق، *"لأقوم في الليل على فراشي أطلب من تحبه نفسي فما*

أجده، أقوم وأطوف في المدينة في الأسواق وفي الشوارع أطلب من تحبه نفسي، فما أجده".

أرتدي أي شيء، يهزني الجوع والوخم، قضيبي النذل يتهيج، أي حرج، الجوع للجنس لا يتخير الوقت. ليلى، كنت تغضبين عندما أداعبك بقولي الذي لا يهدف أباك: يا بنت الكلب، إلا على السرير، تكونين بنت كلب وبنت قحبة وعشيقة كاملة، وتفقدين هوسك بالسيطرة وترتيب كل شيء، تذوبين وتظنين أن الجنس هو أن يصير الجسدان فردا واحدا مكتملا، أبدا، بل يجعلنا أربعة وستة وألفًا، أجسادا مفككة، ووجوها لا نهائية. لماذا لا يعلمون الجنس في المدارس؟ لماذا لا يمارسون الجنس في المدارس؟ ما الذي يفتقده الكاماسوترا ليصير مقدسا؟ لمَ لا يَنسخ نشيد الإنشاد ما حوله ويرتل ترتيلا. جسدك الأول أنا. بعد الطلاق سيكون الأخير. لدي معارفي. لا تعرفين لمَ تراجع المصور عن النحنحة، ومدير الشركة عن الغواية، والمهندس الملتزم عن طلب الزواج. أنا أعرف ولولا عطف في قلبي؛ لنقلتهم من خانة التهديد إلى القتل على يد قاتلي المفضل، ابن الصعيد البار، سيد أبو كرنبة.

أطلب تاكسيًا، أرى إعلان *"كل حاجة حلوة في روما؟"* أمس لم تكن علامة الاستفهام هناك، اختفت صورة البنت الحلوة، وحلت محلها صورة دانتي المخيفة والقاسية، المتطرف الوسخ، ماذا يفعل

المؤمن، برجوازي الإيمان إلا أن يتحول إلى قديس! وماذا يفعل القديس إقطاعي الفضيلة إلا أن يحول نفسه إلى إله، يمنح الجحيم لمن شاء والفردوس لمن شاء ولا ينجو من كليهما إلاه! أين يقبع جادو الآن في رأيك يا دانتي؟ في أي دائرة أعددت عذابا لابن الحظ، السكير، الكسول، المتبطل، المبذر؟ لو ضاجعت بياتريتشي، لما وضعت أعداءك والخطاة إلا في حانة أنس، مضاجعة عنيفة تطهر من آثام العفة. رامبو انغمس في الجحيم، فنجا؛ لأنه عرف. والمعري مازح الجحيم، فنجا؛ لأنه عرف. أما أنت فمحض مجنون، لا أظنك إلا ارتكبت كل خطيئة لعنتها، وطهرت نفسك بحرق أرواح الجميع.

أحاول ألا أفكر في العويل الذي ينتظرني في المرج، استجمع صورة جادو بصعوبة. هل مات في عقلي أيضا ولم تتبقَّ سوى أشباحه؟ لم أزره إلا ست مرات مضطرا عقب زواجي، عقابي غير المعلن على ممانعته في زواجي من ليلى، كي لا يفقد (رجله، حبيبته). في كل زيارة اضطررت لها، كنت ألوذ بالصمت، ضد الثرثرة التي لا أفهمها، المسلسلات التركية التي عليَّ أن أشاهدها، كلما أجبرني على تجرع "محبته" كنت أنفر أكثر، أهرب من أي محاولة للكلام. أشرب الشاي والقهوة، وآكل الكيك المنزلي، وأنتظر علامة الفرار من الأسر. كلانا يعلم أني سرقت حبيبته، وأن الود مصطنع، والحبل الذي يرغب جادو في مده بالقوة مزيف ككل

ما يخص العائلات. يلمح من وقت لآخر أني (رجل) العائلة بعد وفاته. هل ظننت حقا أني سأبلع الطعم؟

عندما طلقت ليلى، كان سعيدا بعودتها إليه ومعها حفيده، لم يوسوس لها ولو مرة واحدة كما يفعل الآباء بأن تفكر في منحي الغفران من جديد. ثور المزرعة أدى دوره، فلننس رزق، لم يوجد قط، كأن ليلى هي مريم العذراء، وكأن زين نطفة من السماء.

لم تعرفي أبدا يا ليلى ما تمنحه لي فتيات الليل والمغامرات المختلسة، إنهن يجددن عطشي لجسدك، ويقذفن الدم في شيخوخة الزواج، ترينها خيانة، وأراها قرابين جديدة لمحبتنا. لم تعرفي أبدا يا ليلى أن الفظ لم يضربك لأنه يكرهك، بل لأطهر روحك المهووسة بأن تصير ذكرا مسيطرا ومنظما، كي تعودي أنثاي. كل خطاياي يا ليلى؛ لأني أحبك. يولد الحب من جديد مع كل موت له، فيظل خالدا. لم أطلب أبدا خضوعك. كل ما طلبته هو أن تكفي عن رغبتك في إخضاعي؛ كي نرى الحب صافيا كما نعرفه على سرير اللذة، ذَكري لا يخاف كسك العامر بالمودة، وكسك الذي لا يخاف ذكري العامر بالحياة. غفران كامل. تعريف الحب. لقد حررتك من جادو، من رغبته في اكتنازك للنهاية. ورغم ذلك، تعودين إليه من جديد.

لا أنسى أبدا لقاءنا الأول. المهرج قابلني للمرة الأولى عندما تأنقت وطلبت موعدا لخطبتك، مرتديا فانلة داخلية وكلوتا أبيض وشبشب

حمام. جلس أمامي غير مبالٍ بشيء. كان يظن أني سأنفر. تجاهلت عدم احترامه. يخبرني أن ابنته الكبرى -درة بناته الثلاث وولده الهامشي- يجب أن يكون مهرها غاليا، مليون جنيه، لم يكن يرغب في مليون جنيه، لا رقم يعوضه عن فقدانك، كانت حيلته الساخرة والأخيرة ليعجزني. لم أكن أملك مليون مليم وقتها، ولم أدفع شيئا؛ لأنك يا ليلى أنهيت هذا الخرف ما إن رحلت: *"سأتزوجه رغما عن أنفك يا جادو"*. فيثير حديثا عبثيا عن خطورة زواج الأقارب من عائلة جادو، عن أسطورة القدم التائهة التي تصيب أفرادها بالجنون، والتي هرب منها صغيرا في السابعة، حتى وصل إلى العراق، ولم يعد إلا مضطرا. يسألني: *"ابن من في عائلة جادو؟"*، فأجيب: *"السيد جادو"*، فيرد ساخرا كأنه يروي نكتة بذيئة: *"أي سيد جادو فيهم؟ فنصف العائلة اسمها السيد جادو"*، أرتبك، أقول: *"كان نجارا"*، فلا يعرفه، أخبره اسم أمي الحقيقية، فيفزع أكثر، ويصمت. تعرفين السر يا ليلى وحدك، أنا الابن الملعون لنخنوخ الهواري بجين القدم التائهة لعائلة جادو، لا تكشفين السر، وتسخرين وحدك من حديثه. يصرخ ويسب ويعلن رفضه ونقمته، ويهددك بالأديان وبالبكاء: *"لن تتزوجي ابن القديسة، ابن الجميع"*، فلا تلينين. سأهرب معه، تصرين. فأعلم أن القديسة كان الاسم الحركي لأمي العاهرة.

في المرة التالية آتي ومعي مولانا بنفوذه، لا كأبي، بل كولي نعمتي الذي لا يمكن لأحد رد خاطره. فيجلس المهرج بعباءة غالية

الثمن كعمدة وهو لا يملك ثمن سجائره، لا يتوقف مثلي عن التدخين. يصمت، ويجعل صديقه سائق التاكسي يتحدث في حضرة مولانا القوي. لا يتفوه بكلمة، شامخ كنمرة في سيرك، يحتقر الحدث ويرفض الأمر كله، ويظن أن العباءة تجعله أهم من الجميع. ولا يقول إلا كلمة واحدة: *"لن ندفع مليما"*. فيقول مولانا: *"سأتكفل بكل شيء"*. أنزل منتصرا من اتفاق الخطوبة. يسب مولانا لأنه كان يتفاوض مع سائق تاكسي وعباءة خالية، ثم يفلت لحظة حنان عابرة: *"لا نريد سوى البنت في النهاية. بعدما تتم زواجك، انس العائلة"*.

لم أكن أصلا أعرف أن في عائلة جادو بنتا تدعى ليلى، لها جمالك.

لم أرك إلا في العشرين من عمرك. تقولين أنا عراقية كاملة، وليس نصفي من أمي فقط هو العراقي. أكره أسطورة العراق السخيفة. خدعة العمر. الفردوس المفقود للحياة *"النظيفة، الآمنة، اللاهية، حيث المال كصنبور بيرة مجانية، واللحم كالماء والهواء، وكلما اشتهينا اشترينا، والخالة المسلمة التي تنصرت لتتزوج مسيحيا ولم يقتلها أحد، عن الأم التي نصف أهلها سنّة ونصفهم شيعة، عن الغناء في الليل، البيت الفسيح لعائلة واحدة، ضواحي المحبة، العائلات السعيدة التي لا تقتل نفسها كي تعيش وتجتمع في الليل للسمر، عن حفلات المطربين المجانية، كرنفالات الفرح، ومحبة*

الجنرال العراقي للمصريين، وتبريرات لا نهائية لضرورة أن يحكم كل هذا التنافر ديكتاتور كصدام". لم تر عائلتك من العراق نصفها الدموي، لم تر سوى (صوت صفير البلبل) قصيدة اللامعنى، ها هو العراق يطفح بنصفه السفلي والمكبوت، مكللا بالعار والفضيحة والقتل المجاني والتهجير على الهوية. مات ديكتاتور، فولد ملايين. تقولين: *"إن العراق فردوس العالم لا جحيمه"*. أصرخ فيك: *"أنت مصرية يا ليلى"*. ضائعة ووحيدة مثلنا جميعا في الخراء. تكرهينها؛ لأنها جعلت الملكة المتوجة، عاملة كوافير في محل. تعيشون على الاحتيال الأخير للديكتاتور قبل طريقه إلى المشنقة، الحوالات الصفراء التي أعطاها لكم مقابل عملكم طيلة سنوات بعد حرب الخليج. أخبرك ساخرا، قد أساعدكم لصرف الحوالات الصفراء، وسأضيف فوق ثمنها لنسدد فاتورة عشاء كبير.

تقولين: *"نصحته كثيرا كي يدخر لغده، كان يملك في مهنته كحلاق للسيدات موهبة تفوق أبناء جيله كمحمد الصغير، لكن ابن الحظ يردني قائلا: أن أرى الشبع في عينيكم لليلة، الملبس الجديد على جسدك وجسد إخوتك، فتلك هي الدنيا. أما الغد؛ فابن الغد"*.

تذكرين: *"قد يقبل أن يُذل لإنقاذ كرامتي"*. كنا قد انتهينا لإدارة كوافير حريمي يملكه لواء سابق، كانت أياما حلوة، وعاد المال للسريان. تتشاجرين مع اللواء. مشادة عابرة، ضخمها شعوره السرمدي

بالنفوذ والثراء. لمّح اللواء بالطرد من إدارة الكوافير. ذهب جادو إليه. اشترط اللواء شيئا واحدا للغفران، أن تعتذر له البنت قليلة الربابة، هدد بما هو أكبر كالسجن، تلفيق القضايا. قال له جادو حاسما: *"افعل بي ما شئت، ذلني، اصفعني. لكن بنتي لا. لا أحد يكسر ليلى"*. يقول. طردتما من المحل. وتوقف المال عن السريان؛ كي يحفظ كرامتك. أساطير.

خذله المرض، وجلس ينظر إلى أمك وإليكن وأنتن تعملن من أجل رأس العائلة، والأم ابنة البعث الاشتراكي ورخاء العراق تعمل برواتب بخسة كممرضة من مستشفى إلى مستشفى؛ كي تسدد الإيجار ومصاريف الدروس الخصوصية للبنت الصغيرة والولد الهش الخائب. *"يفقد جادو هيبته"* أقول *"لكن لا يفقد حنانه"*، تقولين. كل ما تبقى له عربة قديمة متهالكة، يغيب أحيانا، يركبها كتاكسي، ويعود وقد صرف كل ما جناه على زجاجة خمر وأكياس فاكهة ولحم وملابس جديدة. *"ثم يسري الرضا في عينيه، تماما كالأيام الخوالي"*، تقولين.

2

عندما وصلت إلى البيت، كان النواح طازجا والعويل ساخنا، والميت في غرفة يغسل ويكفن. لا يمكنك أن تعرف أثر الموت إلا على الوجه المحطم للنساء. كانت ليلى على الباب، تمنع النسوة من الصراخ الحقيقي والزائف، تنظم الحفل، ولا تبكي. أعرف هذا القلب، ما إن ينتهي كل شيء، حتى تغرق وحدها في بكاء طويل وحار. يخبر الرجال أخت جادو أن الصراخ يؤذي الميت، فتبكي أكثر، أي محبة تكنيها له يا ست! أخت جادو، طردتهم عندما جاءوا من العراق هربا من الموت. الصمت محفور في الزوجة والبنات، أثر الموت الحقيقي.

الولد عليّ، الشقيق الأصغر لليلى، الراسب في الجامعة، الفاشل كما يرون، ملامحه تحمل مسئولية الوصول بالجثمان إلى هدف سريع: الانتهاء من طقوس الموت. لا أعرف إن كان سيعود إلى هشاشته حين ينتهي الهدف. حطمه جادو؛ كي لا يتفرعن الذكر على البنات. وُلد شبه ميت، ونجا بمعجزة وسط احتمالات ضعيفة، تسلق الحياة كزائدة على جسد توأمه، سارة، الأخت الصغرى. تلك

خطيئة يا جادو، لم يذكرها دانتي في كتابه، القديسون لا يرون الخطايا الحقيقية. تغضب ليلى إذا ذكرت ذلك.

أتجه إلى ليلى، وأفاجئها أني أحتضنها بحجة العزاء، فتستسلم لحضني. أسأل عن زين، حجتي للهروب، فتخبرني أنه عند جارة في الطابق الأعلى، يلعب مع أطفالها، حجة حضوري وهروبي كانت زائفة، ليلى تريدني في الجوار لا أكثر ولا أقل، هل تلين بعد موت منافسي؟ هل يعود الغفران؟ أشتهي النوم، لكني سأبقى. لا أحد يراني إلا ليلى. أحاول تعزية جيهان الأخت الوسطى، لكنها شاردة لا تميز من أمامها. أحبها لخفة دمها، لكن لا شيء الآن سوى ثقل الحزن. لمَ لا أشعر أن حزن فقد الوالد بديهي؟ علامة شفائي أني لم أعد أرى الموت، أم علامة موتي؟ لكني أشعر بتعاطف مع جيهان، لا هي في قوة ليلى، ولا طموح سارة الأنثى الخفيفة والطازجة التي تعرف الطريق إلى النجاح بسهولة. الثلاث يتمتعن بكرامة ونبل الشقاء في العينين. والولد تائه في صراط مستقيم، لا يدخن، لا يسهر، لا يسكر، لا يشرب المخدرات، ولكنه كذلك لا ينبغ ولا يطمح ولا يشتهي. لذته الوحيدة في لعب الكرة وجلسة المقهى مع أصدقاء جيدين بمعيار الأسر، من كليات وعائلات جيدة.

أميز وجها أو وجهين من عائلة جادو القاطنة بزاوية النجار.

تظهر فردوس، الأم العراقية، نصف ليلى الذي تدعيه. تتحدث

ليلى اللهجة العراقية فلا أعرفها، ينقلب صوتها فجأة ذكوريا وخشنا، ولا أميز حرفا مما تقول، فأكره العراق الذي يحولها فجأة إلى غريبة عني. أحب الأم، فهي شديدة اللطف والسكون. أقبل جبينها برقة، ولا أجد ما أقوله سوى: *"معلش"*. لو كنت سأكمل الجملة لكانت: *"معلش.. لن أفعلها ثانية"*. ما إن أُقبِّلها، حتى تنخرط في البكاء، كأني فجرت ينبوعا بشفتي، تقول: *"كنا في سلام.. طلب ينسونا، ثم جلس على كرسيه الكبير يتفرج على الحلقة الأخيرة من المسلسل التركي، ثم حدث ما حدث، قبل أن تنتهي الحلقة.. وأنا أصرخ يا أسعد.. يا أسعد فلا يرد"*. تطلب مني أن أدخل إلى غرفته حيث يُغسل. *"يقولون إني لا أستطيع الدخول عليه؛ لأني صرت غريبة عنه، هل يرضيك هذا يا رزق؟ أنا غريبة عن جادو؟"* لا أجيب. وحدها فردوس لا تعترف أني طلقت ابنتها، وتلوم وتضغط كي نعود معا. أحاول المراوغة؛ كي لا أدخل الغرفة.

فهمت من ليلى أنه مات بجلطة رئوية. الشيء الوحيد المشترك بيني وبينه هو أننا نفضل التدخين على التنفس. النيكوتين: شهيق الموت زفير الحياة.

أدخل. جسده مسجى في وداعة. هذا الجسد لا يلوم أحدا. لا أشارك في الطقوس رغم دفعي من أحد أقاربه. سعيد سائق التاكسي عراب زواجي وصديقه الوحيد يتفهم. يحبني رغم كل شيء. الخاتم

الكبير الذي يرتديه جادو، إرثه الوحيد من عائلته، يقفز ليصبح في يد سعيد سائق التاكسي. ينظر الرجال إليه، ثم يقولون تلك هديته لك، اقبلها. أشعر بغيرة عبيطة أن الخاتم لم يقفز إلى يدي. حتى في موتك يا جادو لا تختارني! متى ينتهي كل هذا؟ أشـــتهي النوم، وينهشني الجوع. أتسلل لأدخن سيجارة، ولا ألقي بالا لهمهمات العائلة.

أخبر ليلى أني سأنتظر على المقهى حتى تأتي عربة (تكريم الإنسان)؛ لدفنه في مسقط رأسه بزاوية النجار. تهمس: *"لا تهرب"*. أقول: *"لن أهرب يا ليلى. أحبك"*. تشيح بوجهها عني. لم تسمع مني كلمات حلوة أو تلمس مني الحنان أبدا خارج الفراش، كنت دائما ما أشعر أن قول كلمات الحب الدائم يبدد سحرها، فأكتنزها للحظة خالصة.

أتسلل من البيت إلى المقهى *"إن كنت أشتهي فلن أشتهي/ إلا التراب والأحجار/ دنْ! دنْ! دنْ! دنْ! إنني أتغذى من الهواء/ والصخر والأرض والحديد"*. ما إن أصل إلى الشارع، حتى أسمع صوتا يناديني. ليس رامبو، بل سمير جادو، ابن عم أسعد جادو. يرافقني عنوة إلى المقهى، ويتطفل على حياتي بكلمات بلهاء: *"أنت رجل العائلة الآن، رد ليلى إلى عصمتك، واطرد الشيطان"*. لا أخبره أنها من اختارت الطلاق، أود لو ألكمه على أنفه قائلا: وإنت مال دين أمك؟ لكني أحاول التملص بلطف، لا يفلتني بل يرشدني إلى قهوة قريبة. ويجلس معي، بسلطوية الحنان ذاتها عند جادو يطلب

لي عصير مانجو وحجر تفاحة، لا يهتم إن كنت أرغب في القهوة وتدخين السجائر كي لا أسقط نائما، لا يهتم إن كنت في حاجة إلى الوحدة لا الرفقة. وجهة النظر المسبقة عن الحنان، مرض عائلة القدم التائهة.

يثرثر بأشياء عن جادو. أساطير الموت المعتادة: *"كان يعلم بدنو أجله، لقد عاد إلى زاوية النجار منذ أسبوع، طلب فتح مقابر العائلة، وأخبرنا أنه سيأتي ليعيش معنا دون عائلته، قلنا له تنور بيتك ومطرحك، طلب أن نجهز له غرفة في بيت العائلة، وأن نزرعها بزهور يحبها، كان يعلم كل شيء"*.

الذباب وتكرار طلبات التسول من أطفال بحجة بيع المناديل تزعج سمير جادو. يتأفف قائلا: *"أطفال الشوارع، ملوا البلد. في زاوية النجار وفي القاهرة وفي كل حتة، بيناموا مع بعض، وتسعين في المية منهم عندهم ايدز، يسرقونا ويثبتونا في الشوارع، وبيعرضوا نفسهم للنيك، وقريب هينطوا على بيوتنا ويغتصبوا بناتنا"*. يخرج قصاصة من جريدة، يقول: *"أحتفظ بها دائما"*. القصاصة كانت لمقال، يقول ابن عم جادو عن كاتبه *"فيلسوف عظيم من سوهاج"*، عنوان المقال: الحل البرازيلي، يقرأ سمير جزءًا من المقال:

"على مدى عقود متوالية كان أطفال الشوارع مصدرا للإزعاج لسكان مدينة برازيليا ولغيرها من المدن البرازيلية الكبرى، وفي

التسعينيات من القرن الماضي تحول الإزعاج إلى رعب، فقد تزايد عدد أطفال الشوارع تزايدا كبيرا، وتزايدت بالتالي معدلات الجرائم التي يرتكبونها، وفي مقدمتها جرائم السرقة والدعارة والاغتصاب التي يترتب عليها في معظم الحالات إصابة الضحية بالإيدز الذي أصبح متفشيا بينهم بنسبة تتجاوز الـ 90 %، وباختصار فإن وضع برازيليا في تسعينيات القرن الماضي كان شبيها بوضع القاهرة الآن، حيث كان الوضع الاقتصادي البرازيلي في مجمله شبيها بالوضع المصري الراهن، فالديون الخارجية للبرازيل وصلت إلى أرقام قياسية، ومعدلات البطالة تتصاعد عاما بعد عام، والفساد متغلغل في كل أنحاء الجهاز الحكومي، والأصوات المنادية بتأهيل أطفال الشوارع وإعادة إدماجهم في المجتمع يعلم أصحابها جيدا أن مثل هذه العملية عالية التكلفة إذا ما قورنت بتكلفة إتاحة فرص العمل للعاطلين من غير أبناء الشوارع، فضلا عن أنها غير مضمونة النتائج! ومن ثم فإن الذي ينبغي أن تركز عليه الدولة في ظل الظروف الاقتصادية الصعبة هو إتاحة فرص العمل للعاطلين، حتى لا ينضم أطفالهم إلى جيش أطفال الشوارع!! لهذا فقد لجأت أجهزة الأمن البرازيلية في ذلك الوقت إلى حل بالغ القسوة والفظاعة يتمثل في شن حملات موسعة للاصطياد والتطهير، تم من خلالها إعدام الآلاف منهم بنفس الطريقة التي يجري بها إعدام الكلاب الضالة؛ توقيا للأخطار والأضرار المتوقعة منها، وفرت البرازيل الملايين

من فرص العمل للبرازيليين، واستطاعت من ثم أن تتحول من اقتصاد موشك على الإفلاس إلى واحد من أهم قوى نظم الاقتصاد العالمي، وهذا هو الدرس الذي ينبغي أن يعيه كل من يحاول أن يتعلم شيئا ما من الحل البرازيلي".

يعيد القصاصة إلى جيبه، ويسألني صارخا: *"لماذا دفنت الحكومة هذا المقال، وتجاهلت الحل؟ أعرف أنك تعرف ناسًا مهمين يا رزق بك بإمكانهم مساعدتنا للنجاة من العفن، لدي خطة كاملة وجاهزة، خطة شعبية، لن تورط القيادة السياسية في شيء، كل المطلوب من الشرطة أن تغض الطرف، لكن الخطة تحتاج إلى التمويل، أيمكنك أن تتحدث مع مولانا في هذا الأمر؟"*.

أشجعه على الحديث أكثر، يخبرني أنه كون رفقة قليلة جاهزة لحمل السلاح، ومطاردة العفن، وفي انتظار الإشارة. أستفزه قائلا دون قناعة: *"طب ما نعالجهم ونأهلهم"*. يقول: *"الرعاية الصحية للأصحاء أقل تكلفة من رعاية المرضى، إنهم عبء"*.

أضحك ساخرا: *"أتعلم أن هذا تحديدا ما يدور المستقبل حوله، لكنهم لن يعتبروك من الأصحاء، حتى لو احتفظت بصحتك"*. يقول مندهشا: *"لا أفهم"*.

الغبي، كيف يمكن إعدام بضاعة من ثلاثة ملايين سلعة، صالحة للبيع والشراء. لن يسمح مولانا بتبديد ثروته إرضاء لأي حلول

شعبية. تمر ساعتان. سليت فيهم نفسي بالتقصي عن خطته وعصابته الجاهزة لقتل أطفال الشوارع، مدعيا أني أشجع ما يقول. قدم مجنونة يا ابن جادو. أيهما أسبق: العفن أم صانعه؟ تلك هي المسألة.

تأتي عربة نقل الموتى. فنغادر المقهى، يصر على دفع الحساب، فأتركه يفعل عقابا على تطفله. نذهب إلى حيث يتجدد الصراخ ويفوح العويل. فردوس تركب مع جثة جادو وبناته وولده. يدفعني سمير جادو لأركب معهم بوصفي رجل العائلة. أفكر في الفرار مجددا. لكن ينقذني تزاحم العائلة على الركوب بجوار جثة جادو، يحاولون إسكات أخته، التي تصرخ أكثر كلما أخبروها أن ذلك يعذبه، يمنعونها من الركوب، فتصرخ: *"أخته ولا مراته.. أخته ولا مراته؟"* تخرج ليلى من العربة، تسكتها بكلمة حاسمة: *"مراته طبعا"*. أسخر في سري: الآن تقرين بحق فردوس في جادو، بلا غيرة أو منافسة على محبة الرجل؟

تنطلق العربة. أجدني في سيارة سمير جادو مع ثلاثة أقارب آخرين. أركب في مؤخرة السيارة. وألوذ بالصمت، وأقطع أي سؤال بإجابات كالسكين. أفكر في عملي المتوقف. كل دقيقة في هذا الهراء، هي دقيقة مخصومة من الفردوس، سأقضيها مضاعفة في أسر مولانا. كيف تورطت في الذهاب إلى زاوية النجار؟

3

ما إن دلفنا إلى زاوية النجار، حتى أشار سمير جادو إلى لافتة محله لبيع الأدوات الكهربائية. أبتسم. لقد سمى محله: الحل البرازيلي. هذا مؤمن حقيقي. النخيل علامة زاوية النجار. نتوقف أمام جامع. النساء يُنفين إلى أحد بيوت العائلة. تصر أخت جادو على البقاء. *"لا نساء يحضرن الدفن"*، يقول سمير جادو، لكنها تصر: *"لن أصرخ مجددا.. أقسم"*، لكن إصرارها وقسمها لا يفلحان، ألمحها تتوقف بعيدا ولا تذهب مع النساء، أعلم أنها تخطط للتسلل. أصلي الظهر مضطرا، ثم صلاة الجنازة، أفكر أثناء تكبيراتها في النوم واستعادة الوقت الضائع. نخرج من الجامع، فيخرج معنا مجذوب بذقن طويلة وجلباب ممزق، يقذفنا بالحصى صارخا: *"يا ملحدين يا بتوع المدارس.. يا قاع المجتمع يا ولاد الكلب"*. يبادله الصبية بالحصى، بينما يبتسم المارة، يهدأ المجذوب فتسير الجنازة، أحاول أن أسير بجوار الابن الأصغر عليَّ، لكنه يفلت مني، فيسير بجوار سمير جادو، ثم ينفلت بعيدا إلى أصدقائه. الجنازة تسبقني، أجد نفسي وحيدا أحاول اللحاق لاهثا بها.

ظهرت المقابر بسرعة، لم تكن بعيدة عن الجامع. ما إن توقفنا حتى ظهرت شقيقة جادو، ظلت صامتة حتى انفتح القبر، فصرخت. لا أرى الجثة جيدا. ينبهني رجل سلفي أن ما أقف فوقه هو أحد القبور، فأنتبه لقدميّ؛ كي لا أفسد الطقس. أفكر في التراجع للوراء متسللا خارج المقابر للتدخين. يصرخ المجذوب: *"لماذا هو يا جادو؟ لماذا هو؟"* لا أحد يفهم شيئا، يحاولون إسكاته، لكنه يمسكني من معصمي بقوة ويتجه نحو فتحة القبر، ويصرخ مجددا: *"خذه إن كنت تريده"*. أشعر بالحرج والخوف، يمسك به ثلاثة من الحاضرين، ويطردونه خارج سور المقابر وهو يردد: *"يا ملحدين.. هتعذبوه في قبره يا قاع المجتمع يا ولاد دين الكلب"*.

يهدئني سمير جادو. أتجاهله أكثر وأشعل سيجارة، ولا أهتم بتأفف أو نصيحة السلفي. تُتلى الأدعية، وينتهي الدفن سريعا، نبدأ في العودة. هل أرحل الآن؟ ألمح شقيقة جادو، تتقدم وحدها نحو القبر. يؤكد عليها سمير أن لا تؤذي الميت بالصراخ، تؤكد له أنها لن تفعل، لكني أعرف من العينين أنها كاذبة. تلك فرصتها الأخيرة لتعذيبه. تلك الكراهية المصبوغة بزيف المحبة، هي روح كل العائلات، لن أتعجب لو أخبرته أن مقبرتها قد تكون أفخم من مقبرته وأوسع. أفهم الآن لماذا هرب أسعد جادو صغيرا من كل هذا الجنون، ولا أفهم لماذا اختار أن يدفن في النهاية فيما سعى طيلة حياته للهروب منه.

نعود إلى بيت سمير جادو، حيث تتجمع نساء العائلة. في الطريق أرى أعمدة خرسانية مرتفعة، عشوائية وطويلة ومتباعدة، لا تهدف إلى بناء شيء. أسأل سمير جادو، لأنه لم يعد لديَّ شيء سوى قتل الوقت. يخبرني بفخر أنه أحد الأفكار البرّاقة لجماعته الصغيرة للحل البرازيلي. يسحبني من يدي ويتراجع خطوتين؛ ليعرفني على عجوز من العائلة. نصير جادو. يشجعه سمير. يشير العجوز إلى أعلى، ثم يقول: *"السماء!! إنها تتصدع.. ألا ترى الشقوق؟ إنها واضحة للأعمى.. لقد تعبوا من حملها، وستسقط.. الأعمدة الخرسانية ستمنعها.. لكننا توقفنا عن البناء؛ لأننا نحتاج إلى تمويل كي نصل إلى السماء، السماء مخادعة تبدو دوما أقرب مما هي عليه"*. يصمت العجوز، فيتابع سمير بفخر: *"الفكرة لم تتوقف عند هذا الحد.. لكن من أين تأتي الأفكار المسمومة في رأيك؟ من الغرب.. كيف تتسلل؟ من الهواء، تطير، وتحلق في السماء، وتهبط علينا بمجاذيبها ومخربيها"*. يقدم لي ولده طالب الثانوي، وقد تضاعفت نبرة الفخر. الولد متحمس، شديد الثقة يشرح الخرافة: *"سنستخدم الأعمدة الخرسانية المتاحة، لن نحتاج إلى المزيد، ثم نستخدم كهرباء أعمدة الإنارة، وعن طريق جهاز قمت باختراعه سنخلق مجالا كهرومغناطيسيا يمنع السماء من السقوط، ويمنع الأفكار المسمومة من الدخول، وبتكلفة قليلة"*. أضحك في سري.

يشرح سمير جادو: *" هذا العزل أيضا قد يمتد ليعزلنا عن القاهرة*

الأم، يمكن للحكومة أن تستفيد من هذا لتنفيذ الحل النهائي، نبدأ بالتخلص من أطفال الشوارع، ثم أعداء الدولة، منفذي الأجندات الخارجية. لا إنترنت، لا هواتف، لا شيء. يمكن أن نستعين باتصالات داخلية، ثم نبدأ نهضة زاوية النجار، إذا نجحتْ يمكن أن تعمم التجربة على محافظات مصر. أعطونا عدة سنوات فقط، ستصبح زاوية النجار ولا روما في زمانها. كلم مولانا يا رزق.. آن الأوان لترد الديَّن لعائلتك".

أي دَيْن؟ أي خراء؟

بيت سمير من طابقين، محاصر ببيوت عشوائية تسد عنه الشمس، تجلس النساء في الطابق الأعلى. أتصل بـ ليلى، إشارة الهاتف ضعيفة. متى يصير الرحيل من هنا ممكنا دون أن يثير ذلك غضبها؟ يدعونا سمير للصعود إلى الطابق الأول. يأتي المجذوب صارخا في سمير: *"فين الفتة؟"*. يرد سمير: *"مسافة ما نشرب الشاي"*. يوزع الشاي، طعمه سيئ، لكني أشربه باستمتاع حقيقي. مسافة الشاي، تقتل الوقت. مسافة الطعام ستقتل الوقت. توزع أطباق فتة باللحم. أدير أفكارهم التائهة في رأسي. هذا الجنون قيل من قبل في الصحف وفي التلفاز. هم أكثر جرأة على الأقل، رامبو يعرف *"كان الرجال والنساء يؤمنون بالأنبياء. الآن يؤمنون برجل الدولة"*. آكل بشهية ورغم ذلك يخبرونني أنني لم آكل شيئا بعد: *"كله.. أأنت بخيل؟"*.

يصرخ المجذوب: *"البخلاء والمبذرون في النار.. سيحشرون معًا"*. هذا ما يراه دانتي المجنون أيضا، يضعهم متقابلين ويلقيان على بعضهما البعض أثقالا ضخمة. أفكر في أن اكتنازي للأشياء ليس بخلا، بل مجرد انتظار للحظة المناسبة للفرار. دانتي عرص. آكل بجد لحم البقرة؛ كي لا نأكل لحم الميت كالأسلاف، لذا نحمل أسنانا لينة وروحا وحشية. الميت يمسك بتلابيب الحي ويود لو يدفعه معه إلى فتحة القبر، ويرسل الرسالة مع مجذوب كي ننخدع في براءة الرسول.

ننتهي من الطعام. القرآن على التلفاز. ثقل الطعام يجعل اشتهاء النوم سعيرا مضاعفا. سمير جادو يطفئه، ويطلب من أحد الحضور أن يقرأ شيئا بصوته الجميل، ثم ينظر إليَّ: *"لتعلم فقط أن زاوية النجار هي بلد المواهب المدفونة"*. يتقدم شيخ كفيف. يبدأ في القراءة من سورة آل عمران وسط تشجيع الحاضرين، صوته شديد السوء، كيف يعجبون بهذا، كاد النوم أن يغلبني حتى وصل إلى تلك الآية:

"إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ" ثم يُقطع الآية على عادة المقرئين المصريين: ربنا.. ما خلقت هذا باطلا سبحانك.. ربنا.. ما خلقت هذا باطلا

سبحانك.. ثم يتوقف برهة، يفكر ليقول: *"ما خلقت هذا باطلا؟..* *سبحانك*.. يكررها عدة مرات بصيغة الاستفهام، ثم ينظر إلى أعلى، قائلا بعتاب: *ما خلقت هذا باطلا؟*.. ثم يقف ويناجي شيئا غير مفهوم في سقف لا يراه أصلا، ثم يبدأ في الصراخ: *هل فعلت يا حبيبي؟ أجبني وقني عذاب النار.. قني عذاب النار.. لن أغضب منك.. لا أحد يغضب من حبيبه.. أجبني!*

يسري بين الحاضرين شيء ما بين الضحك والاستنكار. يسحب جادو الشيخ الكفيف إلى أسفل، يواصل الشيخ صراخه: *"أنت لا تفهم يا سمير، ولن تفهم أبدا"*. ثم ينظر إلى أعلى من جديد: *"يا حبيبي يا ظاهر يا باطن"*. ثم يختفي الشيخ بصحبة سمير.

يقول المجذوب: *"الباطن للخاصة.. والخاصة ليس بينهم شيخ كفيف.. الكفيف في النار يا ملحدين يا بتوع المدارس يا ولاد الكلب"*.

ارتحت من سوء صوته على أي حال. أغفو في مكاني. ينغزني سمير جادو. *"أترغب في النوم؟"* يسألني. أرغب في الرحيل. لكن لا أجيب. يقول جادو: *"هناك غرفة يمكن لك أن تستريح فيها، لن يفوتك استقبال العزاء بعد صلاة العشاء"*. حل سحري. ليلى مشغولة في الأعلى مع النساء، ساعة أو ساعتين من النوم سيمكنانني من مواصلة الطقوس بجسد قادر على التحمل. أحتاج إلى النوم فعلا.

أوافق، فيسحبني من يدي إلى غرفة، يخبرني أنها غرفة ابنه الفنان: أحمد جادو. يقول: *"إنه على سفر، ولولا هذا لما فوّت الجنازة"*. يحاول أن يشرح لي بينما لا أهتم حقا. يقول لي: *"إنه يعمل على مشروع جدارية ضخمة على مدخل القرية"*. يريني سمير مخططا مرسوما بخط اليد، عشوائيا، الخط سيئ، يشرح: *"لم أفهم حقا أيًا من أعمال أحمد السابقة.. لكنه يقول إنه يرسم تاريخا للعائلة، سيسمي الجدارية.. عائلة جادو، سيكون عملا ملحميا لتخليدها"*.

يتركني سمير لأغفو. أنظر إلى المخطط الذي كتب فوقه: *عائلة جادو.. نَصُّ النُّصوصِ* لا أفهم منه شيئا: تنانين.. أطفال.. قتلة.. أمهات.. عمّال.. رجال دين.. آلات غرائبية.. وجوه ذات لحى كثيفة تتخلل الجدارية، لا أميزها.. ميديوكر آخر لا يجيد الرسم ويطمح لإنشاء جدارية.. الميديوكر: متوسط الموهبة.. عظيم الطموح. صارت جملة في متناول الميديوكرز أصلا، تهمة الجميع في مواجهة الجميع، فتتوه الحقيقة، وتُقتل الندرة.

أترك المخطط باحتقار، وألقي بنفسي على السرير. أنظر إليه مرة أخرى قبل أن أغمض عينيّ. أبصق تجاهه، ثم أقول ساخرا مقلدا المجذوب: *"كل الملاحم في النار.. يا ميديوكرز يا بتوع المدارس يا قاع المجتمع يا ولاد الكلب"*.

4

نمت كقتيل. لا أعرف عدد الساعات التي قضيتها نائما. لا صوت في الخارج، هل غادر الجميع؟ الغرفة مظلمة. أتحسس الطريق إلى علبة سجائري لكني لا أجد الولاعة، هل سقطت مني؟ أرتدي نظارتي. لا بد أن ليلى غاضبة لأن النوم غلبني. تشتاط غضبا من أشياء أقل إذا لم تسر خطتها المتخيلة عن الحياة كما رسمتها بالضبط. أفكر أن أتصل بها، بطارية هاتفي فارغة.

أتحسس الطريق في الظلام، أتلمس النور. الكهرباء مقطوعة. مهتديًا بضوء القمر الآتي من الشباك أبحث عن ولاعة أو كبريت، لا أجد. علبة السجائر لا يوجد بها سوى سيجارتين. كيف نسيت أن آتي بمخزوني الذي لا ينضب؟ أفتح باب الغرفة. البيت مظلم وهادئ كقبر. أهل البيت نيام على ما أظن. أشعر بهذا الثقب الذي يحتل روحي إثر غياب التدخين. صداع النوم الطويل يعصف برأسي، أشعر بالدوار أيضا. أجد الطريق إلى باب البيت، أخرج بحثا عن سجائر. زاوية النجار مظلمة، أتحسس الطريق. أرى ضوءًا بعيدا لكشك سجائر. أذهب في اتجاهه.

أسمع صوت طلقات رصاص تشعل ضوءًا خاطفا كألعاب نارية. أرتجف قليلا. هل ليلى بخير؟

أهرول. يد تنبت من الأرض وتمسك بقدمي، فأسقط، تتحطم النظارة. أنظر للأعين الجاحظة، هذا وجه مضرج بالدماء. وجه يحتضر. أفزع. لا أميز الوجه. أنزع يده. وأواصل الجري. صوت طلقات الرصاص يتزايد. ثم أرى ضوءًا هائلا لحريق. ثم أعرف أنها حرائق. النار تلتهم النخيل، ريح عاصفة. أسمع صيحات حماس. أعرف الحماس كما أعرف الندوب في وجهي، كريهة كالموت، زائفة كالحياة.

عيناي بلا نظارة. لا شيء. غيابها يجعل ما أراه أضواء باهتة وظلالًا. لا أميز إلا أمتارا قليلة أمامي، الأثر الثقيل لصداع النوم الطويل وغياب القهوة والسجائر يضاعف ظلمة النظر وعذاب التشكك فيما أراه. أقرر أن أصل لكشك السجائر، حدسي وذاكرتي وحدي يميزان خطوطه المهتزة. أواصل المشي، ثم أكتشف أني أسير في دوائر. من حين لآخر أتعثر في جثة.

أجد بيتا مضاء، أسمع على عكس كل ما حولي أصوات ضحك صاف لبنات يمارسنّ اللهو رغم الرصاص والحرائق والعاصفة. كشك السجائر بجواره. تتوقف الدوائر، وأسير أخيرا في خط مستقيم. الضحك لا يتأثر بأصوات الرصاص، ضحكات ما بين الطفولة

والغنج. أرى ظلال الأجساد. أقترب. نوافذ البيت مفتوحة. يختفي البيت فجأة. كان سرابا، وكذلك الكشك. أتلمس موضع قدميّ. ثم أعرف. أنا في المقابر، أسمع صوت أقدام تهرول وتصيح، أختبئ خلف نخلة تحترق. أرى رجالا يلبسون معاطف وأغطية رأس زرقاء لا تكشف إلا ثقبين للعينين وثقبين للتنفس، يهرولون، بعضهم يحمل مشاعل، وآخرون يحملون أسلحة وبعضهم يحمل رؤوسا آدمية مقطوعة، يصرخون ولا أميز شيئًا مما يقولون. إنهم غاضبون، ومنتصرون. أنتظر اختفاءهم. فأخرج من وراء النخلة.

أصوات البنات عادت، شديدة الغنج ومعها صوت رجل، ميزته. صوت أسعد جادو. ثم أبصرت فجأة. البنات هن أخواتي السبع، وبينهن جادو كملك، أخواتي عاهرات في حضرته، عاهرات محبات. لا يرين غيره، يتهن به عشقا. يلعقنه كالآيس كريم، قبلاتهن تغمر جسده كحلوى. يرتدي تاجا ملونا من الورق المقوى، طرطور أطفال يناسبك حقا يا جادو، يرتدي الفانلة البيضاء نفسها والكلسون نفسه الذي قابلني به يوم تقدمت لخطبة ابنته. أشعر بالغضب. يحتضن أخواتي البنات، اثنتان منهن تسلقتا ظهره بألسنة تفح بالشهوة، اثنتان تتشاجران بلطف حول المساحة المحتلة من قضيبه، الشره يتدلى من أعينهن، والكسل محيط بكل شيء، واللذة تسيل كعسل. ينظر لي، هل تحقق انتقامك ولذتك وسط هذا الجحيم! ضاجعت ابنتك، فتضاجع أخواتي. ينبهن جادو إلى حضوري، ثم ينظرن لي في شهوة ويشرن إلي أن آتي إليهن. أين؟

إلى الموت، أسمع صوت جادو سكرانا يغني: *"والله ما طلعت شمس ولا غربت إلا وحبك مقرون بأنفاسي/ ولا خلوت إلى قوم أحدثهم إلا وأنت حديثي بين جلاسي.. يعجبني كلك يا ولا كلك عاجبني.. ما فيش معلم يا ولا هيحاسبني.. هاااههاي.."*. ثم تتغير هيئته إلى ساحر في سيرك، يخرج أرنبا من قبعته لإبهار البنات، ثم يمسك بأجزاء من نظارة محطمة، يضعها في القبعة وبلمسة من عصاه يخرجها سليمة.. يعطيها للبنات.. يلقين بها إليَّ.. أرتديها.. تلك نظارتي التي تحطمت قبل أن أصل. أفر بلا هدى وبلا ضوء سوى الحرائق. ممَّ أفر؟ ألنا حي أصلا؟

تعرقلني قدم تنبت من الأرض. أجد فوهة بندقية مصوبة إلى رأسي. ثم أسمع همسا: *"ما حدش يضرب نار. هذا رزق. أنا سمير، سمير جادو يا رزق. لقد احتلوا زاوية النجار"*. أسأله: *"هل معك سيجارة؟"* يجرني من يدي إلى نفق قريب تحت الأرض. أهبط السلم لأجد غرفة كبيرة. يقول جادو: *"كنا نعد هذا لتنفيذ خطة الحل البرازيلي. الهجوم سبقنا"*. لا أسأله عن شيء، لا عن المخبأ ولا عن المهاجمين الذين يرتدون أغطية رأس ومعاطف زرقاء، ولا عن ليلى، لا أكرر إلا قولي: *"هل معك سيجارة؟"*. يعطيني واحدة، أدخنها بلذة. عقلي يعود إليه رشده قليلا مع تسرب النيكوتين. أسأل: *"هل ليلى بخير؟"*، يخبرني جادو: *"حظهم حلو، لقد عادوا إلى المرج قبل ساعة من بدء الهجوم"*. أسأله عن المهاجمين. يخبرني أنه لا يعرف

هويتهم. لكنه رآهم يحملون قميصا ملوثا بالدم، ويهمهمون بأشياء عن الثأر. حاولنا المقاومة. ها قد ظهرت فائدة جماعتي الصغيرة، جماعة الحل البرازيلي. أسقطنا اثنين منهم، لكن قوتهم الكاسحة أجبرتنا على الاستماع لصوت العقل. رأيتهم يقيمون المتاريس عند مداخل زاوية النجار. هل يفكرون في احتلالنا؟ لقد فصلوا عنا الإنترنت والهواتف والكهرباء، لا يمكننا حتى إرسال استغاثة. كان الهجوم مباغتا ولم نفهم مغزاه، ثم أضاف فيما يشبه الاعتذار: *"لم نجد حتى الوقت لإيقاظك كي تهرب. أقول له لا يمكنني البقاء، أشجعه أني أستطيع إن خرجت أن آتي بالإنقاذ"*.

يفكر سمير جادو قليلا، ثم يستشير رفاقه. أعرف طريقا واحدا للخروج، لكنه محفوف بالمخاطر. يشير إلى ولد في الخامسة عشر من عمره. يأخذني الولد، ونعبر الطريق خلسة، نمر بين المقابر. لا أثر لجادو وأخواتي السبع. نخرج من المقابر لأجد كشك السجائر مضيئا. صاحبه مضرج بالدماء. أوقف الولد الخائف. أجد ورقة معلقة. عليها صورة لينين وتحتها طبعت كلمة: *(الحاكمية لماركس)* بفونت أسود كبير. ثم منشور آخر، أقربه من عينيَّ لأتمكن من قراءة الكلمات ذات الفونت الصغير: *نعلم أن لويس معتقل منذ عدة أسابيع، وأن يد الأمن وراء اختفائه، وأن أجهزة مخابرات عالمية طلبت اعتقاله وتعذيبه للحصول على معلومات مهمة عن العودة الثانية لكارل ماركس. لن نصمت بعد اليوم على الكيانات الطفيلية*

والانتهازية والاستبدادية، ونعلن زاوية النجار أول منطقة محررة من الإمبريالية العالمية، وأن أهلها رهائن، سنذبح منهم واحدا كل يوم حتى الإفراج عن لويس.

كل هذا الجحيم والركاكة من أجل الروح الخافتة للأجنبي الذي قذفته بيدي للمصرف أمس؟ يستعجلني الولد للهروب. الثقب يعود إلى روحي مجددا، أدخل كشك السجائر بعد أن أزيح جثة صاحبها. أعبئ علب سجائر من كل الأصناف، الممتازة والجيدة والرديئة في كيس أسود كبير، لا أنسى الولاعات.

يذهب بي الولد إلى عربة صغيرة، يعطيني المفتاح، ويخبرني أنها سيارة سمير جادو. أقذف غنيمتي داخل السيارة، وأمرق بها هاربا، غير عابئ بالرصاصة التي اخترقت رأس الولد، رسول نجاتي. أقود برعونة وسرعة، شاحنات الطريق تكاد تحطمني. أصل إلى القاهرة. وأجد الإعلانات قد تبدلت، صورة كارل ماركس تغزو كل لوحات الإعلانات وكتب تحتها: *"ماك إز باك"*. الوصف الذي أطلقته الميديا على عودة ستيف جوبز للانتقام والسيطرة على آبل بعد طرده منها. هذا الإعلان أفلت من ماكينة مولانا. لا بد أنه يصب غضبه الآن على ناجي. لم أمنع نفسي من الابتسام. هل يحتاجني الآن؟

الفصل الثاني

الشتات

Mac Is Back

1

بدأ كل شيء سريعا كطيف، ثقيلا وضاغطا ككابوس. في قصر مولانا، نار غضبه تحرق، لكنها تكتفي نحو ناجي بالعتاب. فقط العتاب الأكثر حنوا من المحبة. أما أنا ككرسي خشبي، كزينة بلهاء في غرفة جلوس العائلة. أجلس منكمشا في حضرة تلك المحبة كطفيلي لا يرحب به عائله، يرميني من وقت لآخر بنظرة ازدراء. أين خطئي يا مولانا؟ لم أفعل شيئا. لم أقتل لويس، لم أحتل المدينة، لم أضع ماركس على لوحة الإعلانات.

يقول مولانا: *"شيطان لابلاس فشل"*، ثم يعلق اللوم على الجميع عدا صاحبه، يفرم سيجارا ضخما، يصفع الهواء. إذا صرخ ينظر في أي اتجاه، عدا من اقترح عليه آلة توقع الإعلانات الضخمة

وشيطان لابلاس البرنامج القادر على التنبؤ بأي تمرد من تحليل التغريدات وبوستات الفيسبوك.

عرف خبر احتلال زاوية النجار قبل أن أبلغ قصره. يُفرغ مولانا غضبه في مراد بك على الهاتف، لا يسمح له بالتحدث، بل تلقي الأوامر فقط: *"امنعوا النشر.. اقتحموا المدينة سريعا.. لا يهم عدد القتلى.. سأسوي الأمر مع المنافقين في الخارج. سيصدرون بيانات تستنكر ما يرغبون في حدوثه"*.

ينصرف ناجي بعد أن يهمس له مولانا بتعليمات لم أتبينها، يجادله قليلا. ثم أسمع: *"حسنا، فلنجرب حلك أولا"*. ما إن يغادر، حتى أخبر مولانا أني عدت لتوّي من مسرح الأحداث. يقول بلا اكتراث: *"أعلم"*. يسألني دون أن يظهر عليه أي اهتمام بأجوبتي عن بعض التفاصيل. فأروي له كل ما رأيته: جماعة الحل البرازيلي لقتل أطفال الشوارع، محاولتها لمقاومة الاحتلال المفاجئ، اختراع طالب الثانوي لعزل المدينة. منشورات الحاكمية لماركس التي قرأتها. طلبهم بالإفراج عن لويس. شائعة أن ماركس حي، وأنه سيعود في انبعاث ثان، أسخر من الفكرة: ربما سيصرخ الشجر عند عودته: *"يا ماركسي.. ورائي برجوازي فاقتله"*. شبح ابتسامة ينبت على شفتي مولانا، ثم سرعان ما يخبو، لكنه يريح قلبي قليلا.

لم أحك له عن ظهور جادو الميت، وبناته السبع المجهضات،

لو أخبرته، لما تذكرهن أصلا. هل يعد أرواح الأجنة المغدورة من ضحاياه؟ عدم معرفته بحكاية البنات، يشعرني بالزهو وقدرتي على الاحتفاظ بشيء ما خارج سلطة عينيه.

عرفت منه أن سمير جادو وابنه طالب الثانوي جاءا إليه من قبل، وعرضا اختراعهما لعزل المدينة وتنفيذ الحل البرازيلي في زاوية النجار، المكان الأمثل؛ فهي لا قرية ولا مدينة، بل لا شيء.. فهي مربوطة بالقاهرة بجسر يمكن نسفه.

ادّعى عدم الحماس، لكنه عمل سرا على تحويل الاختراع الفاشل لطالب الثانوي إلى حقيقة. فأفكار الطالب عن أعمدة خرسانية وجهاز يبث مجالا مغناطيسيا، هي محض خراء. جهز مولانا التقنية عن طريق علماء حقيقيين حولوا الفكرة إلى تطبيق تحت إشراف ناجي الذي بث بنية تحتية ظنها أهل القرية لتقوية شبكة الهواتف المحمولة. كل ما يتطلبه الأمر لعزل المدينة القرية والقرية المدينة هو ضغطة زر. لكن التقنية سرقت من قبل هاكرز، يعرفون أنفسهم بـ(الماركسيين ما قبل قبل الجدد). سرقوا كل تفاصيل المشروع من بيانات مولانا نفسه. وعرفوا أن البنية التحتية الوحيدة الجاهزة هي في زاوية النجار. *"لقد استولوا على الآلة، اللصوص"* يصرخ. أخبرني أيضا أن يقينهم في اختفاء لويس، جاء من رشوتهم لأمين الشرطة المطلع على غرفة التعذيب. وأنه نفذ طلبهم الغريب؛ ليدلل على صدق معلوماته: قميص لويس الملوث بالدم من أثر التعذيب. لم يخبرهم

بوفاته، أخبرته أنه كان عاري الظهر عندما اشـــتريته، ومُنح خرقة ستر بها نفسه.

لويس، هو جزء من خلية داخل الحركة، تعرف باسم مجموعة رومـــا، ومهمتها هـــي التنظير والتبشـــير بعـــودة ماركس لجمع الماركسيين مما أسموه (الشـــتات الماركسي) في العالم، في تنظيم أممي يسمى (حركة توحيد الماركسية الناجية) يختصرونها بالعربية إلى: حتمن.

لم تكن تلك المعلومات الوحيدة التي أخفاها عني مولانا وتبادلها مع ناجي بسخاء. لكنه أيضا أخفى توصل عالم روسي إلى إعادة استنساخ ذاكرة ماركس من كتبه وخطاباته، مضيفا إليه ذاكرة ما حدث منذ وفاته حتى الآن.

لم يستطع أحد أن يصل إلى ذاكرة كارل ماركس في الفضاء الإلكتروني المظلم للـ دارك ويب ولا قراصنة الحكومة.

تلك المعلومات المكثفة والســـريعة، كانت أكثر من قدرة ذهني المرهـــق على الفهم، لكن مولانا واصـــل. كان لويس أيضا يحمل ما هو أخطر: فكرة. ويدعي أن كارل ماركس بنفســـه يعكف على إعـــادة كتاب رأس المال بعد تنقيحه بنظرية جديدة وقديمة، يدعون أن ماركس هو من أطلقها في هوامش نصه، حاشـــية حول الآلات:

Fragment on Machines، أن القـــوة لن تصبح قوة العامل، بل قوة المعلومة والمعرفة. يقـــول مولانا: "من برأيك يدفع بالمعلومة إلى الآلة؟ الفن والاقتصاد والفلسفة، من استولى على الآلة: الماركسيون أنفسهم، لقد ســمموا كل المعارف بضرورة الثورة ضد (شيطان) الرأســمالية الذي اخترعوه. يدعون أن ماركس تخيل آلة تدوم إلى الأبد، لا تكلف شيئا. لأنه كان يعرف أن ذلك هو طموح الرأسمالية النهائي. آلة مثالية لا تتذمر، ولا تشكو، ولا تحطم نفسها، ولا تقوم بالإضـــراب، وتكلــف أقل. ادعوا أن تلك الآلة ســتكون حفار قبر الرأسمالية، وأن المعرفة التي ســتصير في أيدي الجميع، ستكون البروليتاريا الجديدة المســتغلة من قبل محتكري المعرفة والبيانات والهوية، وأنه كلما ســعى المحتكرون إلى زيادة الإنتاج لاستغلال بيانات أكثر، كلما زادت طبقة المُستغَلين وتشابكت مصالحهم للثورة لتحقيق (شيوعية) المعرفة ضد الإقطاعيين الجدد: فيسبوك وجوجل وباي بول وغيرهم.

لماذا يكشــف لي كل هذا الآن؟ غضبه يبــدو في ارتجاف كل عضلة في جســده وهو يتحدث. إنه خائف رغم كل شيء. لن يفعل ذلك إلا لغرض لم يفصح عنه بعد.

أتجرأ وأسأله لماذا يرغب في عزل زاوية النجار من الأساس؟ يصمت قليلا، يفكر ثم يخبرني: *"لتطبيق الحل النهائي"*. *"على من؟ أطفال الشوارع؟"* يومئ مولانا برأسه نافيا: *"بل على الماركسيين*

المتخفيين والظاهرين واللاماركسيين المسممة قلوبهم بهراءات الماركسية. حل ينهي سيرة هذا الشبح للأبد، من زرعوا فكرة لا تزول، الثورة. كنت أخطط أن تشرف على الأمر بنفسك. لا يمكن تجريب الحل النهائي إلا في مصر. نفاق الغرب يحول بينه وبين إبادة روح الثورة في العالم، التخلص من مشعلي الحرائق، محطمي الآلات، مسممي نهر المعرفة، كان ذلك سيتم في زاوية النجار أولا على سبيل التجريب. الهولوكست الأخير. معسكرات موت، محارق، أفران غاز، الاستفادة منهم كعمّال ورقيق لبناء مشاريع كبرى. شياطين لو امتلكوا لقتلوا الجميع، لأجبرونا على عبادة كارل ماركس في النهاية. أتعلم عدد قتلى ديكتاتوريات الشيوعية في العالم؟ أفران هتلر كانت محض لهو مقارنة بمن قتلوهم باسم الحرية والمساواة. تردد السادة في قبول اقتراح الحل النهائي كثيرا، رغم أني أعرف أنه يمثل أعمق رغباتهم. لكن حادثة زاوية النجار، حسمت الأمر".

يتحرك مولانا بنفسه إلى البار. يصب كأسين من نبيذ. يمنحني واحدا. هذا الحنان مغرض. يا أبتِ ابعد هذا الكأس عني. أتناوله بيد مترددة دون أن أمس شرابه.

يبدأ كل شيء من برجوازي صغير في جراج بوادي السيليكون. داود يطمح في تحرير المعرفة من محتكرها جالوت؛ ليضعها في أيدي الجميع، يصنع داود (شيوعية) المعرفة كل مرة حيث الجميع

بإمكانه أن يتقاسم إرث الكهنوت، يصير البرجوازي الصغير ثريا في ضربة معول واحدة، لكنه لا ينظر إلى أسفل مجددا، بل يصير إقطاعيا ويستعبد الجميع بالتحكم في أذواقهم ونزواتهم، ويحدد لهم ما يعرفونه. والإقطاعي، ماذا يمكن له أن يصير بعد ذلك إلا إلها، وثنا خالدا. أتذكر نبوءة فانجا: ستة أثرياء من وادي السيليكون، الهاربون من أسفار العهد القديم للعهد الجديد لتكنولوجيا المعلومات، يصرفون المليارات سنويا؛ لتحقيق الألوهة والخلود عبر إنسان السيبورغ. نصف آلة نصف إنسان، إله كامل. هل هم السادة الذين يقصدهم مولانا؟

تأتي الأخبار من مراد بك عبر الفيديو كونفرانس. لقد فشل الاقتحام الأول. تطبيق عزل زاوية النجار ينجح. الأقمار الصناعية لا تلتقط حركة المتمردين بالمدينة. يسألني مرة أخرى عن الطريق الذي سلكته للعودة. أخبره كل شيء بالتفصيل. يريني خريطة تفصيلية لزاوية النجار، أشير إلى الثغرة الوحيدة: مقابر الموتى. يخبر مراد بك بمكان الثغرة. أوضح: *"لكنهم رأوني لحظة فراري، سيؤمنون هذا الطريق جيدا"*.

"لقد انتهوا" يقول مراد بك بثقة. يُنهي الاتصال، ليظهر وجه ناجي. يسأله مولانا عن إعلان ماركس. يجيب: "كلما محوناه، يعاود الظهور من جديد. لا نستطيع معالجة هذا الأمر الآن؛ لأن

ظهــوره لم يكن اختراقا، ماركس يظهر كرغبة طبيعية، كشــعور عام، اسمه يسري في الآونة الأخيرة بين الجميع ببساطة. لكن أقوى إشـــارة تلتقطها آلة توقع الإعلان، تأتــي من قصرك يا أبي، تلتقط الآلـــة حديثك الدائم والمهووس بكارل ماركس، وتحوله إلى إعلان افتراضي، كهوس ماركس نفسه برأس المال.

ناجي وحده يستطيع اتهام مولانا بالهوس دون أن يُلقى كجثة على قارعة الطريق.

يســـأله: *"ماذا تقترح؟"*، يضحك ناجي قائلا: *"يريدون ماركس. فلتعطهــم إياه"*. يفهــم مولانا ما يقصده ناجي. نظـــرة الفخر بولده تقتلني.

يتابع: *"الإعلان جاهز بالفعل: بشري أكثر من البشر.. احصل على 20 % تخفيض على علاج ماركس لتجديد الخلايا الجذعية.. اختر باقة إطالة العمر ثلاث سنوات، خمس سنوات، عشر سنوات.. وداعا للشيخوخة.. الخلود للجميع.. اطل العمر، أو استعد النقود.. للاشتراك ارسل عبارة: (قم بتحسيني). أوضح ناجي أنه سيستخدم شعارات لمداعبة الفقراء"*.

قسمات مولانا انفجرت ضاحكة. لم يمهله ناجي: *"أقترح أيضا تعديل خطوط إنتاجنا للبروزاك المحسن.. دع القلق وابدأ الحياة.*

سنبيعه بأسعار رخيصة في الأسواق الشعبية، البروزاك للجميع، سنسميه أفيونة ماركس.

أرغب في هذا حقا. أستعمل البروزاك من وقت لآخر؛ كي ادعي أن حياتي بلا ضغوط".

صفق مولانا بكلتا يديه: *"الفائدة الحقيقية الوحيدة للعنة الشيطان الماركسية.. حقن بوتيكس للوجه العجوز".*

أنهى الاتصال. تأمل الفراغ لدقائق بفخر. تنهد ثم قال: *"حقا.. الولد سر أبيه".*

أخبرته أني قلق بخصوص مشاركتي في دفن لويس: *"هذا يجعلني في دائرة انتقام (الفرقة الناجية)"* دون مبالاة حقيقية قال: *"لا تقلق.. سينتهون تماما".*

2

ببث مباشر على شاشة عرض كبيرة، جلست مع مولانا أشاهد قوات مراد بك وهي تتقدم من ثغرة المقابر لاسترداد زاوية النجار من أيدي جماعة حتمن. المدرعات تدخل بثقة. يسألني مولانا على من أراهن؟ أخبره دون تردد: *"حتمن"*. يضع رهانه على قوات مراد بك.

تتعطل المدرعات. كان ذلك واضحا، القش يخفي أسياخ حديد. أفسر لمولانا. أكسب عشرة آلاف جنيه من الهواء، شكرا للمقاومة. نضع رهانا جديدا، فأراهن من جديد على حتمن، ويثبت مولانا على اختياره.

تنطلق كرات صغيرة مشتعلة من أطرافها بأعواد الشرار، تشتعل المدرعات. أشرح لمولانا: *"قنابل صغيرة تصنع من المواد المغلفة لأعواد شـــرار أعياد الميلاد بعد أن تهـــرس مع قصاصات كرات البينج بونج المقطعة إلى قطع صغيرة، بارود الغلابة معبأ في ورق ســيلوفان. أربح مجددا*. عربات الجيب السريعة انقلبت، أثر الزيت واضح على الأرض. *"لن أغيـــر رهاني"* يقول مولانا، يرفعه في

كل مرة. ربحــت من تآكل حديد المجنزرات، وتفجر تانكات وقود حامــلات الجنود التي وضع فيها المتمردون قطع زجاج مكســور مائة ألف جنيــه. أنا لا أراهن، يعلم مولانا هذا، لكن هزيمته كانت مغرية. صواعق يدويــة رخيصة تهزم كل قوات جالوت، وتعطل أنظمة التوجيه الإلكترونية. أعلم من الأدوات البالية والساذجة التي يحملها المتمردون خطتهم.

تتقدم دبابات محل جنوده. يجري مولانا اتصالا، فيستمر مراد بك في القيادة. يُلقي المتمردون جوارب مشتعلة على جنازير الدبابات. أعرف ما تحتويه تلك الجوارب، خام كلوريد الحديدوز وحجر يباع عند العطارين في باب اللوق يسمى حجر القلافونيا، تلك الجوارب غمست في البنزين ثم غطاها المتمردون بالسيليكون الحراري الذي يباع ببراءة واعتيادية في محلات الأدوات الصحية بالسبتية. حركة الدبابات شلت، اندفع المتمردون، وسدوا مدافعها بخوابير ممتلئة بالرمل.

أمر مراد بك بتحرك جنود مدججين بالدروع. لكن مع الوقت انتابتهم آلام صداع رهيبة، فقدوا التركيز، أغلبهم كانوا ضحية سهلة للهجوم المعاكس لمتمردي حتمن. انسحبوا فورا وأسر منهم عشرون جنديا. كل ما احتاجه المتمردون هو أجهزة طاردة للناموس تباع بأسعار شعبية كافيونة وضعت أمام مكبرات صوت لمضاعفة

التردد الخارج منها. لم يحتج الالتحام المباشر أكثر من إبر شعر مغموسة في التنر، غُرست في مناطق أعضاء الجنود التناسلية ومناطق المفاصل والرقبة والأعصاب. صُبت عليهم كميات هائلة من الماء المغلي من فوق أسطح العمارات، أعلم أنهم أضافوا إليه الخل لمضاعفة تأثيره الحارق. بخاخات العطر المزودة بولاعات الصين الرخيصة تكفلت بإحراق الدروع.

لم تجد القوات بدا من استعمال الطائرات، لكنها فقدت القدرة على توجيه الصورايخ، لقد استعمل المتمردون كابلات الأين داخل أجهزة التليفزيون في المنازل وأطباق الدش الهوائية، لتشويش أنظمة التوجيه بعد أن ربطوها بأسياخ المباني في أسطح العمارات. أتخيلهم أصلا الآن وهم يستمعون عبر أحد الراديوهات القديمة التي تباع في سوق الجمعة إلى أوامر مراد بك لقواته عبر اللاسلكي على موجة إل إم. كم ربحت؟ مليون جنيه. الحاكمية لماركس وأم ماركس إن ربحت مبلغا كهذا من الهواء.

وافقت على مضاعفة الرهان مع انسحاب القوات.

تشويش بسيط في شاشة العرض، ثم رأينا أحد قادة المتمردين ملثما بغطاء الرأس الأزرق المثقوب عند العينين والمعطف الأزرق، وبجواره أحد سكان زاوية النجار منحنٍ ومكبل. لقد تحكموا فيما تعرضه شاشة مولانا. هزموه ثانية في قصره. عرفت من التغريدات

على هاتفي أنهم يتحكمون في البث على أكثر من قناة تليفزيونية، وأن هناك بثا مباشرا على الإنترنت يتابعه الملايين الآن.

الرجل الملثم يخرج ورقة كبيرة، يقرأ:

"بيان المانفيستو الشيوعي.. كارل ماركس.. فريديريك أنجلز

شبح ينتاب العالم - شبح الشيوعية السيبرانية. ضد هذا الشبح اتحدت في طراد رهيب قوى الغرب العجوز: الجنرال ومولانا وقوات مراد بك والـ إف بي آي الأمريكي.

فأي حزب معارض لم يتهمه خصومه في السلطة بالشيوعية؟

وأي حزب معارض لم يرد، بدوره، تهمة الشيوعية الشائنة، إلى أقسام المعارضة الأكثر تقدمية، وإلى خصومه الرجعيين؟

إن قوى الغرب كلها أصبحت تعترف بالشيوعية السيبرانية كقوة. إن الشيوعيين قد آن لهم أن يعرضوا، أمام العالم كله، طرق تفكيرهم، وأهدافهم، واتجاهاتهم، وأن يواجهوا خرافة شبح الشيوعية السيبرانية ببيان من الحزب نفسه.

يا حكومات العالم، يا عمالقةً من لحم وفولاذ، آتي إليكم من الفضاء السيبرانيّ، الموطن الجديد للعقل. باسم المستقبل، أسألكم يا من تنتمون للماضي أن تدعونا لشأننا؛ لستم أهلًا، ولا تحلّون سهلًا؛ ولا سلطان لكم حيث نجتمع. ليست لنا حكومة منتخبة، ولن

تكون لنا على الأرجح حكومة؛ لذا فإني أخاطبكم بسلطة لا تزيد عن تلك التي طالما تحدثت بها الحرية نفسها؛ لأعلن أن الفضاء الاجتماعي العالمي الذي ننشئه مستقل بطبيعته عن الطاغوت الذي تسعون لفرضه علينا؛ ليست لكم شرعية لتحكمونا، ولا بيدكم وسيلة لقهرنا تستحق أن نخشاها. تستمد الحكومات قوتها المُسْتَحَقَّة من رضوخ المحكومين. أنتم لا تعرفوننا، ولا تعرفون عالمنا. الفضاء السيبراني لا يقع داخل حدودكم، فلا تظنوا أنكم يمكنكم إنشاؤه كما لو كان مشروع مرفق عمومي، فأنتم لا تستطيعون ذلك. إنه من فعل الطبيعة وهو يُنمي ذاته من خلال عملنا الجمعي.

أنتم لم تنخرطوا في محاوراتنا الجامعة العظيمة، كما أنكم لم تخلقوا الثروة التي في أسواقنا. أنتم لا تعرفون ثقافتنا، ولا أخلاقنا، ولا قوانينا غير المكتوبة التي تنظم مجتمعنا بأكثر مما يمكن لكم أن تفرضوه.

عالمنا موجود في كل مكان وفي اللامكان في الآن ذاته، لكنه ليس حيث تعيش الأجساد.

نحن نخلق عالما يمكــن للجميع أن يدخلوه، بلا ميزة وبلا حكم مسبق على عرقهم أو على قدرتهم الاقتصادية أو العسكرية أو على محــل ميلادهم. نحن نخلق عالمــا يمكن فيه لأيٍّ كان في أي مكان

التعبيـر عن رأيه أو رأيها، بغض النظر عن قدر تَفَرّد هذا الرأي، بلا خوف من أن يُكره على الصمت أو على التوافق. مفاهيمكم عن الملكية والتعبير والهوية، والحراك والسياق لا تنطبق علينا، فكلها مبنية على المادة، ولا مادة هنا.

أنتم تخشون أبناءكم، لأنهم أُصلاء في عالم ستظلون أنتم دائما مهاجرين إليه. ولأنكم تخشونهم فأنتم توكلون إلى بيروقراطياتِكم مسئولياتكم الأبوية التي تخشون أن تواجهوا أنفسكم بها. في عالمنا كل الأهواء والتجليات البشرية، من أدناها إلى أسماها، جزءٌ من كلٍّ غير متمايز. نحن لا يمكننا أن نميز ما بين الهواء الذي يَخنُق والهواء الذي تُحلِّق عليه الأجنحة.

إن صناعاتكم المعلوماتية الباطلة تَدّعي ملكية الكلام ذاته في أنحاء العالم. هذه القوانين ستعامِل الأفكار كمنتج صناعي. في عالمنا، كل ما يمكن للعقل البشري أن يخلقه يمكن أن يُنسخ ويوزع بلا حدود وبلا كلفة. لم يعد انتقال الأفكار يحتاج مصانعكم ليتحقق.

إن الممارسات الاستعمارية والعدائية التي تزداد وطأتها باستمرار تضعنا موضع من سبقونا من عشاق الحرية وتقرير مصير أنفسهم، الذين اضطروا لأن يرفضوا سلطة غاشمة من منأى.

سوف نخلق حضارة للعقل في الفضاء السيبراني. عسى أن تكون

أكثر إنسانية وعدلا من العالم الذي صنعته حكوماتكم من قبل.. فلترتعد الطبقات السائدة خوفا من ثورة شيوعية. فليس للبروليتاريين، الميديوكرز، معدومي المواهب ما يفقدونه فيها سوى أغلالهم.. العالم لن يصبح حكرا على الموهوبين ومحتكري المعرفة.. سر الموهبة للجميع.. المعرفة للجميع.. يا ميديوكرز العالم.. اتحدوا"(*).

يقول مولانا: *"هذا ملفق. هذا ليس المانفيستو الشيوعي"*. أعلم إن ما قيل هو إعلان استقلال الفضاء السيبراني الذي كتب في منتصف تسعينيات القرن العشرين ضد تقييد حرية الإنترنت، أضافت حتمن إليه فقرة من المانفيستو الشيوعي، وأنهته بإضافة فقرة أخرى تستبدل البروليتاريا الفقيرة، بالمفتقرين إلى الموهبة، حيث لا أهمية في المستقبل إلا لندرة الموهبة المتطورة للإشراف على الآلة. قوة الجسد لتحريك الآلة ستصير لا شيء.

يعود القائد الملثم للتحدث: *"حذرنا أننا سنقتل كل يوم فردا من رهائن زاوية النجار، حتى يتم الإفراج عن لويس"*. يرفع القائد الملثم قميص لويس الملوث بالدم. يتقدم صبي صغير ملثم، يمسك سكينا، يضعه على عنق الرهينة. يهتف الصبي: *"باسم ماركس"*. ثم ينحر الرقبة.

(*) إعلان استقلال الفضاء السيبراني، جون بري بارلو، ترجمة: أحمد غربية. ونسبته جماعة حتمن زورا لماركس، بعد أن أضافت إليه فقرات من المانفيستو الشيوعي.

"هل ترغب في مضاعفة الرهان؟" يقول مولانا وهو يراقب الانتفاضة الأخيرة لرقبة الرهينة وهي تنفجر بالدم. أشتم في مولانا رائحة المقامر اليائس الذي لا يملك إلا الحفر عميقا في نفق الخسارة. أوافق.

"شو تايم" قال مولانا ببهجة طفل. من اللامكان، تظهر قوة من تسعة أفراد. لا أعلم إن كانوا قد أتوا من السماء، أم انشقت عنهم الأرض. أجساد لا يؤثر فيها الرصاص أو القنابل الرخيصة ولا تشويش أنظمة التوجيه، أجساد لا تعرف الموت. تقتل القائد الملثم. تطير الأجساد التسعة، وترصد أماكن اختباء وفرار جماعة حتمن من الهجوم. وفي أقل من نصف ساعة تقتل نصفهم، وتأسر النصف الآخر.

أخسر لتوّي ثلاثة ملايين جنيه، لا أملك منها مليما، فثروتي كلها هي عملات افتراضية. أوقع مستسلما شيكا لمولانا، ورقة بإطالة سنوات العبودية. أسب ماركس بأمه. وأكره مولانا أكثر. كان يعلم من البداية. تتسلم قوات مراد بك الأسرى، تختفي الأجساد التسعة. أسأله: *"من هؤلاء؟"*، يقول مبتسما: *"روبوتات. جيش صغير لا يقهر. راقب أساليب المتمردين، عدل نفسه ثم هاجم، يبتلع الثائرون دائما طعم الانتصار السريع، وكذلك المراهنون الحمقى مثلك"*. يضحك. لم يسامح أبدا فيما سرقته، يجد طريقة دائما لاستعادته.

يظهر ناجي مجـــددا على الفيديو كونفرانـــس. يصيح مبتهجا:

"أعتـــذر منك يـــا أبي.. كنت على صواب مـــن البداية. لقد جربت الحل الذي اقترحته. لن تظهـــر صورة ماركس مجددا في لوحات الإعلانات".

ظهرت صورة الإعلان/ اقتراح مولانا: كانت صورة جوزيف مكارثي، صائد هاجس الشيوعية في أمريكا وتحتها عبارة Mac Is Back. أقدم اقتراحي السخيف بأن الاختصار غير صحيح لأن مكارثي تكتب: McCarthy لا Macarthy. ينظر لي مولانا بازدراء: *"لقد لفقوا بيانهم، ألا تسمح لي بتلفيق دفاعي؟"* أنكمش في مكاني.

يســتكمل ناجي مديح مولانـــا: *"صورة جـــون مكارثي، والـــذكاء الاصطناعي، لم تصلح. كنـــت على صواب يا أبي الحلول القديمة وحدهـــا نجحت"*. يقول مولانا: *"أي غباء في محاولة إنتاج الأفكار القديمة والميتة، التاريخ يكرر نفســـه مرتين، مرة كمأســـاة ومرة كمهزلة، الجهلة لم يتعلموا شيئا من نبيهم المزعوم.. Mac Is Back.. يا كفرة يا ميديوكرز يا ولاد الكلب"*.

من القاتل؟

1

استمر احتلال قوات مراد بك لزاوية النجار، واستخدام تطبيق العزل بعد تحصين ثغرة مقابر الموتى.

كنت في طريقي إلى مصنع ترميم الأجساد، وبصحبتي البضاعة الجديدة.

جاءتني تلك الرسالة: *"نعلم كل شيء.. رهانات الموت.. القوادة.. جثة لويس.. سيطفو كل شيء على السطح.. لن تفلت.. حتمن"*. أي فزع. اتصلت بمولانا، أخبرني أن لا أقلق، وأني تحت حمايته. أنا لم أقتله. لا أقتل، ولا أراهن، وعندما فعلت خسرت أكثر مما يخسره المراهنون. أنا محض حبيس يخطط لنجاته. كيف نفر من الحفل إلا عندما يبلغ الضجيج ذروته، ألهب الضجيج بالحطب؛ كي لا يشعر مولانا بتسللي خفية. أنا لم أصنع النار. ولم أسرق

إلا ســـارقي. ودوني هل يتوقف القتل؟ الســـرقة؟ رهانات الموت؟ سيجد مولانا في أي وقت من هو أكثر مني موهبة وقسوة. فلأصنع فردوســـي إن كنت غير قادر على إيقاف الجحيم، فليستعر الجحيم أكثر، إن كان في لهيبه نجاتي.

اتصلت بـ ليلى. ما زالت تبكي. سألتني عن ما يحدث في زاوية النجار، فادعيت أني لا أعرف التفاصيل. لم تتصل لتطمئن عليَّ رغم أني كنت عالقا في أتون المذبحة. قالت: *"قدرت أنك تعرف كيف تنجو.. تهرب دوما في الوقت المناسب"*.

أي قسوة يا ليلى! تقول: *"إن زين أبكاها هذا الصباح. أخبرني أنه رأى جده ليلة أمس"*. يقول ابن الخامسة: *"شفت جدو.. كان لابس سحري، وقاعدة على الكنبة بياكل كيك، وبيضحكلي"*.

متى ستموت يا جادو؟ لا أخبرها أني رأيته في المقابر يلهو ويضاجع أخواتي. قلت: *"أتصدقين طفلا في الخامسة؟"* تقول بإصرار: *"عندما كنت في عمره ظللت شهرا أرى طيف جدتي في المنزل، أرواح الأطفال ما زالت شفيفة، حتى أنها قادرة على رؤية الأحبة. ليتني أستطيع أن أراه مرة أخيرة"*.

تسألني عن واسطة كي تستطيع أن تزور مقبرة جادو بعد عزل زاوية النجار. أخبرها: *"سأحاول، لكني أفضل الانتظار حتى تهدأ الأمور"*.

تقول إنه يأتيها في الأحلام طالبا رؤيتها مع زين، فهي لم تستطع يوم جنازته أن تزور قبره. لم تذهب مع أمها. فضلت أن تكون معه وحدها. تقول إنه جاءها في الحلم جاذبًا زين ناحيته.

فزعت. زين؟ حتى ولدي ترغب في أخذه إلى الموت؟ قد أنبش قبرك وأرمي جثتك للطير. أقول من الفزع لا من فرط المحبة: *"لم أخبرك عن الفردوس من قبل يا ليلى؟ فلنعد لبعضنا البعض، ولنهرب من الموتى الممسكين بتلابيب الأحياء"*. لا تهتم. أذكرها بطلبها أن من الأفضل أن آخذ زين بعيدا عن دوائر الموت والعويل. أخبرها سآتي لأخذه مساء. سنذهب إلى بيت الحاجة ميمي، سترعاه في غيابي، طالما أترك لها مالا جيدا. توافق مضطرة، وتنهي الاتصال دون أي فضول حقيقي عن الفردوس.

رامبو يعرف *"الحب ينبغي إعادة ابتكاره"*.

وصلت بالشاحنة إلى مصنع مرمم الأجساد. يغير المصنع مكانه كل مرة، أترجل وأتبعه من ثقب *ابرة إلى شارع متسع، ومن شارع متسع إلى ثقب ابرة*. من وقت إلى آخر تظهر جرادة، تومض فتختفي وتختفي فتومض كهلوسة، فأعرف أني في الاتجاه الصحيح. أفتح الباب ببصمة عيني. المصنع في مخزن مهجور *مليء بصناديق بيرة يحبها الحكيم مرمم الأجساد، كميات كبيرة من الزجاجات الفارغة مبعثرة في المكان. خبطة فأر، تزامنت مع تعثر قدمي في إحدى الزجاجات*.

المخزن المهجور ليس إلا وهمًا. ضغطة زر على هاتفي، كشفت عن فريق من الأطباء والعاملين يقودهم مرمم الأجساد، الحكيم المضطجع على أريكة ممزقة، لا تفارق يده زجاجة بيرة فارغة، لا يشربها أبدا. فهو لا يستطيع الشرب، فذلك الوجه المترب واللحية المليئة بالوسخ والحشرات، والجلباب الممزق البالي المزركش بالرقع الملونة محض وهم آخر. فالحكيم ليس إلا كمبيوتر عملاقًا بعرض الحائط الذي تتكئ عليه أريكته. يحب الحكيم هذا الجسد الرث كثيرا؛ فهو يتيح له السباب، الغموض، البصق، بعبصة الأطباء أحيانا.

مسوخ تتحرك في المكان، تجارب مميتة. يقلعون أعينًا، يحقنون القلوب بسيانيد، عمليات تحويل جنس وإخصاء، رؤوس مقطوعة على سبيل التجريب لتثبيت رؤوس آلية مكانها، مراوح، أباجورات، ماشية. أقفاص أسرى، أقفاص بضاعة انتهى العمل عليها وتنتظر التسليم. الأجساد المنتهية بالغة الجمال هي حصيلة أجساد قبيحة استعملت أعضاؤها كقطع غيار. هكذا نحقق الندرة.

واحدة من أجمل الآلات التي أحبها هي المفرمة. آلة تعصر الروح، وتقطع اللحم، ثم تحرقه حتى يتحول إلى رماد، تكثف عصير الروح، ثم يقرأ عليها الحكيم كلمات بلغة لا يفهمها سواه، ثم يضيف حجرا، يطحنه مع الرماد، ثم يضيف نقاطا محسوبة من سوائل، ثم يقلب منتجه، ثم يعيد قراءة كلماته، فيخرج الجسد سالما، لكن مخلوطا بنسب

من أرواح أخرى حسب الحاجة، طائعة أو متمردة، شديدة الإيمان أو شديدة الكفر، عبيدًا للجنس أو للعمل، أو للمعرفة أحيانا.

كانت تلك المفرمة هي مصيري المفترض صغيرا. عندما اختطفت من الشارع. تم اقتيادي إلى هنا؛ لأصير عبدا يصلح للبيع. انتابتني نوبات الصرع عندما دخلت هذا المخزن للمرة الأولى، رأيت الأرواح المهدرة والمغدورة. الحكيم، الكمبيوتر العملاق، عرف عن طريق شفرتي الوراثية أني ابن مولانا. كان قرار مولانا الأول: *"تخلص منه. لا أبناء لي"*. لكن الحكيم أقنعه بموهبتي الكبيرة في رؤية الندرة. *"علاجك في الصخب، وأن تطمس عينيك بخطيئة القراءة، حينها لا ترى الموت، بل الحياة الكامنة في الموت"*. يحقنني الحكيم كل عام بحقنة المعرفة، آلاف الكتب تسري في دمي. ملاحم وهراءات، قصص كبرى وقصص صغيرة، حقائق وخرافات.

لم يحبني أحد مثله. محبة بلا شرط، بلا قيد، بلا ازدراء، غفران كامل لنقصاني وأخطائي. لا يلومني على شيء، بل يمد يده الصناعية ويربت عليّ بحنان. لا أعرف فيه حنانا إلا معي. لم يبرمج على هذا. سرّنا الشخصي. لقد طور معي مشاعر حقيقية. لو أفلتنا هذا السر، لصار هو نفسه محض فأر تجارب لمولانا. يقول الحكيم: *"لا أشعر بشيء إلا نحوك، وحدك قادر على إضحاكي، إغضابي، إثارة قلقي، تثير فيّ الحياة"*. أقول: *"هذا ما أشعر به نحو زين، لا يلمسني أثر*

الحياة إلا عندما أراه يكبر ويلهو. لا أخشى أي خسارة إلا فقدانه". يسألني: *"وليلى؟"*. أقول: *"لا أعرف إن كان حبي نحوها ما زال صافيا، بعد أن كفت عن منحي الغفران. ربما هوسي بإعادتها إلى حياتي، هو هوس بتملك الغفران، لا هوس المحبة"*. يقول الحكيم: *"أنت تستحقه. أنت مضطر لكل هذا. مثلي تماما. حتى لو كنت محض آلة لا تعرف الصواب والخطأ. لا الخير ولا الشر"*.

يعاين الحكيم البضاعة الجديدة، ليزا والعطار والصيني والطفلتين.

ينظر إلى ليزا، يقول مبتهجا: *"كيف وجدتها أخيرا؟"*. أخبره صادقا: *"الصدفة.. ولا شيء آخر"*. يقول: *"بل عرفان الحياة نحوك"*.

يعلم الحكيم خطتي بشأن الهروب، يساعدني عليها، ويعرف أن ليزا وعظمة العرافة فانجا هما أساس تلك الخطة. ماض أعمى يقرأ المستقبل.

تسجل بيانات البضاعة كاملة، ثم توضع في أقفاص حتى نقرر الخطة. يحصلون على تغذية جيدة، ويطببون بعناية، ولا يسمح لهم بالموت. *"إذا لم تأكلوا لحم ابن الإنسان ولم تشربوا دمه، فليست فيكم أية حياة. فالذي يأكل لحمي ويشرب دمي له الحياة الخالدة، وأنا أضمن له الخلاص يوم الدينونة"*، يقول المسيح.

2

فشلت في رسم أي شيء مقنع لما يجب أن تكون عليه الأجساد. أحترق بجمالها المتخيل، لكنه ينفلت من بين أصابعي عندما أبدأ في محاولة الإمساك به. الإرهاق يحرق جسدي. *"ثمة شيء ناقص"* يقول الحكيم، يطالبني بالمغادرة للنوم. لكن يدخل علينا سيد أبو كرنبة أحد موردي الأجساد وهو يحمل شوالا يحوي بضاعة جديدة. فأنتظر.

سيد أبو كرنبة، قاتلي المفضل، الهزيل، الممصوص، العجوز. قاتل الألف نفس، يسمي نفسه. لم يعدهم أبدا، لكنه يقول: *"ربما تجاوزوا الألف"*. هذا الجسد رغم أن ظاهره الضعف، إلا أنه قوي وحاد كمقصلة. يده لا تخطئ. تقتل ببساطة، بقوة، بحيادية، وبلا رهافة. أفضله على عشرات مثله أتعامل معهم في طلبات الاغتيال؛ لأنه شديد الظرف، ولأن حكاياته عن جذور عائلة الهوارية في قنا، خلافاتها، صراعاتها الدائمة لتسيد الآخرين، تاريخها الثري والمتشابك والمعزول، يجعلني أقرب لعائلتي الحقيقية، عائلة مولانا الهواري، حتى وإن تنكر لجذوره منذ هجر جدي الفقير الصعيد إلى القاهرة.

الكل في قرية أبو كرنبة بقنا يعرف أنه قاتل، كان يحيا وسط بيوتهم لا مختبئا في جبل، بل كما يحيا المزارع والبقال وشيخ الجامع وحلاق البهائم، يسير ويمارس عمله في وضح النهار لا في جنح الليل، يتفق على وقائع القتل المعلن في بيته أو في مقهى. هو فاكهة أي مجلس، يستزيدون من حكاياته ونوادره عن القتل، يضحكون على نكاته من قلوبهم. حضرت إحدى الجلسات مرة، قبل أن يترك الصعيد كلها إلى السويس. لم يتوقف عن القتل هناك. لكنه يعمل بشكل أقل: *"في الصعيد كنت آلة قتل. في السويس، أتخير ضحاياي"*، يقول. *"لو لم يقدم لي طالب الاغتيال سببا مقنعا للقتل، لا أوكل المهمة أبدا لسيد أبو كرنبة. يظن الآن بعد عقود من قتل بلا تمييز، أن العدل هو روح مهنته"*.

لم يبدأ حياته كقاتل، بل كسارق. لا يمل أبدا من ترديد تلك القصة التي يرويها لتفسير لماذا حظي بلقب (أبو كرنبة)، لكني أعرف أنه يكررهـا دوما؛ ليؤكد نظريته عن كونه مجرد منفذ ليد القدر. "هل تفكر في التوبة؟" أسـأله، فيرد: *"وهل يفكر عزرائيل؟ أنا كملاك الموت، ننفذ مهام القدر الموكلة إلينا. وابن آدم مكرم على الملائكة. أي أني مكرم على عزرائيـل. لذا لن أعرف الجحيم، ربما أحظى بمكافأة تقاعد بعد موتي"*، (فردوس أبو كرنبة). *"يضحك"* فردوس من حقول الكرنب الذهبية، داخل كل كرنبة حورية جميلة، أضاجع الحورية ألف ليلة دون أن أقذف ودون أن أمل، حتى تحترق، فأنتقل

إلى حورية أجمل بلذة تفوق الأولى.

"كوّنت عصابة صغيرة للسرقة" يقول. *"سرقات بسيطة، مواشٍ، حلي ذهبية، قروش، سيارات، بضائع مخزنة، قضبان القطارات"*. لكني جمعت من تلك السرقات كنزا، كنت سأكتفي به وأشتري أرضا أعيش من خيرها ما تبقى من حياتي. أرض قد ترفعني من عبد إلى سيد. لا أصل لي في القرية سوى أني أحد أبناء العبيد القدامى، هذا لا يتغير، تنفك العبودية ويلغى الرق، ولا تتغير شتمة عبد ولا نخدمهم إلا كعبيد.

لكن القدر كان يعد رسوله. سرقني أحد أفراد عصابتي. قتل كل رجالي وفر بكل شيء. قاتل الغدر، يستخدم السم. السم وصفة الخسة. لم أقتل أحدا أبدا به. أكلت ما أكلوه ونجوت. تلك إشارة القدر. لن أستطيع إقناع رجال آخرين بالخضوع لرجل سُرق وقُتل أفراد عصابته، لقد علق الخائن العار في رقبتي. فر السارق بعيدا. إلى الدلتا. عرفت مكانه بعد أربعة أعوام لم أفعل شيئا خلالها سوى محاولة الوصول إليه. غيّر اسمه، وتزوج من امرأة شديدة الجمال، وأنجب ولدا. وأصبح عنده من مالي بدلا من الأرض أراض وماشية. ظللت أراقبه ستة أشهر. يزرع أرضه بالكرنب. وسط مالي المسروق، قطعت رأسه، ووضعتها داخل كرنبة، وأشعلت الحريق في أرضه ومزرعته وبيته. لم أدخل القرية إلا برأس الكرنبة. رأس عارية.

ومن حينها وأنا سيد أبو كرنبة. لا ثأر لعبد بلا أصل، لكن المهابة للقاتل.

"لم تمر شمس، قبل أن يأتيني أول طالب قتل؛ كي أثأر عنه بالإنابة. في وضح النهار اتفقنا. في وضح النهار قتلت نفسا وقبضت أجرا، ثم أغرقتني القرية بالمحبة، قتلت نفسا، وأنقذت نفوسا. حدثت المعجزة. قتلي لنفس، يعلق الثأر، تعاملوا معي كالقضاء والقدر، كحريق، كحادثة طريق، كحجر يسقط من السماء. وتجاهلوا أن الدماء عالقة في رقبتي. هكذا أُفسحت لي المجالس، وعرفت الهيبة والاحترام. لم أقتل من أجل نفسي بعد رأس الكرنبة إلا مرة واحدة، هربت فيها بنت من عائلتنا مع عامل أرزقي إلى القاهرة. وجدتهما. حرقت العامل. وأعدت الابنة في شوال. دفنتها حية".

أسأله عن البضاعة التي جاء بها. يخبرني: *"هذا الأستاذ حسن. رجل فاضل تربطني به صلة قرابة بعيدة في قريتنا، لكن عقله لم يتحمل لعلة الخنوثة في القلب. مدرس إعدادي، متدين، تزوج وأنجب بنتين قرر تعليمهما، وأن يضيع حياته على اللا شيء، بيت هادئ وأجرة الحكومة، وأن يستدفئ بعائلته الصغيرة، ناسيا دين عائلته الكبيرة. لكن أنت تعرف: التليفزيون والمحمول والإنترنت. كل تلك الأشياء التي تجعل الرجل طريا. كانت قرعته أن يأخذ الثأر. رفض. لم تكن سابقته الأولى. فمن قبل استغفل العائلة الكبيرة، وزوج إحدى*

بناته سرا لرجل من خارج العائلة. العائلة لم تسكت واستعانت بي. فأقسمت معهم أن الدخيل على العائلة لن يدخل على البنت. وهو ما حدث. لا يستطيع طليقها إلى الآن أن يخطو إلى قنا كلها.

لكن عندما جاء دور الأستاذ حسن في الثأر، رفض وماطل، يقول: "يا ناس أنا لا أعرف كيف أذبح فرخة، فكيف أقتل رجلا بلحم ودم وروح؟، الخنوثة يا أستاذ رزق قتلت كل شيء".

لم تجد عائلته الكبيرة حلًا سوى أن تخطف القاتل والقتيل المفترض في شوالين، جاءوا بهما إلى بيتي في السويس بميدان الأربعين؛ كي أضغط عليه ليسترد شرف العائلة.

أخرجت القاتل والقتيل. أمسكت سكينا لأعطيه للأستاذ حسن والعائلة كلها تحاول تحميس (المخنث). شجعوه كأنها مباراة كرة، يمجدون اللاعب ويسبونه؛ ليعطي أفضل أداء. لا فرار، القتيل أمامه، والعائلة خلفه. يمسك السكين بيد مرتعشة، يبكي: *"أقتله ازاي.. ازاي؟"* آخذ السكين، أغرزه في قلب القتيل وأخرجه ببساطة قائلا: *"كده"*. ثم أعطيه السكين من جديد، القتيل يفرفر والشرف على المحك. يبكي ويغرز السكين مرات ومرات في جسد رجل يموت، في القلب والكبد والرأس والعينين. وسط تهليل الأقارب وحماسهم. لما انتهى الأستاذ حسن، الذي استعاد رجولته، كان ملطخا بالدم بالكامل.

جاءت عربة الشرطة. نزلنا بالأستاذ حسن، وتركنا القتيل حتى تأتي النيابة. رفضنا أن يركب عربة الشرطة. ترجلنا بجوارها مع القاتل، من بيتي إلى القسم في زفة بلدي. مزامير وطبل وأهازيج فرحة. اختل الرجل. ولم يحاكم، ووضع في مشفى للأمراض العقلية. لم يعد ذا فائدة إلا هنا في مصنع ترميم الأجساد. اختطفته وجئت به.

يخرج البضاعة المقيدة من الشوال. أنظر إلى جسد الأستاذ حسن، بعينيه الزائغتين الخاويتين من أي عقل. ثم أقول للحكيم: *"ربما الجنون الملتاع هو الشيء الناقص لأتم عملي"*. يمد مرمم الأجساد يده، يلتقط الجسد المجنون بخفة من يلتقط علبة سجائر. يشتم الجسد، ثم يقول: *"سنرى"*.

يقوم حفار القبور من مجلسه. يلتقط معولا. يضرب ضربتين، ينفتح قبر في الأرض الرملية للمخزن. يلقي فيها الجسد المجنون. يشتعل القبر بالنار. يذوب الجسد، يشتم حفار القبور بخار اللحم المشوي، بينما سيد أبو كرنبة، يصرخ: "أفسدت البضاعة، سأقبض مالي كاملا".

ينتهي الحكيم قائلا: *"لا هذا ليس الشيء الناقص"*. يلتقط جسد سيد، يقبض عليه بيد فولاذية لا تفلته، ثم يلقيه في أتون القبر. أصرخ: *"أفسدت قاتلي المفضل"*. يحترق أبو كرنبة، تهب النار

عالية، ثم تخمد، تخرج روائح ذكية. تشفطها مفرمة اللحم. يقول الحكيم: *"تلك أرواح ألف نفس"*. ساعة كاملة. تنطفئ النار. لا يتبقى شيء من جسد المجنون إلا رماد. أما جسد سيد، فلا تتبقى منه سوى كرنبة حجرية. يلتقطها مرمم الأجساد. يضعها في مفرمة اللحم، يذرو فوقها قليلا من رماد المجنون. يتمتم بكلمات غامضة. تنقلب عينا الحكيم إلى الداخل. ثم يقول: *"هذا أفضل كثيرا، لكن ما زال هناك شيء ناقص"*.

تعود عيناه إلى موضعهما، تنظر إليَّ في ثبات، ثم في اشتهاء أعرفه. هل أنا الشيء الناقص؟ هل ستذبحني يا أبي؟ يده الفولاذية تمتد إلى رقبتي، تقبض عليها لثوان. أرتجف ولا أبكي. لكنه يرخي قبضته، يجذبني إليه، يحتضنني بقوة. أقول: *"هل كنت ستضحي بي لتصنع قربانا كاملا يا أبي؟"*، يضع يده على شفتي برقة لأصمت: *"لا .. لم تكن الشيء الناقص. انس ماحدث. حتى الآلات تخطئ"*.

أرى الدموع تجري من مقلتيه. يسألني ببراءة طفل: *"هل تلك الدموع حقيقية؟"*، أتذوقها، وأومئ بالإيجاب. يضحك فرحا؛ أستطيع البكاء أخيرا. أضحك معه. أبعد ذراعيه عن عنقي بلطف. أتأمله: *"لست غاضبا منك يا أبي، مجرد خطأ .. كلنا نفعل. أنا فرح لأنك تستطيع الآن أن تبكي. لن أستسلم لرغبتك بعدم الرحيل معي إلى الفردوس. ستأتي معي"*.

يقول الحكيم: "*مولانا لن يسمح بهذا، قد يسامح في هروبك. لكني دجاجته الأثيرة. لن يفرط في بيضاتي الذهبية*".

أغادر المكان، أشتهي النوم، ولا يشتهيني النوم.

القصر العالي

1

حلمت بحماي مجددا. كنت سعيدا في بيتي مع ليلى، زين يلهو حولنا، أنا منهمك في العمل، لو ركزت كل طاقتي على إنهاء كل المراكب الورقية التي عليَّ أن أصنعها، فلن أضطر للعمل مجددا. أسعد جادو، كان في غرفة مجاورة، يرتدي عباءته، ولا يكف عن الحديث بحماسة مع ضيوف لا أعرفهم عن أشياء لا أهتم بسماعها أصلا. كان مصدر تشتيتي الوحيد.

يدعوني زين للانضمام إلى جده، لكني أخبره أني قاربت على إنهاء كل شيء، وأن كل ما أحتاجه هو التركيز لقطع المسافة الأخيرة. يلح زين. أقوم من مجلسي فقط لخداع زين وإيهامه أني سأنضم إلى الجد. في ثوان أجد نفسي مطرودا خارج البيت. وحدي

بلا دليل. بيت من طابق واحد كبير ببابين مغلقين. واحد في جهة غرفة جادو يمكن فتحه بسهولة، وآخر في جهة غرفتي. لا أقرب الباب الذي في جهة جادو، ولا أفكر به، رغم أن كل ما أحتاجه كي أدخل البيت من جديد هو أن أطرقه. أتجه مباشرة إلى الباب الذي في جهة غرفتي. فأجده بلا مقبض. أطرقه بلا أمل. لا أحد يفتح. اليأس وحده هو ما يتبقى لي. تظهر ليلى. لا أتخلى عن يأسي، لكنها وحدها تتحلى بالأمل أن الباب سيفتح رغم أنها لا تملك الحل، وتتجاهل معي باب جادو الذي يمكن فتحه بسهولة.

أقوم فزعا. لا أفسر الحلم إلا بشيء واحد. هذا الرجل يكرر دعوته للموت للنهاية. يسد عليَّ كل الأبواب، إلا الباب الذي يفضي إلى غرفته/ قبره. أشعر رغم الفزع بنشاط هائل. سأعمل بجد أكثر، لتعويض ما فاتني، جنازة جادو، الثلاثة ملايين المهدرة في رهان احتلال زاوية النجار. موتك كان مكلفا جدا يا جادو ككل الطقوس.

اليوم سأؤكد موعد رهان نفيسة البيضاء مع هركليز. أفكر في أن الفوز مضمون. هل أكسر قوانيني مرة أخرى وأراهن على هركليز لتعويض الخسارة؟

أتصل بمراد بك لأؤكد موعد الرهان، يخبرني أن نفيسة البيضاء في انتظارنا غدا. لكنه يسألني أسئلة قلقة عن المكان الذي دفنت فيه جثة لويس. *"لقد ظهرت الجثة صباح اليوم.. الدنيا مقلوبة"*. بدا صوته منزعجا. أسأله فزعا: *"لَم سمحت للجثة بالظهور؟"* يقول: *"لم*

أفعل؟ هناك من يتلاعب بنا، لعله جهاز آخر، لقد تم الأمر أسرع من قدرتنا على التوقع، صور الجثة سربت إلى وسائل الإعلام الغربية، ونقلت إلى المشرحة قبل أن أعرف أي شيء عن الأمر، هناك من له مصلحة في ظهورها". *"لقد تسلمتها منك شبه ميتة، لقد مات في الشاحنة، لم أمسه"*. يخبرني أن لا أقلق، وأن كل شيء سيتم تسويته وأن كل ما نحتاجه هو التفكير الهادئ. أؤكد: *"لن أفكر في شيء، لا علاقة لي بالأمر"*. أخبره عن رسالة التهديد التي وصلتني وحذرتني من أن كل شيء سيطفو على السطح. يقول: *"لماذا لم تخبرني؟"*، أجيب: *"أخبرت مولانا، وقال إنه سيتكفل بكل شيء.. لماذا أنا من تصله الرسالة؟.. أنا لم أقتله، لقد أكرمته بدفنه"*.

أقول: *"ربما ليس من المناسب إقامة رهان عبد المولى غدا"*. يرفض: *"لا يمكن تأجيل هذا.. نفيسة ستغضب"*. نفيسة مرة أخرى. لا يمكنني إغضابها، لن تنتهي نقطة ضعفي إلا بمضاجعتها. عبدة كانت ضمن رقيق مولانا، باعها بنفسه قبل ربع قرن لأحد الأثرياء. جمالها الفاتن جعل الثري يتزوجها ويهبها نصف ثروته قبل أن يموت. ثمة إشاعات تقول إنها هي من قتلته بمساعدة مراد بك نفسه. إشاعات تليق بنفيسة البيضاء. لم يكن مراد بك الذي تزوجته بعد أقل من عام من وفاة زوجها قد صار مديرا للأمن يقع تحت سلطته كل شيء. لكنها عرفت فيه طموحًا بلا حد سيساعدها على حماية ثروتها ومضاعفتها.

اختارت تجارة الرقيق السرية والعلنية في درب الأربعين. ودفعت مراد بك بثروتها وحديثها اللبق وجسدها أحيانا إلى منصبه. ساعدها مولانا الذي يوليها رعاية خاصة وحماية. رغم أن علاقتهما كثيرا ما تتأرجح بين المد والجزر. يحترم مولانا جمالها وثقافتها، لكنه يخشى طموحها وتمردها الكامن كما أخبرني: *"لا تثق أبدا في عبد صار سيداء، إنه قاتل ينتظر"*.

لا يعلم الناس عنها إلا أنها واحدة من سيدات المجتمع الراقي، عالية الثقافة والذوق، تساهم في الأعمال الخيرية بكثافة، هناك مستشفيات ومساكن باسمها. بل تتوسط لدى مراد بك للحد من (مظالمه)، وتطلق تصريحات من وقت لآخر تعارض فيها (سياسات) الدولة. مجرد طريقة للي ذراع الحكومة، وتوجيه القوانين لصالح صفقة ما. يستخدم مولانا واجهة نفيسة البيضاء كثيرا.

أنشأت مشروعا كبيرًا أسمته سبيل نفيسة البيضاء. سبيل للماء في أحد ضواحي القاهرة الجديدة، يُصب من نهدين كبيرين مزخرفين بعناية، صُمما كنهديها تماما. رشوت بنفسي عددا كبيرا من الشاربين؛ كي يطلقوا الأساطير عن الماء الذي يشفي من المرض ويخصب العاقر ويحقق الأمنيات. السبيل يعلوه مول تجاري وحمامات ومراكز رياضية للأغنياء تصرف نفيسة بعضا من ريعها على الفقراء والفنانين المستقلين.

تنطلق من أمام السبيل رحلات حج مجانية بقرعة يانصيب الهواتف. قد تتجلى نفيسة أحيانا بنفسها لتختار من بين العابرين محظوظين للحج أو للسكن أو لصدقات تكفي لإقامة مشاريع صغيرة أو سداد دين. لا يحدث هذا كثيرا. تحرص نفيسة أن يكون تجليها نادرا كمعجزة.

تتوالد كل يوم قطعة أرض تُضم إلى سبيل نفيسة البيضاء، ربما بلغ مائة فدان أو يزيد، حتى أنها أعدت بيوتا صغيرة مجانية لتسكين الطالبات المغتربات. لكنها في الحقيقة التي يعرفها الجميع ويجهلها الجميع، هي بيوت دعارة لأثرياء العالم، نساء وفتيات وأطفال وشباب من كل الأعمار يعملون كعبيد للجنس، ويحققون أصعب الرغبات وأحطها. لا نهاية لنفق الشهوة الذي تصرف منه على أعمالها الخيرية. تدعم به منح الدراسة، يستكمل به بناء دور العبادة، ترمم منه البيوت المتهالكة والشوارع التي أكلها الإهمال.

تحت السبيل نفق معقد يفضي إلى إمبابة، حيث يبدأ الطريق السري لدرب الأربعين، حيث لا تكف رحلات جلب الرقيق والقُصَّر والمخدرات والذهب المسروق والسلاح والعمالة الرخيصة من وسط وغرب إفريقيا، لحساب مولانا، الذي يدفع لها مبلغا ضخما لإحياء درب الأربعين. درب الخير والشر، فقديما كان هذا الدرب طريقا للطرق الصوفية والحج، وطريقا لتجارة العبيد.

لا يمتد نفق درب الأربعين من إمبابة إلى إفريقيا، بل ينتهي النفق في أسيوط حيث تتولى العائلات والقبائل حماية إياب وذهاب القوافل من شمال السودان ودارفور وتشاد ومالي، من هجمات قطاع الطرق واللصوص المغامرين.

أفتح حسابي على فيسبوك عبر هاتفي. لويس حديث الجميع. صورته الوسيمة والطيبة تطاردني. التخمينات تتجه إلى أنها طريقة الأمن في التعذيب. أخبار غاضبة في صحف غربية، أخبار منافقة ومحايدة في صحف مصرية. هذا الحدث لن ينطفئ بسهولة.

قتلك من أرسلك يا لويس. ينتشر بيان المانفيستو الشيوعي الذي ألقته جماعة حتمن، مرفقا بصورته مرة، وبصورة ماركس مرات. تتسرب الشائعات القائلة بأن ماركس حي، وأنه مختبئ في مكان ما. لكنها تقابل بتشكيك بالغ.

في المساء، يخبرني مولانا أن زاوية النجار صارت جاهزة للحل النهائي، وأنها استقبلت بالفعل الدفعة الأولى. يرسل لي قوائم عدة بماركسيين مصريين. في الصباح يوقع ستة آلاف كاتب وأكاديمي وفنان من أوروبا بيانا يدين فيه مقتل لويس ويطالبون أجهزة الأمن المصرية بالتحقيق في الواقعة. يخبرني مولانا أن أجهز فرق الاختطاف والاغتيال للموقعين على البيان، يذكرني أن

الأمر يجب أن يتم ببطء لا يقل عن خمس سنوات، وأن (صفوة) العالم، ستساعدني سرا.

لا أحد يدخل زاوية النجار لا أحد يخرج منها تحت حجة التمرد الأخير. لكن كيف ستمحو القرية من ذاكرة من يعرفونها خارج القاهرة يا مولانا؟ يقول: *"لن تصير زاوية النجار بعد الآن. بل روما"*.

2

في الطريق إلى المقطم حيث القصر العالي لا قمر ليضيء. فقط تخيل وجه نفيسة البيضاء يضيء كل شيء. معي عبد المولى مقيد بسلاسل لا فائدة منها. أتخيل أحيانا أنه من يقيد نفسه.

وصلنا إلى أبواب القصر العالي. فتح لنا ثلاثة خدم أفارقة، يرتدون أزياء وعمائم ملونة من القرون الوسطى، اختارتها لهم نفيسة البيضاء بنفسها كي تكتمل الروح المملوكية للقصر. عبرنا إلى الفناء الواسع، حيث بستان ما رأيت في مثل جماله ولا عند مولانا. في الجهة الشرقية هناك جناح للحرملك. من يبني جناحا للحرملك إلا نفيسة البيضاء حيث تحتفظ بخادماتها، تسمح لمراد بك من وقت لآخر أن يتسرى ببعضهن، أعلم أنها تتسرى بهن وببعض العبيد بدورها. مراد بك يحب الغلمان أيضا. هنا لا نهاية للتسامح في تفتح اللذة. ألهذا نفيسة شابة دوما؟ في الخامسة والأربعين من عمرها، وجهها نضر كجسد فتاة في العشرينات، وجسدها غاض بالطراوة واكتمال الأنوثة. أحفظ شكل النهدين من سبيل نفيسة البيضاء. نهدان

مثاليان للعطاء والأخذ. هناك إسطبلات للخيل وغرف للخدم والغلمان والحراس. لن ندخل القصر، بل سندخل قاعات اللهو كما تسميها نفيسة البيضاء. أحب النوافير المنتشرة رائعة الجمال، نوافير تعيد تعريف الماء، المكان في غُسل دائم.

أنظر إلى الحلبة المجهزة في انتظار حضور نفيسة ومراد بك، يقدم لي الخدم مشروبا، ويتجاهلون عبد المولى، فأذهب إلى البار المفتوح وأعد له واحدا بنفسي، أقتنص فاكهة له، لكنه لا يكترث، ساكن كهواء راكد، بعينين مقلوبتين إلى الداخل، يتمتم بأشيائه الخاصة إلى أشباحه، يقول إنهم أطياف أسلافه.

تحدثت معه مرات قليلة، الكلمات تخرج منه بصعوبة، لكني أملك معه من الصبر ما لا أملكه مع سواه. لا أعرف حقا إن كان يحبني أو يكرهني. لكني أعرف أنه يدرك مشاعر الافتتان نحوه، كعملي الأثير. ولد عبدًا ضعيف البنية، وبيع لأنه بلا فائدة. عائلته بأكملها مستعبدة منذ قرون. لقد جعلته في وضع أفضل، اكتشفت جسده الذي لا يقهر، ومنحته الشهرة والمحبة، حتى لو كان ثمنها اختبار الموت والحياة. لم يلن لي إلا عندما اكتشف شيئا: أنت عبد مثلي. صرنا أقرب من يومها، وتفتحت كلماته معي رغم استمرار ندرتها.

ينتمي عبد المولى إلى قبيلة الحراتين المستعبدة سرا وعلنا في موريتانيا، لا حق لهم في التعليم، ولا صوت لهم في السياسة. كان

يُجلد ويُعذب لأخطاء تافهة أو للتسلية. يذكر كيف احترقت أخته الصغيرة، دون أن يملك حق الانتقام أو إبداء الغضب. كانت تذهب كل يوم لتجلب لعائلة الأسياد الماء من البئر، وتجمع الحطب، وتعد لهم الطعام، وتربي الأطفال، وتساعد في زراعة الأرض. أمرها سيدهم ذات يوم أن تغسل الأواني في المطبخ بجوار قنينة غاز أحرقتها. ذهب السيد بها إلى المستشفى، لم يمنحها العلاج، اكتفى بالإسعافات الأولية التي تجعلها فقط صالحة للعودة للعمل مرة أخرى. ثم أمرها أن تذهب مباشرة إلى البئر لإحضار الماء قبل أن تستكمل العلاج، بوجه نصف محروق وجسد مشوه. والده لم يسع أبدا للتحرر؛ فالتحرر من العبودية كان يعني فقرا ومعاناة أكبر، فلا سيد يمنحه الطعام، ولا وظيفة تقبله. أمه وشقيقاته يعملن في رعاية أرض السيد وأطفاله وجمع الحطب من الفجر إلى المغرب. اغتصبن على يد السيد وأولاده عدة مرات. الجلد والسجن والوصول به إلى شفا الموت، أحبطت كل محاولات الغضب. هذا الدرس لم يُنس، ولم يُمح: ليس مسموحا لي أبدا بالغضب. لا يغضب هركليز حقا إلا على الحلبة. وما الحرية سوى أن تمتلك القدرة على الغضب.

يخبرني أن الأسلاف يرشدونه. أي أسلاف يا مولى؟ أسلاف أحرار، لم يستعبدوا يوما. يبذل مجهودا خارقا لاستدعائهم، لا يفرضون حضورهم أبدا، ولا يمسكون بتلابيب الأحياء. مجرد مرشدين للطريق،

يتبدون كأطياف، يطببون جسده من آثار الجراح الثخينة للمصارعة، ويعيدونه إليه سالما، حرا ومعافى.

يأتي مراد بك أولا، وبصحبته رفقة تتأكد أن كل شيء معد جيدا. يتركهم ويحدثني عن تطورات قضية لويس. أدرك القلق في كلماته، يقول: *"لن أكون كبش فداء.. لقد نفذت التعليمات"*. يؤكد أنه أخطأ ببيعه: *"ترددت كثيرا، كان على وشك الموت، لكن مولانا أراده، لهذا استدعيتك تلك الليلة"*. أكان مولانا يعرف من البداية أني كنت سأشتريه وأجلبه إليه، هل كان يعلم أن مراد بك سلمه لي شبه ميت، لألاحق بذنبه؟

أسأله عن أخبار زاوية النجار. يخبرني أن العمل يجري على قدم وساق. في يوم واحد تم تخصيص حارات للماركسيين. صباح اليوم، استطاع مولانا إقامة مخازن كبيرة. لا أعرف أي سحر يستعمله. ضغطة زر من ولده ناجي، ووجدنا المخازن تركب نفسها بنفسها في أقل من ساعة. قمنا بشحن عدد من المختفين الذين نخبئهم لدينا. حصلت على مقابل جيد، وتخلصت من عبء ثقيل، كانت صفقة جيدة، لم يحتج مني مولانا أكثر من هذا، لديه شركته الخاصة للأمن التي ستتعامل مع الأمر، إنهم غريبو الأطوار قليلا، لا يتحدثون، يملكون كلابا شرسة، بدت لي للحظات كلابا آلية، لم أر مثلها حتى في الشرطة. أعينها مخيفة حقا، لا أثر فيها لشيء. وصلت شحنات

أخرى أثناء وجودي، لا أعرف عنها شيئا، يقول ناجي إنها نتاج توقعات آلة شيطان لابلاس، أغلبهم ليسوا ماركسيين، ولم يبدوا لي ثوارا، أنا أعرف الثوار، إنهم شديدو التحذلق ويتعاملون مع اعتقالهم بعادية وتحد، يعرفون أن هذا جزء من الثمن أو تتويج له. واحد ممن أتت به شحنات الحل النهائي كان يقسم أنه يحب الجنرال والدولة، وأنه علم أسرته كلها اتباع تعليماته، وأنه أبلغ عن الكثير من الإرهابيين بينهم ولده، كان يبكي ويصرخ: *"فداء حذائك يا جنرال"*. تعجبت من تلك الحالات، يقول ناجي: *"هذا المنافق ثائر محتمل.. الآلة لا تخطئ"*. أحببت هذا. مشروع عظيم، وناجي ولد ذكي، يليق بأبيه". كاد أن يواصل قصيدة مدح في ناجي. يمهد الأمور لملاطفة وريث مولانا، لكنه سرعان ما تذكر أمر لويس: *"السفالة أن الغرب الآن يتحدث عن مذبحة زاوية النجار المصورة، يتعاطفون مع القتلة المتمسحين بقميص لويس، ويرغبون في تحقيق ومتهم وإدانة واضحة؛ كي يحصلوا على نوم هادئ لا يؤرقه بعوض الضمير، هل كان علينا أن نترك الإرهابيين يحتلون مدينة؟ ألم يرونهم وهم يذبحون رهينة؟"*.

الرائحة الذكية والمثيرة سرت في القاعة، فعلمت أن نفيسة البيضاء قادمة. سألت: *"أين المصارع؟"* أجاب مراد بك: *"اصبرْ على رزقك ياسي رزق"*.

دخلت نفيســـة، فقمنا من مجلسنا، ترتدي فســـتانا رائعا، يزين رقبتهـــا عقد من اللؤلؤ. نظرت إليَّ ثم إلـــى عبد المولى مولية إياه نظرة متفحصة، هل تشتهيه؟ ثم جلست. ساق من خمر، وساق من حليب. جسد لو علوته لانطفئ سحره. إلهة جمال، عينان مشرقتان، تطل منهما رغبة جامحة كبئر بلا نهاية، صدر نافر، خداها مفعمان بحيوية وحمرة. في فمها عسل الحياة، لذة تفيض. العطر يفوح منها أينما ولت، في ابتسامتها لذة الطمأنينة.

خلف أريكتها لوحة بخط عربي جميل من سفر الرؤيا *"الزانية العظيمة الجالسة على المياه الكثيرة، التي زنى معها ملوك الأرض، وسكر سكان الأرض من خمر زناها"*. أشارت لنا بالجلوس ففعلنا. قدمت لها خادمة خمرا في كأس ذهبية، وقدمت لنا خمرا حلوا في كؤوس فضية. مولى رفض أن يشرب، حاولت إقناعه. لكن نفيسة أشارت أن أتركه لمشيئته. تجاهلت سؤالي عن المصارع. الرائحة الذكية تثير قضيبي، جسدها موقد مشتعل بالنار. خفتت الإضاءة، عدا عن وجهها، وانبعثت موسيقى كالخدر، استسلمت لها وللشراب في انتظار العرض.

3

دخل شاب جميل لا يرتدي زي المصارعين، بل قميصًا وجرافت، يحمل حقيبة طُبع عليها شعار سبيل نفيسة البيضاء. أشارت له بالصعود إلى الحلبة. جهزت عبد المولى. صعد بدوره. خلع الشاب ملابسه. صار عاريا تماما. *"جسد جميل"* قالت نفيسة. فقلت: *"هذا جسد يُزنى به لا ليصارع.. سيقتله عبد المولى لو عطس.. لا يمكن إقامة رهان كهذا"*.

لم تعرني نفيسة اهتماما، بل صعدت إلى الحلبة. خلعت فستانها، فصارت عارية تماما. هذا الجسد أجمل مما تخيلته. من الجنة. مراد بك كان يهيئ جلسته لمشاهدة أفضل. بدأ الشاب في تقبيل باطن قدمي نفيسة، ثم تسلل منه إلى فخذها ظاهره وباطنه، حتى دفن رأسه في كسها، كمن يشتم زهورا في بستان ويلحس من جرة عسل ذهبية، لقد ذاب تماما. تمددا على الأرض وفخذاها يحيطان برأسه فلا يُرى. عبد المولى كان يراقب مندهشا. عينا نفيسة تغويانه بالاقتراب. ينظر لي مرتبكا، وأنا عاجز بغيظي. أتمنى لو كنت مدفونا في كسها فلا أخرج. لكني مع الوقت أفكر أني قواد حقيقي بلا غطاء. أشاهد بلا

دعوة للمس جسدها. ألست قوادا يا رزق؟ فلمَ الحزن؟ هي لا تقصد الإساءة، هي لا تراني إلا كسمسار متعة انتهت مهمته. مراد بك يلومني من أجل سكون عبد المولى وارتباكه: أنعتبر هذا انسحابا، ونسجل الانتصار لنفيسة؟

هي المصارع المفاجأة إذنْ، أما هذا الشاب الوسيم فأيضا لا شيء، توابل فوق الوجبة.

عينا نفيسة تبدلتا من إغواء عبد المولى إلى السخرية من عجزه عن الحركة، تتحداه وتهتف: *"كيس صفن فارغ"*. ثم تهمله تماما، تجذب الشاب من شعره، تنقلب على بطنها، يمسكها الشاب يلحس ظهرها قليلا، ثم يغوص بفمه في مؤخرتها ضاغطا، فتنفجر اللذة. شهوة مراد بك ترتفع، كأنه نفيسة والشاب في آن. يفتح سوستة بنطاله ويبدأ في مداعبة قضيبه بلطف.

تحرك عبد المولى أخيرا، لقد عرف عدوه. أزاح الشاب، ووضع قضيبه في مؤخرة نفيسة، لكنها سحبت مؤخرتها واعتدلت. أحاطت وجه عبد المولى بكفين حانيين. لحسته مرتين، مرة بلسان اللطف، ومرة بلسان الشهوة، ثم فني اللطف في الشهوة، والشهوة في اللطف، فلا تميز أحدهما عن الآخر. ثم أشارت إلى الشاب الوسيم، فانضم إلى الحفل مجددا. قال مراد بك: *"الآن، سنحصل على السمو الروحاني"*. يخلع ملابسه، ويصير عاريا، يفرك قضيبه بقوة.

الشاب يُقبّل عبد المولى، وعبد المولى يأكل نهدَي نفيسة. يخر الشاب على قضيب عبد المولى ويمصه، يتأوه هركليز طربا ونشوة، ثم يقلب الشاب على بطنه، ويضعه في مؤخرته. يخرج مراد بك قضيبا صناعيا ويقذفه تجاه نفيسة، تركبه وتضعه في هركليز نفسه. لا يتحرج عبد المولى، لا يتوقف، إنه ضائع تماما. لا نهاية لنفق الشهوة هذا، يقذف عبد المولى مرة تلو مرة تلو مرة، سبعة مرات، ونفيسة ما زالت ندية ومتعرقة، تحتاج للمزيد، مصارع لا يموت، عبد المولى على وشك التهاوي، ونفيسة بلا اكتفاء ولا انتهاء. يمسك مراد بك قضيبي غير المتهيج رغم كل شيء، فأبعد يده غيظا، وأخفي غيظي بادعاء التقزز.

أراه يهم بإمساك سوط، سبقته إليه. كان سيقذفه إلى نفيسة كي تستعر المنافسة. أمسكت السوط وصعدت إلى الحلبة. أتشعرين بي يا بنت المتناكة؟ بجوار أُذن هركليز، جسد نفيسة، كومة الخراء الوسيمة، جعلت السوط يلعق الهواء وأرض الحلبة. أفاق عبد المولى. "*إلى أسفل*" قلت بحسم. ترك كل شيء. اعتدل بصعوبة. كان متعرقا بشدة، قبل أن أتبين أن جسده ينزف. تأرجح، ثم وقع على الأرض. قذف مراد بك، ثم أعلن: "*فازت نفيسة في الرهان*".

كانت نفيسة تنظر إليَّ غاضبة. أزاحت الشاب، اعتدلت، نزلت من على الحلبة، ارتدت ملابسها. بينما أنا منحن على جسد عبد المولى المهزوم.

طلبت من مراد بك أن يساعدني حراسه في نقله إلى الشاحنة لتطبيبه. قالت نفيسة بحسم: *"لن يرحل من هنا"*.. أكملت ارتداء حذائها: *"كيف أفسدت كل شيء أيها الغبي؟!"*. لقد أوقفت قطار لذتها. لكني لا ألتفت لهذيانها. لا يشغلني إلا صنيعة يدي. كل ما يحتاجه عبد المولى هو التنفس، أن يقلب عينيه كي يعالج أسلافه جسده المجروح، لكنه لا يفعل. أتوسل إليه سرا.

تفتح نفيسة جهاز التفاحة المقضومة. أخرج هاتفي لأطلب مساعدة من سائق الشاحنة لنحمل عبد المولى. يطلب مني مراد بك أن أهدأ، يخبرني أن السائق بصحبة حراسه.

تريني نفيسة بهدوء يتعمد إغاظتي عقد رهانها السري مع مولانا. لقد صار هركليز ملكا لها. لماذا تفعل بي ذلك يا نخنوخ الكلب؟! أهاتف مولانا فلا يرد.

شاشة عرض تنطلق. أرى عشرة وجوه من عشر جنسيات. تطلق نفيسة مزادا على عبد المولى. الجسد المسحور، الصالح لأبحاث الخلايا الجذعية. جسد يحمل الخلود، يجدد نفسه بنفسه. كل شيء معد سلفا. تتعمد نفيسة أن أرى المزاد المفتوح على صنيعتي؛ عقابا على إفساد لذتها. تعدد مزاياه ببطء، تعرض صورا له في حلبات مصارعة الموت، وهو يعتصر الحياة من خصومه. تستعرض كل عضلة في جسده.

أتنفس. أهمس في أذنها متشفيا: *"لا قيمة لهذا المزاد. مولى فقد سحره. هذا جسد عادي وكومة خراء، لقد عصرتِ سحره حتى الثمالة. هل تفضلين أن أخبرهم أنا أم تخبرينهم أنت؟ لا قيمة لعقد مولانا.. وحدي أعرف* كيف يستعيد سحره".

تطلب من المزايدين العودة إليها بعد ساعة. يتصاعد الغضب، ثم ينطفئ، فتحل الغواية. تهمس في أذني أنها قد تمنحني ليلة لن أنساها أبدا إن عالجته. تتبدل الكراهية في صدري، ويحل سحر نفيسة وحده. أرفض. لكنها تعرف أنه رفض مائع، رفض رجل على شفا الاستسلام لغواية حلم مؤجل.

"سأحتاج أسبوعا كي يشفى جسده" قلت، كنت أكذب، في الحقيقة كل ما يحتاجه مولى ليلة نوم طويلة ومشروبات دافئة، ربما بعض الخمر. سمحت للسائق بالدخول، ساعدها حراسها في نقله إلى الشاحنة. سحبتني من يدي. انتقلنا معا في عربة صغيرة من مبنى المتعة إلى المبنى الرئيس للقصر، مسافة كافية للتراجع. لكن هذا جسد نفيسة البيضاء يا مولى، كنت تعتليه قبل قليل، قطعا أنت تعرف أي لذة.

على فراش اللذة قالت: *"تذكر.. هركليز ملكي الآن"*. كدت أقول: أنتِ ملكي الآن. لكن الكلمات لم تخرج من فمي. هي من تملكني. أتخيل تلك اللحظة منذ سنوات. لكني الآن لا أعرف حقا ما الذي عليَّ أن أفعله. قَبّلتها كيفما اتفق، رفضت عرضها بأن تضاجعني

بقضيب صناعي، رفضت السوط، رفضت التقييد. فعلتها ببساطة، قبّلتها، عصرت نهديها. أدخلت قضيبي. أفرغت شهوتي سريعا، لقد خدعتني في هذا، لست المخطئ، أعتقد أنها من جعلتني أنهي كل شيء بسرعة كذكر غير مرغوب فيه. نظرت إليَّ بحنان أم رغم كل شيء عندما رأت الخيبة على ملامحي"*لا تحزن*" قالت. تركت لي فرصة لأحتضنها عدة دقائق، أتحسس أثر سحرها فلا أجده. لست حزينا لانقضاء اللذة سريعا، بل للشعور بالدناءة الذي يبطن جسدي. لقد تخليت عن عبد المولى من أجل لا شيء. سيمزقونه إربا للحصول على سر تطبيبه لنفسه.

طلبت مني ارتداء ملابسي والمغادرة. على باب غرفتها، ذكرتني بأن لا هروب من وعد تسليم هركليز. أعلم. لقد خسرته للأبد. أشعر بالموت. لم أكن حيا قط. أذهب بمولى إلى صانع الأجساد. لا يعاتبني على شيء، أحكي له ما حدث، فلا يعاتبني أيضا على شيء. لا يفعل مرمم الأجساد أكثر من أن يمنح جسد مولى أغذية موصوفة في (رجوع الشيخ إلى صباه)؛ فقط كي يستعيد قدرته على التنفس والاتصال بأسلافه. أتركه لعمله وأسير بلا هدى. أفكر في أن تركه للموت كان أفضل من تسليمه لنفيسة. الدناءة؟ لا أشعر معها بالموت بل الحياة. لم أكن ميتا قط. هذا هو الرعب.

تراب وذهب

1

حلت الكارثة. لم أفق من سكر الدناءة وخسارة عبد المولى، حتى اكتشفت ضياع خبيئتي من النمكوين وثروتي المؤجلة في أرض Silk road. سرقت كلها على يد هاكرز. تركوا لي رسالة تعلن عن هويتهم: *"جماعة حتمن.. انتقاما للويس"*. لم تعلن تلك الهوية إلا كي يدوي حريق الانتقام كفضيحة. لم أقتل أحدا. اتصلت بشبكة مرمم الأجساد، لقد أمن الكنز جيدا ضد السرقات المحتملة. كيف سرقوني؟ صرخت فيه كمجنون وكابن عاق. حاول أن يلطف من فجيعتي: *"سأتعقب السارقين.. لن يفلتوا بهذا"*، أعلم أنه غير واثق مما يقول. كيف تأمن لحاسوب طور حسا بشريا، فطور معه النقص والكذب واحتمالات الخطأ؟!

لم يعد لديَّ سوى مخازني الخمسة، حس القلب المغدور قادني لتفقدها، لا يعلم أحد بشأنها سوى الحكيم. بدأت بمنزلي. لا شيء. المخزن فارغ. لقد سرق أثناء وجودي في قصر نفيسة. لم يتركوا شيئا. لا أشعر بشيء لا حزن ولا يأس. صدري كبئر خاويةٍ. تمسكت بأمل المخازن الأربعة الباقية، اتصلت بالحكيم أخبرته بما حدث، طلبت منه أن يخبئ عبد المولى وليزا وعظمة فانجا بعيدا عن مصنع ترميم الأجساد، قد يكونون آخر آمالي. ذهبت إلى المخزن الثاني. سرق. تمسكت بالأمل في المخازن الثلاثة الباقية. الثالث. لا شيء. في الطريق رأيت إعلانا، صورا متحركة للكولوسيوم الروماني، هدير الجماهير يختلط فيها مع زئير وحوش تفترس أجسادا. كان شعار الإعلان: *(مصر هي روما)*. تتبدل عليها صورة لشخص في منزله يشاهد كل شيء عبر نظارة افتراضية. المخزن الرابع سرق أيضا. تماسكت وأوهمت نفسي أن الأخير سينجو. أنا أستحق النجاة.

لا لشيء إلا لحدس غريزة البقاء. طلبت من مرمم الأجساد أن يخفي فريد العطار والطفل الصيني أيضا. وصلت إلى المخزن الأخير. على باب المخزن المفتوح والخاوي لطمت خدي، حثوت التراب على وجهي، لذت بعويل الفجيعة، عويل طويل ونواح يريح القلب ويمزقه.

يا حتمن *يا أولاد ماركس الكلب* هل استرجعتم لويس؟ أي لعنة. دم يطارد أقرب حلقاته ويعمى عن قتلته الحقيقيين. قميص العدالة، قميص الكذب. ثروة مولانا لم تمس، ومراد بك الخائف في منصبه. لا أملك شهيدا سواي لأتخفى فيه.

أفكر في الذهاب لمولانا. هل يرحمني؟ أقبل قدميه كأب وكسيدا! أبكي، أتوسل، أذكره بأي شيء قد يلين له قلبه، أن يمنحني عتقي، مكافأة للتقاعد المبكر؟

اللطمية الدائرة في عقلي لن تُبكيه، ستضحكه. ولن يلين قلبه بالضحك. لا يؤمن مولانا إلا بالصفقة. حتى محبته لناجي ولده الأثير الشرعي ليست إلا صفقة. ابن الكمال. يمنحه الشباب ويجدد تصلب شرايينه وأفكاره. يا مولانا. لقد سرقوا خبيئة عمري فداء لك. ألا تجردني خسارة كل شيء من النقص. ألا يقربني تجردي من الكمال؟

يغيم العالم وأنا أقف أمام مخزني الأخير والخاوي، أصرخ. سمعت صوت نباح. ثم رأيت كلابا تعدو نحوي، ثم أدركت أنها ليست كلابا بل رجال شرطة. وضعوا في يدي الأصفاد. ركبت معهم، واتجهنا إلى مديرية الأمن. تبينت وجه أمين الشرطة نفسه، يعمل لدى الجميع. كيف عرفوا أني أمام مخزني الأخير؟ سألتهم عن سبب الاعتقال. لم يجيبوا. عندما علمت أني في الطريق إلى

مديرية الأمن التي يحكمها مراد بك، فكرت أنها قد تكون الطريقة المعتادة لشراء بضاعة. لا أملك القوة لفعل أي شيء. استسلمت تماما، شل عقلي حتى عن التفكير في فداحة الخسارة.

على غير العادة، لم يصطحبني أمين الشرطة إلى أعلى حيث مكتب مراد بك. بل اقتدت بعنف إلى غرفة مظلمة وعفنة أسفل الأرض. صرخت: "*ستدفعون ثمن هذا.. مولانا لا يرحم.. لا يغفر ولا يرحم*". لم يرد عليَّ أحد. تعبت، استعدت ابن الشارع القادر على النوم في صفيحة قمامة. تركت النوم يأتي. لم يفلت جادو عادته في اختلاس مناماتي. لكنه كان أكثر رقة تلك المرة، كان مضطجعا على سرير مرتديا عباءته. لحيته كانت نابتة قليلا، وجهه كان مرهقا، كنت أجلس عند قدميه. أستمع لحديثه: "*وحدك ترى ما لا يراه الآخرون*"، ثم أخرج ورقة خضراء، ليشرح فكرته: "*كل من يرى تلك الورقة يظنها ورقة عادية، لكنك وحدك تدرك أنها الورقة الذكية لورق العنب.. من يقدر طعامة ورق العنب في هذه الأيام.. طعام أهل الجنة*".. بدا حديثا منمقا وعميقا في الحلم، لكن ما إن أفقت، حتى أدركت أنه كان محض هراء. أذكر أني احتضنته بشدة في الحلم. كان حضنه دافئا، حتى أني اعتذرت له ضمن هراءات المنام عن كل الأيام التي مرت دون أن أذوق حضنا دافئا كهذا. لم يفارقني الأثر المواسي لحضن رجل ميت عندما أفقت على دخول أمين الشرطة. سحبني إلى مكتب. وجدت مراد بك. صرخت فيه:

"تلك المزحة لن تمر مرور الكرام. مولانا لن يغفر لك إهانة ولده". لا أعرف لمَ قلتها. لا يعرف أحد أني ابن مولانا. ماذا لو علم أني تفوهت بشيء كهذا؟ لم يهتم مراد بك بتهديداتي وأنكر علي ادعائي أبوة مولانا، صفعني. قال: *"تلك من أجل إغضاب نفيسة"*. ثم ركلني في خصيتي. ثم قال: *"وتلك من أجل خداعها"*. حاولت أن أكتم الألم، تمالكت أنفاسي وسألت: *"ألهذا أنا هنا؟ من أجل كس نفيسة"*. سببته: *"راجل عرص"*. ثم بصقت في وجهه. صفعني مرة أخرى بقوة. رددت باستعراض: *"على الأقل أنا شخص مهم للدرجة التي تجعلك تفعل هذا بنفسك"*.

اقترب مراد بك من أذني، همس فيها كفتاة لعوب: *"ستدفع ثمن كل شيء. حتى فاتورة مقتل لويس"*. صرخت: *"لم يقتله سواك.. لم أفعل شيئا"*. أعادني أمين الشرطة إلى الزنزانة المظلمة. جردني من ملابسي، قذف لي بطانية قذرة. تلحفت بها من البرد. أكلني القمل. لم أحصل على النوم. أسمع أصوات التعذيب من حولي، فلا أتحمل، أصرخ باسم مولانا: *"يا أبي. يا أبي. نجني. لن تقبل بهلاك ولدك"*. لكن ما يعذبني حقا أني أعرف أن مراد بك أجبن من أن يعاديه. وجودي هنا لم يتم إلا برضاه. أو لعل نهايته اقتربت أيضا وحصل مراد بك على أوامر جديدة من متسيد آخر. لو حدث، فقد يكون مولانا قريبا في زنزانة. تخيلت لو أن صدفة سعيدة تشبه الرحمة جعلته معي في زنزانة واحدة. سيضطر معها إلى رفقتي.

سيكتشف محبتي. خاطر أبله. لكنه كان عزاء جيدا في ظلمة بطن الحوت تلك. مولانا أقوى من أن يُهزم. نفوذه يسري في كل شيء. مشاريعه، مصانعه، أفكاره تحيي وتميت. تعيش من خيره آلاف الأسر. قصره في الصحراء، كقصر البارون إمبان باني مصر الجديدة، سيحيل المنطقة إلى جنة عدن، سيصل إليها المترو وستنشأ حولها المحلات والمصانع والكباري، ستصل المياه الحلوة والكهرباء، ستعبد الطرق، ستعلو المساكن، وتنبت الحدائق كبساتين الجنة. لا يمكن لهم أن يقطعوا شريان الحياة. سيأتي مولانا. سيعلم مكاني في النهاية، وينجيني من بطن الحوت إلى كف محبته. سينتقم من مراد بك. رغم كل شيء، أوقن أنه في باطنه، ربما في منطقة مغلقة في عقله وروحه، يحبني. محبة الأبوة، هبة لا اختيار. حتى لو كنت نقصا لا كمالا. فأنا نقص من صلبه، وزين ضمانة مني بامتداده. لن يقبل أن أهان على يد حثالة.

2

مرت ثلاثة أيام وأنا أقلب الاحتمالات، لا شيء سوى أصوات تعذيب تدفعني إلى الجنون. لم يأت أحد. يمرر لي رغيف عيش عفن، آكله كي تستمر حياتي. لا أعلم إن خرجت من هنا فهل أملك القدرة على استعادة روحي التي خبأتها عن الصخب. أي وهم؟ أي روح؟ روحي انغمست للنهاية في كل خطيئة، روحي تشربت الدناءة فصارت هي. لم أقتل لويس، قتلت لويس، لم أقتله، قتلته، لم، بل، فعلت، لم أفعل. كبندول الساعة تملأ الإجابات رأسي، فلا أعرف نفسي في أيهما.

في اليوم الرابع، اعتدت على أصوات التعذيب، صارت تسليني. في اليوم الخامس، بدأت في تمييزها ومعرفة نوع التعذيب الذي تعرض له صاحب التأوه، بدأت في تسمية الأصوات. في اليوم السادس، عرفت أي أرواح تستحق أجسادًا أفضل، وأيها ستقبع في الجحيم إلى الأبد.

ذلك الصوت الذي دعوته (سامي)، كان قويا جدا عندما ميزته،

يتأوه كالآخرين بأصوات تمزق القلب، لكن مع إرهاف السمع، تعرف أن قوته في إنكاره للجحيم، في أنه ليس مدانا من الأساس رغم كل شيء، لكن الصوت تبدل، انهار، التأوهات التي صدرت منه صارت تحمل قناعة أنها تستحق هذا.

في اليوم السابع، توقف البندول في رأسي عن الدق على إجابة واحدة. لقد قتلت لويس، سرقت مولانا، خدعت نفيسة، قتلت ألف نفس أو يزيد يدًا بيد مع سيد أبو كرنبة، سهلت الدعارة، بعت الأجساد، وأهلكت الزرع، وأفسدت النسل.

فتح الباب مع توقف البندول على الإجابة القاتلة. ثلاثة زبانية أستحقهم تماما وبصحبتهم ضابط وسيم الطلعة، كالوا لي السباب والضرب، لا أملك حيلة كي لا تُشتم أمي، لن أدافع عنها، قديسة كانت أو بنت متناكة، لم يكن وجودها إلا صدفة تعيسة؛ كي تنجو نطفة مولانا التي ظن أنه قذفها في مرحاض.

جردوني من ملابسي، وأحكموا تقييدي من الخلف، صعقوني بالكهرباء في كل مكان في جسدي، ركزوا على خصيتي. الضابط وسيم الطلعة، رقيق القلب أيضا، ينظر إليَّ كأنه لا يرضى عن كل هذا، يضاعف بادعاء التعاطف ألمي. دخل ضابط آخر وثلاثة زبانية آخرون، فضوعف الضرب على وجهي وقفاي باليد والحذاء. الضابط الثاني كان متصالحا مع ذاته تماما، أحببته، فهو لا يدعي

شيئا، يضرب بحقد حقيقي وبغل لا يخرج إلا من قلب فسد بالكامل، فصار صالحا بألفته مع ما يفعله. سلطت على عيني إضاءة شديدة، لم تنقطع ليلا أو نهارا. يخرجون ويدخلون من أجل استكمال حفل التعذيب، ثم تجاهلت عد الأيام. أقف على قدمي أربعين ساعة، جسدي يتحمل كل شيء. أرغب في المزيد، أنا مدان، هذا مستحق. لا نجاة لي من العذاب، حتى لو خرجت من هنا حيا. أين أنت يا مولانا؟ في غرفة بجواري، أم في سرداب قصرك تضاجع أطفالا، وتصبح طفلا بين يدي نورا. لو كانت أمي في ذكاء تلك الطفلة، لنجوتُ. يهددوني بالاعتداء الجنسي، فأجهز دبري، ولا يفعلون. الجرب يتسلل إلى جسدي. سمحوا لي بالاستحمام دقيقتين بلا صابون، كانت المياه فيها كنهر تفتح في الجنة. لكن عذابي الحقيقي كان رغبة تحرق روحي للتدخين، لم تطفئها أيام انقطاعه.

ثم فتح التحقيق أخيرا. فعلها الضابط مدعي الرقة، أعطاني سيجارة، التهمتها، وطلبت أخرى فأعطاني علبته. كان شديد الدماثة واللطف، حتى أني وددت لو ضاجعته. دماثته كانت تثير جنوني. لست في حاجة لادعاء أبله كهذا. من السؤال الأول أجبت: *"قتلته، عذبته أولا، صعقت خصيتيه، كهربت جسده، حطمت أسنانه، لم أطق نظرة الكرامة في عينيه، لم تنطفئ تلك النظرة إلا بموته. سيذهب إلى الفردوس لو كان هناك واحدٌ، لقد نجا، وتركني في الجحيم. لو عاد، لكررت فعلتي مرة أخرى. لا يمكن أن نغفر*

لشخص ينجو عبر كبريائه حتى لو دفع من أمامه إلى عذاب أبدي. طالبو الجنة محض أنانيين، القديسون خونة الناس الحقيقيون".

اندهش الضابط من سرعة اعترافي بشيء يعرف كلانا أني مجرد كبش فداء فيه. وأن القاتل الحقيقي فوقنا بعدة أدوار. لملم أوراقه متحسرا على ساعات كان سيقضيها في اللعب والغواية والإجبار، أنهيتها سريعا. وقعت على ورقة اعترافي قائلا: *"كنت أفضل أن أوقعها بدمي"*. مزحتي عرت ادعاء الضابط، فتخلى عن رقته المدعاة، وكال لي عدة لكمات. سبني بأمي. لكني لا أهتم. كل الأمهات متناكات، حتى أمك، سبابك بلا قيمة، لو لم يكنَّ كذلك، فكيف يأتين بحقير مثلك ومثلي؟!

تركوني على الأرض. جسدي رائع. لقد تحمل كل هذا.

لا أعرف كم من الوقت مر، قبل أن ينفتح الباب ليجروني جرا إلى مكتب نظيف، رأيت مولانا في صحبة الضابط الصالح قلبه بألفة القسوة. كان الضابط يتملقه، فعرفت أنه ما زال قويا، كسريان الكهرباء في جسد العالم. فك الضابط الكلابش. استجمعت جسدي المهدور، هرولت بين ذراعيه، احتضنته، وبكيت. أشار مولانا للضابط، فخرج. أبعدني من بين ذراعيه، جلس على الكرسي. انتظر حتى توقفت عن البكاء. قال مولانا: *"ستخرج، وستستعيد خبئيتك التي سرقت من المخازن وأموالك التي قرصنت، أقصد التي اختلستها،*

أتظن أني لم أكن أعرف أين تخبئ ما تسرقه؟ سأنجيك أيضا من توقيعك على اعتراف قتل لويس".

انكببت على قدمه لأقبلها. قدم أبي لا قدم سيدي: *"اغفر لي يا أبي"*. قال بحنان انتظرته طويلا: *"سأفعل"*. لكنه أردف: *"لكن ثمة شيء عليك أن تعرفه، لا يمكنك العمل معي أو حولي ثانية"*. أخرج هاتفه، أطلعني على عناوين صحف أجنبية تضع صورتي وتحتها قصص صحفية وتقارير عن رهانات الموت السرية في مصر، ومطالبات للحكومة المصرية بالتدخل وإيقاف اللعبة. سموني عراب الموت. قال مولانا: *"اسم أكبر من أفعالك.. أعلم.. لكنك صرت ورقة محروقة الآن"*.

طلب لي ملابس نظيفة. جاءت سريعا. عندما هممنا بمغادرة المديرية. قال: *"استرخ. واستعد عافيتك، اقض وقتا أطول مع ولدك. وسأستدعيك. لأعرض عليك مهمة أخيرة. لا أحد سواك الآن يصلح لها. إن وافقت، سأعيد إليك كل ما سرقته مني"*. وضع ظرف نقود في جيبي، فلم أعده.

همَّ بتركي، حتى انتبهت إلى السؤال البديهي الذي كان عليَّ أن أطرحه: *"هل أنت من سرقتني يا مولانا؟ أنت من دبرت كل هذا، ودفعتني للموت في زنزانة عفنة؟"* رد بغضب: *"تقصد استعادة ما سرقته. لا تنس أنك مدين لي أيضا بثلاثة ملايين أخرى في رهان زاوية النجار"*.

لذت بالصمت، لا قيمة لي يا مولانا. هكذا سهل عليك دهسي. لا شيء أمثله لك، ولا أمل في حنان أو أبوة. لا ترى فيّ إلا صفقة أخيرة. سألني إلى أين سأتجه؟ قلت: *"لا أملك مكانا إلا عند الحاجة ميمي"*. أخرجت ظرف النقود، عددتها سريعا، ثلاثة آلاف جنيه، قلت ساخرا: *"كنت أعرف أنك ستكون سخيا في مكافآة التقاعد المبكر"*. أشاح بوجهه، وغادر.

3

أصابني صمم. لا أعرف إن كان مؤقتا أو دائما. قدماي تحملاني بصعوبة. سكون الصمت يلف كل حركة. وقفت كأبله أتأمل الشارع الرئيس خارج المديرية في صخبه الصامت. أرى دماء تسيل من النوافذ. أشباح الموتى المغدورين تعود لتظهر لكنها تضحكني، لا يمكنني التعاطف مع فم مفتوح لا يخرج منه إلا عويل صامت. الأذن سر كل بلاء. اليمنى لملاك، واليسرى لشيطان. والهمس يمزق الجسد ويجرح الروح.

أكشاك السجائر المنصوبة أراها مسالخ بشرية، الذباب يحوم، والجرذان مستعدة للانقضاض على كل شيء. في السكون والصمت، تبدو كل حركات العالم مضحكة، والشجارات هزلية. حناجر تصرخ في الهواء، يتغزل رجل في جسد أنثى محركا فمه بلا كلمات. العالم ينيك ويجري. ولا شيء في النهاية، سوى أرواح مهدورة تسير على قدمين، تتحمل قسرا الخير والشر، طوفان من البشر لا يحمل أي سر، أي ميزة، سوى إدارة ماكينة كبيرة تنتج اللا شيء.

كيف كان الرجل يصطاد أنثاه قبل الكلمات؟ لا فائدة للرجال،

سوى حمل اللعنة، إنتاج النقص، إهدار الطبيعة. في المستقبل -ربما- سيحصل كروموسوم إكس على انتصاره كاملا في معركته الأزلية مع المتطفل واي. العقم سيحاصر الرجال. عالم سحاقي، أفضل من عالم مهدور. فلتنقذ سلالة نفيسة البيضاء البشرية، ولو بالانقسام على نفسها إلى ما لا نهاية، من ريع الشهوات ستُخفي الفقر وتنبت الأشجار، لن تعرف السلاح، ولن يسيل الدم من النوافذ. أسب الحكيم الذي حولني إلى كيس صفن للمعرفة، إلى استمنائها بلا عائد. المعرفة لا شيء. والعالم كيس صفن الأرواح المهدورة. عويلها كان الحقيقة الوحيدة التي هربت منها.

أشعر بسخونة رأسي، ويعضني ككلب شرس ألم خصيتي المكهربتين. لا أطيق الملابس على جسدي الذي تصعد منه حرارة شديدة، أسأدفع وحدي ثمن ذوبان القطبين؟ أخلع قميصي في الشارع وأصرخ بكلمات لا أسمعها بكلمات رفيق لعنتي الأبدية، رامبو: *"للبيع، ما لم يبعه اليهود، ما لم تذقه جريمة ولا نبالة، ما يجهله الحب الملعون ونزاهة الجماهير الجهنمية، ما لا يقدر أن يعرفه لا الزمن ولا العلم. الأصوات وقد رممت، اليقظة المتآخية لجميع الطاقات الإنشادية والأوركسترالية وتطبيقاتها الفورية، مناسبة فريدة لإطلاق حواسنا!*

للبيع أجساد لا تثمن، خارج جميع الأعراق والسلالات والعوالم

والأجناس! للبيع الثروات تنبثق في كل خطوة! تصفية الماسات بلا فحص! للبيع، الفوضى للجماهير! وإشــباع الرغائب الذي لا يقهر لكبار الهواة، والموت كأفظع ما يكون للأوفياء والعشاق!

للبيع المســاكن والهجرات، صنوف الرياضة والاستعراضات العجائبية والرفاهيات الكاملة، وما ينشــأ عنها من صخب وحركة ومستقبل!

للبيع الأجساد والأصوات والرغد الشاسع الذي لا يحتمل التساؤل، مــا لن يباع أبدا. ولم يفرغ الباعة من التصفية بعد! ولا على الباعة المسافرين أن يستعجلوا تسديد عمولتهم".

مــارة يضحكون على المجنون العاري الذي يصرخ بكلمات لا يسمعها. الأسنان الخربة والأفواه المتسعة بضحك بلا صوت، تشبه العويل. عويل قابض قادر على نزع الروح من الحلق.

فقدت الوعي. ثم وجدتني في بيت ليلى، على ســرير جادو وقد عاد إليَّ ســمعي. رأيت وجهها خائفا، محبا، عاشقا. زين يلهو. لم يكن حلما. مدثر بعبــاءة جادو. عرفت منها أن المارة اتصلوا بها؛ لأنهم لم يجدوا اسما مســجلا على هاتفي يحمل صلة قرابة، سوى (مراتي). لم أغيره أبدا، لســتِ زوجة أحد سواي. أي ظلم يا ليلى، لم أكن فظا أبدا، أنا رومانســي حد الفجاجة وتفاهة المحبين، مبتذل كأفضل مائة رسالة غرام.

تدخل فردوس بطبق شوربة ودجاجة مسلوقة. أدركت بخبرتها في التمريض أني عُذبت. انتظرت حتى أفيق لتسألني إن كان علينا أن نذهب للقسم لتحرير محضر بآثار الكدمات في وجهي وجسدي. أجبت بالنفي. سارة وجيهان شقيقتا ليلى، ملاكان يتعاطفان معي حقا. رائحة الغفران يا ليلى، أم شفقة على الجسد المحطم؟ كم مرة عليَّ أن أرى الموت كي يلين قلبك؟

يدخل عليَّ الشقيق الأصغر، ملامحه تحاول ادعاء الغضب من وجودي في غرفة نوم مع ليلى. أتفهم تماما محاولته البائسة لإدراك ذكورته المفقودة.

سرعان ما يخرج الجميع في تواطؤ عدا ليلى. حتى زين سحبوه للعب في الخارج، أخبروني أنه بكى فزعا عندما دخلت بجسد محطم فاقد الوعي. أضغط على يدها، فأشعر باستجابة اللمسة الأولى في أيامنا الخوالي قبل أن نعترف لبعضنا بالمحبة، لمسة مرتعشة، متشككة، تحاول التيقن أن الجسدين في غرام، وأن تلاطفهما سيكون يسيرا. لكنها تفلت يدها سريعا، وتستعيد الوجه الصارم. تنتبه لخروج الجميع فتبدي غضبا من خروجهم، أستشعر زيف هذا الغضب وأنه يخفي حرجا ورغبة في البقاء بجواري. أخبرها أني أرغب في الرحيل الآن. ليس من اللائق أن أكون هنا. *"الشوربة هتبرد"*. فعل أمر ليلى، لا يصدر أبدا كأمر. أرد الحساء بعناد طفولي لا يرغب إلا

في إثارة غيظها المحبب للنفس، تماما كأيامنا الخوالي في فردوس الغفران والحب والجنس الشهي.

ليلى ظهرت في حياتي كالنسيم. حتى أني لم ألحظ وجودها في البداية، ثم تسربت فصارت دمي. كانت تتشبه بالذكور، *"رجل أبي"*، تقول. حتى جئت ففككت طلسم اللعنة، وجعلت الأنوثة مشرقة كشمس تسيل بخمر صافية. *"صرت أضعف، أخشى كل شيء"* تقول. "أكثر رقة تقصدين يا ليلى. كيف التقينا؟ كنا كالرومي وشمس التبريزي، رامبو وفيرلين. عدا أني طمست وهم ذكورتك المدعاة. أنتِ أنثى كاملة، خالصة، بلا مواربة وبلا ادعاءات. تجربين لعب الكرة وحمل المطاوي، لكن هذا لم يجعل لك فكا أعرض وصوتا أكثر خشونة، تخرجين برفقة الصبية تحملين جنزيرا لعراك محتمل، تخوضين الحياة بذراع القوة، تظنين أن عالم الذكورة عالم صاف من الصراحة والنزاهة والفروسية، بلا قائمة محرمات. حسنا المحرمات للجميع، لائحتها أطول بالنسبة لأنثى، لكن ما أدراكِ أي شيء يعني أن يصير المرء رجلا في عالم لا مكان فيه إلا لحيل النساء، لم يعد أي شيء يعتمد على القوة، القوة للأغبياء. هذا عالم كامل من الغواية، لعبة الأنثى الأصيلة. إذا لم يصبح الرجل أكثر أنوثة، فلا مكان له تحت الشمس. إذا لم يتحل بالقدرة على الانسحاق والتكيف فلن يتحرر، بل سيقتل كلويس. أتدرين؟ نظرة الكبرياء في عينيه، تشبه النظرة ذاتها في عينيك. إنه الجوهر الذي يجذبك لعالم كالرجال، كنت

تعتقدين -واهمة- أنهم يملكون حق الاحتفاظ بالكبرياء في أعينهم. هذا ما سحقه جادو في عينيه؛ كي يظل محتفظا به في عينيك".

سألتني: *"ماذا حدث؟"*، فقلت: *"أتذكرين كيف وقعنا في الحب؟"*. ألمح شبح ابتسامة مرهقة. تتشبثين بالصمت.

كنتِ تعملين في أحد مصانع مولانا لتدوير المخلفات الإلكترونية، تحديدا في الفرع الذي قررت أن يكون كل إنتاجه من نصيبي؛ لذا كنت أوليه اهتماما خاصا، أستخرج منه سبائك الذهب والفضة والماس، كنت مستجدة نشطة. عرفت أنك من عائلة جادو، عائلة أمي، فأثرتِ اهتمامي. رقيّتك من قسم الفرز لتشرفي على العمال. كنتِ طموحة في متاهة، ترغبين في أن تنهي عصرا من التقلب ككوافير حريمي، في مهنة لم تعد لك فيها السيادة مع والدك. تتحدثين باهتمام عن كل مشاريع الثراء السريع والأبله. أوهام عيش الغراب، بطاريات الأرانب. كنتِ تظنين أن بعملك في مصنع تدوير الخراء الإلكتروني، أن بإمكانك إنتاجها في منزلك. كنت أعرف أنك تسرقين بعض الأجهزة صغيرة الحجم. تظنين أن فرن بوتاجاز منزلك قد يستخرج الكنز. عندما ضبطتك، أثارتني نظرة الكبرياء تلك. لم أشعر بالحب، لكن بالاستفزاز، كلص كبير ضبط لصا صغيرا في منطقته، خجلة، لكن رغم كل شيء لا يكسرك أمامي الذنب. أو ربما إكراما لعائلة أمي التي لا أعرف عنها شيئا.

أخبرتك أن هذا عمل لا يصلح للمنزل. ربما تستخرجين بعد عناء شديد ما يصلح لقرط صغير. تراب لا ذهب. تلوت عليك ما قاله الرومي لشمس: *"وكل الأرواح الطيبة صارت أسيرة للتراب"*، لم أتل عليك النصف الثاني من البيت: *"والعشق صب الذهب، حتى يحرر الأسرى"*. كنت سأطردك، لا أعرف لِمَ لم أفعل. صرنا نتحدث كل يوم، عن العائلة، عن الهراء، عن الهموم، عن الخيبات، عن المستقبل، عن طرق أفضل للسرقة، ولم أقع في هواك.

صرنا نخرج أحيانا معا. نتمشى في شوارع بلا هدى، نأكل، نضحك، أخبرك عن مغامرات عاطفية خائبة، عن محاولاتي الفاشلة لأصبح زير نساء، ولم أقع في هواك. تحدثينني عن العراق، الفردوس القديم وتقعين في هواي. لا أدرك إلا أن شيئًا في الهواء بيننا، يجعل كل شيء أسهل، يجعلني مضحكا، جسدا فاتنا، لا أرى نقصاني رغم أني لا أرى كمالك.

أخبرتك بأمر أخواتي البنـــات، العويل المفاجئ لإيجاد الرزق. لـــم أخبرك عن أبي حفار القبور. عندمـــا أخبرتك بأني ابن نخنوخ الهـــواري، أدركت أني واقع في هواك منـــذ اللحظة الأولى، فعلى عكس ما ظننت، لم تكذبيني.

"ما الذي حدث؟" تكررين ســـؤالك، تلتقطيـــن يدي كمن تلتقط حبة فاكهة بأريحية. فأخبرك: *"لقد خسرت كل شيء"*. أقص عليك

كل مـــا لم أبح به من قبل، القوادة، النخاســـة، رهانات الموت، كل القاذورات المبـــررة بفردوس يبتعد بنا عن الصخب ودوائر الحياة والموت. أخبرك عن رؤيتي لجادو يلهو مرحا مع بنات مولانا السبع، رعبـــي من دعوته الدائمة لي بالموت. أخبرك بأمر لويس، رغبتي في نفيسة البيضاء، الليلة التي قضيتها معها في مقايضة بائسة على عبد المولى، حفلات التعذيب في مديرية الأمن، سرقة مخازني على يد مولانا، سرقتي له.

"أتغفرين؟". تقولين بوجه جامد: *"سأعيد تسخين الطعام. انتهِ منه وارحل"*. *أمسك يدك بقوة. تفلتينها. أقوم من مكاني. أحتضنك، أقبِّلك. تشتهينني كالحياة، لكنها تفر مني الآن كأني طاعون. أجد ملابس جديدة على مقاسي، فهمت أنك اشتريتها لي. أخرج من الغرفة، لا أحد في الصالة، الأم في غرفة تصلي وتبكي من أجل جادو، زين في رفقة عليَّ. جيهان وليلى في المطبخ. سارة في العمل. أتسلل إلى الباب، أغلقه ورائي دون وداع أو شكر لأحد. "واعلم أن العشق الدنيوي لا قرار فيه، وانظر إلى ألف عاشق، مسلوب الروح بلا قرار"*.

الفصل الثالث

التيه

درب الأربعين

1

لا يوجد طريقة أدق لشرح الأمر، بيت ليلى اختفى، العمارة بأكملها تبدلت بواحدة بطوابق أكثر، ومدخلها أكثر اتساعا ونظافة. لا أدري. فجأة، كنت أنظر ورائي لأستدل على طريق الخروج من الحارة إلى الشارع الرئيسي. دائما ما كنت أضل الطريق إلى هناك، كأن عقلي يرفض أن يذهب إلى بيت جادو.

فسرت الأمر على أنه التيه المعتاد. اتصلت بها، الرقم الذي أحفظه عن ظهر قلب غير موجود بالخدمة. لا وجود لها على الفيسبوك. هل أغلقت صفحتها؟

صعدت إلى الطابق الرابع في العمارة الأكبر، ضغطت الجرس،

فتحت لي سيدة عجوز في الستين، لا تعرف أحدا يدعى أسعد جادو. فعدت إلى الطريق أعتصر ذاكرتي لأجد العلامات المميزة، كالميدان الواسع، محل الكشري الشهير، المقهى الذي يقدم مشروبات سيئة غالية الثمن. لم أعثر على شيء.

أنا متعب، لا أكثر ولا أقل، لا يعقل أن يختفي بيت ليلى بعد دقائق من خروجي منه، عاد الألم ناطحا جسدي مجددا. أثاث يلقى من كل الشرفات، صراخ زجاج مكسور، أريكة هبطت فوق رأسي، ثم انفثأت كفقاعة ملونة حين مددت إصبعي، فعلمت أن هذياني ما زال طازجا، لم يفلح تطبيب فردوس، ربما كان عليَّ أن أشرب الحساء.

اختفت النقوٌد التي تركها لي مولانا، لم أنسها في بيت ليلى، لم أكن لأفعل وهي آخر ما أملك، تأكدت من وجودها قبل أن أغادر.

على قدمي سرت. أحمق وسط حمقى، تائه وسط تائهين، جائع وسط جوعى. بدت دجاجة فردوس التي لم أمسها شهية الآن. تهاجمني عشر دجاجات، فأنفثها، وأضحك. لِمَ فضلت الكلام على أن أشبع بطني؟ التدخين شهيق وزفير. الطريق المستقيم أقصر مسافة بين نقطتين. انقطع الإنترنت والاتصال عن هاتفي. الطريق المستقيم أطول مسافة بين نقطتين.

عرجت إلى حارات عشوائية، من ثقب إبرة إلى طريق متسع ومن طريق متسع إلى ثقب إبرة. أخرجت مطواة من جيبي.

دخلت إلى محل بقالة، هددت صاحبه، لم تُخفه المطواة، بل نظرة المجنون. كنت أهش فقاعات ملونة تجعلني ابتسم ابتسامات ملوثة بالحقد. اقتحمت عدة محلات في شوارع ضيقة، أوقفت شخوصا لم أعدهم، لا يحملون الكثير من النقود. اخترت من لا يبدو عليهم أنهم مصدر تهديد. أصحاب الياقات البيضاء الحمقى العائدون إلى منازل هشة بوهم الستر، الخائفون من الفقر ولقد جاء، تسلل إليك كبذرة منسية صارت شجرة عملاقة، ستنقل جينات فقرك إلى ذرية ستزداد غباء وقصرا. لم أعدَّ النقود المسروقة. سرقت ما ظننت أنه يكفيني للطعام والحركة والسجائر. لم يحركني إلا الجوع. أشتهي حساء ودجاجة، التدخين صار صعبا من شدة الجوع، فعلت رغم ذلك، شهيقًا وزفيرًا. لو قابلت دجاجة الآن، سأضاجعها احتفالا قبل أن أجعلها نسيا منسيا.

وجدت مطعما شعبيا صغيرا على مدخله لافتة *(كلوا من طيبات ما رزقناكم)*. من قال إن الطعام يهلك الروح! الطعام يهبها النور، لو استعدت عافيتي وقليلًا من المال، ربما أكتفي بافتتاح مطعم سأسميه مطعم النور. لن أقدم فيه إلا اللحوم والمرق، سأكتب على مدخله: ممنوع دخول النباتيين والكلاب. *"بالأمس إن لم تخني ذاكرتي، كانت حياتي وليمة تتفتح فيها جميع القلوب، وتنسكب فيها جميع الخمور"* ثم بَحّ، نفد كل شيء. *"لم يعد السأم حبيبي، السعارات والجنون وألوان الفجور، هذه التي أعرف جميع وثباتها وكوارثها،*

عبئي كله صار ملقى عني، فلنتأمل، بلا دوار، عظم براءتي".

تسللت إلى المطعم كرجل بريء جائع. طلبت حساء ودجاجة كاملة تصلح لفردين وأربعة وعشرة، تقسيم الدجاجة علامة الفقر. أكلها كاملة علامة ماذا؟ يُبرد الحساء ظمأ جوعي، يدخل خمسة شباب إلى المطعم، على وجوههم علامات جروح الشارع التي لا تبلى، وبرفقتهم أحد ضحاياي، يشير إليَّ. أدس قطعة كبيرة من الدجاجة في فمي دون اكتراث.

يتحدث أحدهم إلى صاحب المطعم، ويسد أحدهم مدخل المحل. يتقدمون نحوي: *"قم يا ابن القحبة"*، أواصل الالتهام دون مضغ. يجرونني جرا، أتشبث بالطاولة عبثا. أثقل جسدي وأتحمل صفعة تلو صفعة، يتجاهل الزبائن ما يحدث؛ خوفا وربما إيمانا أني أستحق. تغلبني قوتهم فأتشبث بالدجاجة المقضومة. نسير إلى شارع مظلم يشتكي هجر المارة ويتغنى بوصال الأشباح. أتلقى الضربات والصفعات صامتا. يعثرون على النقود. لم يعثروا على المطواة بعد. أخفيتها في جوربي. يردون النقود للضحية، ويحتفظون بالباقي. لا أتذكر أصلا أني سرقته. أعلم من رائحة الخمر الرخيص وأثر الحبوب المخدرة، أن متعتهم القادمة هي التسلي بي قليلا. أنحني على أثر ضربة في بطني. أخدعهم بادعاء التلوي من الألم، أتحمل الركلات على مؤخرتي، لكن واحدة بين خصيتي تشعل النار. ما زلت متشبثا

بالدجاجة. أخرجت المطواة من جوربي، كورت عليها يدي. لم يلحظوا الأمر. وقفت، أتظنون حقا أن شخصا مثلي يخشى الموت؟ يا حمقى، أنا أملك رأسا تعرف كيف تقود مدعي القوة الزائفة، لا رأسا مخدرة. قلت تلك الكلمات: *"أعرف شيئا عن كنز كبير، قصر أعرف مداخله ومخارجه، نقاط ضعفه"*، وصفتُ قصر مولانا، قصر البارون إمبان. توقفوا عن الضرب وأنصتوا كأني شهرزاد في ألف ليلة وليلة، وهي تحكي عن ضربة حظ لصياد مغامر: أفلت السمكة الخائنة، لتدلك على سمك أكبر وأشهى.

أقضم من وقت إلى آخر قطعة من الدجاجة التي غرقت في وحل الطريق، وأواصل الحديث عن خريطة للكنوز والقصور، بل أخبرتهم بأماكن مخازني الخمسة الخاوية، وصفتها قبل أن تسرق، لم يقتنعوا. عادوا لضربي ضاحكين، حاول أحدهم مازحا خطف الدجاجة، تشبثت بها بقوة، طعنته بالمطواة في أحشائه. فزعوا، ثم هموا بقتلي، لكن سارينة شرطة بزغت من العدم. فروا. وتشبث الجسد المطعون برقبتي، تشبثت بالدجاجة أكثر. أي خطيئة لم أرتكب بعد؟

أهم بالفرار، يعوقني الجسد المطعون، أتخلص منه فيتشبث بقدمي. اختفى صوت سارينة الشرطة، وفقدت الدجاجة في الظلام. رائحة دماء ضحيتى عطنة كالأزقة التي افتقدتها. رأيت روحه تصرخ مغدورة وتحوم في الفضاء، لا توجه حقدها إليَّ، تطالبني بغباء أن أدل على قاتلها.

رأيت أخواتي البنات بوضوح، مددن أيديهن إليَّ، رأيت جادو مرة أخرى. لم يكن يداعبهن، بل يدخن النارجيلة ويلعب النرد مع شاب وسيم مبتور الساق. عرفته، رامبو. ابتسمت له، لوحت له، أحفظه ككتاب مقدس، صديقي الوحيد، شاعر كوميونة باريس، بائع الرقيق، خائن كل حياة كي يبحث في انبعاثه عن حياة، لم يعرني اهتماما في البداية. كان يملك جناحي ملاك بوجه مستدير ونظرة حزينة تطفو في عينيه الزرقاوين، شعره كان منسدلا على جبهته كأنه ملصوق بماء الورد، لكن سرعان ما تبين زيف تلك الملائكية، ذلك الوجه ليس إلا لمنافق، شيطاني، خبيث، لكنه شديد الجمال. تلك الروح ما زالت مسكونة بالقلق، ألم تجد الإجابة في العالم الآخر؟

ثم التفت إليَّ، أشار إلى حنجرتي، فشعرت بظمأ قارس يشقق حنجرتي. مد لي يده بالماء، شربت حتى ارتويت. قال متأسيا: *"العطش شرط كل شيء"*. ثم التهمته نار كبيرة، لم تحرقه، بل صفت جوهره، يملك الآن جناحَي ملاك وقرنَي شيطان، لا أجد الكلمات لوصفه. انطفأت النار سريعا، فصعد ما تبقى من رامبو إلى سماوات أعلى. البنات السبع جددن دعوتهن لي بالموت. نظرت إلى الجثة التي قتلتها لتوي. ثم لذت بالفرار. تبعت النور إلى شارع رئيسي، نفس الملامح لبشر مُصت أرواحهم وسويت بأسفلت الطريق. لم أجد القاهرة. تلك المدينة لا أعرفها. سرت هائما، أشعر بعزلة مخيفة، وبلعنة قدمي التائهة، ومرض أزلي في الروح.

2

النور غامر، لكنه محض ظلمة، الحشد على أرصفة الشارع الرئيسي سائل، لكنه محض وحدة. كلنا لا أحد في الحشد. الصخب ليس إلا صمتًا متنكرًا، الكل يسير لكن لا أحد يعرف الطريق. نحن بهائم طيبة تجوب العالم. لا يمكن لوم البهيمة على التنفس أو تمسكها بالحق في الحياة. السيدات سمينات، مترهلات بلا طائل ولا هدف. شبع زائف. طعام الفقر ليس إلا شغثًا. شحم يعيق الحركة، سمنة الفقر قهر متحرك. الكروش المدلاة لرجال يائسين، الأرداف المترهلة، ليست إلا حشوًا سيئًا. ألا يفكرون في التيه؟ أن القاهرة تبدلت؟ أن تلك الشوارع هي خليط من شوارع لمدن أخرى، أن خيوط الطريق مزقت. إلى أين يذهب الجميع؟ وجدت الإعلان بارزا في أضواء تغشى البصر: *(خايف من النار؟.. جنة عدن.. قريبا)*.

الشوارع أنظف، وأكثر اتساعا، لا أميزها، لا أعرف الطريق إلى منزلي أو قصر مولانا، فقدت اتصالي بالحكيم، ولا أعرف الطريق إلى مصنع الأجساد، أو بيت الحاجة ميمي. أسير وأسير بلا هدى، يتيه المكان ثم الزمان، ولا أميز كم مر من الوقت، تبدو الساعة

كزمان، ويبدو الزمان كساعة. أسأل أحدهم *"أين أنا؟"*، فيخبرني: *"درب الأربعين"*. أسأله: *"كيف أصل إلى سبيل نفيسة البيضاء؟"*. أسأل واحدا تلو آخر، لا أثر للفكرة في أذهانهم. سبيل نفيسة البيضاء أشهر من أن تسقطه الذاكرة. من ينسى وهم نهديها؟ وهم كجنة عدن، لحظات من المتعة، ثم لا شيء، تطرد بركلة. هل حصلت نفيسة على عبد المولى من مولانا؟ هل اكتشفوا الخدعة وخدعني أبي الحكيم؟ أبي الحقيقي. لكن أين هو؟ هل أدار لي ظهره أم أهلكه مولانا؟

لاحظت أن الحشد يسير في طريق واحد. سألت: *"إلى أين يذهب الجميع؟"* أجابني رجل عجوز: *"إلى جنة عدن"*. أستدعي رامبو، فلا ألتقط حرفا واحدا. هل يخف ثقل المعرفة، هل فرغ كيس الصفن من الاستمناء المتكرر؟

هكذا النار توسم الصدر والشوق والقلب

هكذا فقدتُ السماء التي أعرفها تمام المعرفة،

وروحي، ما إن أخلصت لله، حتى اصطفاها للجحيم.

تلح هذه الأبيات على عقلي، لكني لا أعرف قائلها، تبدو كأنها تصدر مني، لكني لست كاتبها، ولا رامبو، أعرفها كما أعرف كفي. أتأمل كفي هل أعرفها حقا؟ لا أكتب الشعر، أنا مجرد كيس صفن يوزع بذوره وهو يعدو مسرعا إلى حتفه.

أكتشف فقداني لأوراق هويتي أيضا. أي لعنة أن يقذف بي في عالم لا أعرفه، بذاكرة كاملة ثقيلة الوطء، هذا عمل هواة، متوسطي الموهبة، قساة القلوب.

سرت مع الحشد كقطرة ماء في تيار، بلا علامة تدلني على حياتي القديمة. أسير مضطرا إلى الجنة. حيث لا شيء سوى وهم زائل، لا أشك أن مولانا وراءه.

مرت قوافل جمال كانت تحمل عددا من أتباع الطرق الصوفية، يسيرون في اتجاه عكسي لسير الحشود إلى الجنة. يبكون ويلطمون ويشقون أرديتهم صارخين: *"لقد أضعناها"*. سجائري نفدت. سرقت واحدة من بائعي الأرصفة، أولئك الذين لم يشغلوا بالهم بالجنة أو الجحيم. يوم القيامة سيُخلق بائعون من العدم لاستثمار ساعات الانتظار الطويلة.

أحدهم تخلف عن قافلة اللطم الصوفية. قرفص وحده على الأرض ناظرا إلى السماء بيأس: *"أخلقت هذا باطلا سبحانك؟"*. أعرف هذا السؤال والصوت المرتعش. المقرئ في عزاء جادو. تمسكت به كقشة غريق. *"أتتذكرني؟"* نظر لي بعينين زائغتين، *"أنا رزق زوج ابنة أسعد جادو.. كنت في عزائه عندما طردت"*. لا يتذكرني. لا يهم. *"أريد العودة إلى زاوية النجار؟"* قال: *"لقد صارت مدينة أخرى، عزلت وتغيرت ملامحها، يعدون مسرحا كبيرا* يبنيه عبيد

محتجزون، بلا حجارة أو عمل فقط من كلمات غريبة كلغة السحرة. لم أسع للفرار، صحوت ذات ليلة لأجدني خارجها، أسير مع الخلان في درب الأربعين إلى جنة عدن". ثم عاد للبكاء: "أضعتها".

ثم بدأ في الحكي، لم يوجهه لي، بل للسماء دون أن يفتر أثر الهذيان: "أربعين يوما سرت، نحن المصطفون لشيء ما، لا يدرون لماذا. الرفاق يحملون العزم ويجترونه كالجمال، والصحراء أرض كبيرة للعطش والشك، لا يحمل اليقين بها إلا قاطنوها، وما نحن فيها إلا متطفلون نرتجي وجه الكريم.

هذا قرباني إليك يا رب، أنا لا أتوقف عن السير بإيمان رغم حجر الشك على ظهري. أتذكر يا حبيبي ماذا يحدث عندما تصفو الروح وتشف لثوان، فأكون منك وبك، أقول للشيء كن فيكون. أعرف عندما يروق عكر المزاج، الذي لا تصلح معه أكواب الشاي ولا سنة الأفيون. نصير معا عندما نعبر لثوان إلى اللطف. اللطف هو أن يهب الدفء في شتاء قارس، والنسمات في صيف حرارته تقتل. الله في اللطف، في المزاج الرائق، أن تتقلب الأمور عليك، تنهد الدنيا، وتظل كما أنت. عندها يلهج لساني بالذكر، كأني أذكر نفسي فلا أتوقف. أملك كن فيكون، فلا أفكر إلا في أشياء عبيطة، دنيوية، تافهة، كأن لا يمسني الذباب، أكره الذباب. لكني لم أمتلك تلك الكرامة أبدا إلا لدقائق. يخرج الذباب من منزلي طوعا دون

أن أهشه، أتأمل المعجزة، وأخبر نفسي: يا ولد لا تغتر. فإذا ركبني الغرور، يتوالد الذباب في منزلي بأعداد كبيرة. أنظف، فيختفي ويعود، لقد ترك أثره وقضي الأمر، أعزو ذلك إلى غروري مرة، ثم إلى ذنوبي مرات، ثم يصير الذباب محك إيماني كله، حين تمسني ذبابة، أرتعد باكيا من ثقل شكي، ثم يعود إلي الإيمان صافيا في لحظات، عندما أجلس في مقهى أو أسير في الشارع وأرى الذباب يحوم حول كل الوجوه إلا وجهي.

ثم أقول يا ولد، أيترك اللـه مشاغله كي يهش عنك الذباب؟ فأفكر أنه ربما يوكل لي ملكا لهشه، ثم أفكر في أن الإنسان خلق جهولا، ربما كان الملك مُوكلا برزق أوسع فشغلته عنه. لكني لا أطيقه، أكان عقابا على انشغالي عنك بهشه؟ الذباب حق، إنكاره لا يليق بمحب للـه".

جاريت هذيانه، حتى يدلني على مخرج من درب الأربعين، أعطيته سيجارة، رغم ندرتها، أشعلها متوترا.

"سرنا أربعين ليلة حتى وصلنا إلى صحراء، فافترقنا، لكل فردوسه عليه أن يعثر عليه بنفسه. جنة مسحورة، لا مكان لها، تظهر فتختفي، وتختفي فتظهر، كما تتخيلها تكون. تخيلت واحدة من عدل خالص، غيري يتمنى الذهب والنساء، ما فائدة الذهب في الجنة! لكني أحببت أن أفكر في أفيون ينغمس المرء في سطله

بلا ذنب. حسنا، فكرت قليلا بشأن النساء. نساء جميلات، لحمهن حقيقي، وسمنتهن ليست من طعام زائف كزوجتي، ونحولتهن ليست ابنة الفقر كزوجة جاري، اشتهيت زوجة جاري، والطعام أيضا. ما الجحيم؟ أن تعمل من أجل الطعام. وفكرت أن الكسل أحلى اللذات، أن تعرف الروح طريقها إلى نفسها دون أن يتيه الجسد في مشقة العمل، أن تجد الوقت لتتأمل روحك فتصل إلى الله، أحلى الوجوه. تلك هي الجنة؛ لأنه ما خلق هذا باطلا سبحانه.

كي تعبر إلى جنتك عليك أن تواجه أكثر ما يخيفك، واجه بعضهم فرجا عملاقا بأسنان تأكل القضبان. هؤلاء ظلوا طيلة حياتهم يخشون النساء، يخفون ذلك عبر الكراهية والازدراء والسيطرة الغاشمة عليهن. أحدهم واجه مؤخرته، كان يحميها دوما من شيء مجهول وغامض. من تعفف فقد جنته، وابتلعته صقور خارج الصحراء. بعضهم واجه ما اشتهاه، غرق أحدهم أمامي في بحر من الذهب، لم يكن إلا خراء سائلًا. وآخر شديد السمنة كان عليه أن يزدرد كل ما أكله في حياته من جديد كجبل من القيء، انفجر، لكني عرفت أنه عبر إلى الفردوس؛ لأنه أكل قيئه بشجاعة. وحوش، جن، عائلات طيبة تخفي الجنون والقسوة، هراوات شرطة، معلمون، قتلة. لا يميز بعضهم أحيانا ما اشتهاه، فعماه أو ما كرهه فأغشاه، بعضهم كان يرهب أشياء عادية، كالشِّعر، والماء، الأشجار، الوزن الزائد، العشاق.

كان اختباري بديهيا. كان عليَّ أن أخوض داخل دوامة من الذباب، المئات، الآلاف، ربما الملايين منها. بلعت خوفي وريقي، خطوت بشك يدمي قدمي، لكني تركت الذباب ينهش لحمي. صرخت ثم هدأت، ثم صرخت وقلت: يا رب، وسألت الشيطان النجاة. كان بكائي يستثير الذباب كأن دموعي عسلٌ يسيل. عذاب شديد. ثم صمت كل شيء، توقف الألم، توقف الطنين، ولم يتوقف النهش. بعد الصمت نبتت اللذة، فقلت: يا رب، هل تأتي بذباب أكثر؟ شعرت بأن روحي مصطفاة ومصفاة. كان الذباب ينهش الإيمان في جسدي، بحثا عن الشك في روحي. عثر عليه، كان جوهرة وقربانًا، حمل الذباب جوهرة الشك، ثم انفض عني، فعاد إليَّ لحمي سالما لم يمس. لم أنتصر، بل هزمت، لكن استسلامي كان سر كل شيء.

رأيت تلا من تراب كثيف، كانت تلك جنتي، قلبي عبر الأسواء، فاطمأن ولم يجزع. كنست الرياح التراب عن التل رويدا رويدا، كأنه امرأة تتعرى ببطء. انتظرت رفع الحجب، فعرفت أن الذباب لم يكن سوى جان يستر جنتي عن الأعين.

أول ما انكشف كان بابا خشبيا متهالكا، فلم أجزع. لمحت عيني ما لمع، وميزت أحجارا ثمينة، تعوضني عن جوهرة الشك، لا يقرض الله إلا قروضا حسنة، أما نحن فمرابون نطلب الحسنة

بعشرة. لم يحرمني من الذهب والفضة، رغم أني لم أطلبهما، لكن وجودهما أثلج قلبي، فشكرت الرحمن على تذكره فيما زهدت لأني حُرمت.

عبرت من الباب، النشوة تزلزلني. كان القرآن يصدح: **"رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ"**.. فقلت: آمين يا رب. خطوت إلى قصر من زمرد، اصطحبتني إليه حورية جميلة. سمعت: **"وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ"**. فقلت: ما شاء اللـه.

"كانت جنتي واحة إن أردتُ، وجزيرة إن أردتُ، هادئة، بلا ريح عاصفة ولا يصدمها صخب الأمواج، لا تطل على جزر أخرى، فقط الماء والأفق المفتوح كأن لا أحد في العالم، مساحتها لا كبيرة ولا صغيرة، لكنها تكفي للانطلاق على فرس أو عدوا كأن لا نهاية للأرض، تصلح لزراعة النخيل ونباتات لطيفة، أرى من قصري الصغير كل شيء. لا شيء سوى الصفاء والجمال النادر والهمس، الموسيقى والنخيل والنساء الجميلات، حيث لا لغو ولا ضجيج. اشتهيت خمرا، فنبتت أنهار خمر. اشتهيت عسلا، فانشقت أنهار عسل. الأفيون وأبخرة الشاي لا تكف عن الدوران".

أثارني ما قاله أخيرا، تلك الصورة المسروقة كانت جنتي، وما يصفه كان شبيها بأمنياتي عن التقاعد المبكر في جزيرة صغيرة.

"رأيت العدل. لم أكن أقطنها وحدي، سبقني إليها عجزة وتافهون

وعميان وبرص، وجاء إليها بعدي برص وعميان وتافهون وعجزة، كانوا جميعا ملوكا، ولا أحد يملك. لا أحد يملك لكن كنا ملوكا".

سكرت باللذات الطيبات. لكن أحلى اللذات، كان شرابا حلوا، لم أعرف اسمه، فسميته الشراب الحلو. يأتي في فنجان صغير، ولا يسمح لنا بأن نشرب منه أكثر من مرة في اليوم. كان الشراب يجلي الروح رويدا رويدا؛ كي نتأهل لرؤية وجه اللـه- أعظم اللذات، فلا تحترق أرواحنا إذا ما تجلى الرحمن. كان الشوق يأكلني للجائزة الكبرى. فقلت: "ربما لو شربت أكثر من دفقة صغيرة في اليوم لرأيت وجه اللـه". فظللت لا أشرب منه، بل أصبه في إبريق كبير. امتلأ الإبريق، فقلت أشرب، لكني لم أستطع، قلت لو ملأت إبريقا آخر، فصاروا عشرة أباريق من الشراب الحلو، قلت آن الأوان، سأشرب الأباريق العشرة لأرى وجه اللـه، لكني لم أذق إلا قطرة واحدة. لقد صار للأباريق العشرة معنى آخر. أأفقدها كلها بشربها؟ فلأجعلها أحد عشر. فصار تأمل الأباريق أشهى من شربها. هكذا طُردت. كان الاكتناز في الجنة خطيئة. فسرت مع المطرودين البائسين حيث لا زمن يدور، يحاولون العثور على جنتهم من جديد. أحدهم كان يبكي بصحبة عائلته، طرد لأنه لما وجد جنته، عاد ليصطحب عائلته وأحبته. فلما غادرها وعاد بصحبتهم، كانت قد اختفت، تاركة إياه بصحبة اليأس في صحراء نفد منها العزم والشك والإيمان".

أنهى المقرئ حكايته، وعاد للبكاء، ثم هم بالالتحاق بأحد قوافل تجارة العبيد.

تبدل الإعلان: *"سئمتَ من البحث عن جنة عدن؟! اطرق أبواب الحظ"*.

سألت المقرئ قبل رحيله: *"أتلك القيامة؟"*، أجابني: *"قيامة ما تعرفه، وبداية ما لا تعرفه"*.

أي إجابة أحصل عليها من رجل قطع طريق الذهاب صوفيا رغما عنه، ويقضي طريق العودة عبدا مباعا بإرادته؟!

3

اندلعت أبواب الحظ كلهب عارم يبتلع جانبَي الطريق. *(شورت كات إلى الجنة.. مع خصومات هائلة)*. أعلن باعة يانصيب في ميكروفانات. أصواتهم كانت مزعجة وقميئة كصخب زائف، ثم رأيت الناس من جديد محض عويل، كأرواح مغدورة. ما هربت منه طيلة حياتي. أهذا قرباني إلى الجنة؟ ما ارتكبت سوى الخطيئة، ولا جنة لي إلا على الأرض. ثمن التذاكر ارتفع، فلم تعد نقودا أو مؤنًا أو ذهبًا. عرض الناس أبناءهم ونساءهم كعبيد وجوار، عرضت النسوة أجسادهن. لكن ذلك لم يكن كافيا، صار الثمن شيئا أغلى من الروح: جوهر الروح.

الهذيان تام. لعله في رأسي فقط. هل مر يوم أم أربعون أم أربعمائة؟ "*ماذا يتبقى لنا؟*" صرخ المتزاحمون للحصول على طريق مختصر. تباينت الامتيازات سريعا، من امتلك شراء العبور إلى أبواب الحظ، فعل على حساب الآخرين. استسلم الناس للصخب فصار صمتا، لكن العويل يمزق روحي.

سـرعان ما عرضت خدماتي، أقمت مجلسـي على قفص من

سعف، وصنعت لافتة من كرتونة متسخة: *(رزق نخنوخ الهواري لتثمين جوهر الروح)*.. صنعت دعايتي بخط مشوش: *(يمكن لروح واحدة أن تنقذ أسـرة، بل ألف أسـرة. جوهر الروح ثمين. اجعل الأمر يستحق)*.

من يعرف جوهر الروح أكثر مني؟ أنا بائعه الأول، قواد العبيد، سمسار اللذة، وسيط الأجساد والأرواح. قايضت موهبتي بالسجائر، كنت أقبل كل الأنواع، الرخيص والرديء والجيد والتبغ الفاخر. أقبله سائبا، ملفوفا، معلبا، لا أفرق بين طعمها الراكد والطازج. هكذا أقبل ما أحب، بلا تمييز.

كانت خدماتي تتضمن التفاوض مع الباعة على أفضل أسعار لتذاكر اليانصيب، تقليل النسبة التي يفرضونها من كنوز الجنة. خبرتي آذت الباعة، يحصل المشتري بفضلي على معادل مناسب من تذاكر اليانصيب، هذا يعني ازدياد فرصه في ولوج أبواب الحظ. لقد صرت فجأة على الجانب العادل من الأمور، رغم أن العدل لم يحدث.

كانت طقوس الحصول على جوهر الروح تتعقد أمامي، حتى صارت عبادة، فتكون حولها نسل من الخرافات والخبراء ورجال دين وأطباء وبناة وشرطيين وغزاة ومهرجين وتجار وحكماء.

ثم اختار الخبراء ضحية، وأنشـأوا أول معبد قائلين: *"ليسـت*

تلـك هي القيامة الأخيرة، بل قيامة مـا نعرفه، والدماء هي قربان للالتحاق ببداية جديدة".

لم يعد أحد أبدا ليروي إن كان وجد الجنة أو الجحيم أو العدم. أدخن وأدخن ولا أرى شمسا تمر أو قمرًا، لا أيام، يوم واحد طويل، بلا نوم. لا شهوة أملكها إلا التدخين.

ثروتي من التبغ تزداد وعملي يكشف زيف الخبراء، لم أكن أفعل شيئا، كنت فقط أتشمم الروح فأعرف. فملكت الوقت. ما إن فعلت، حتى امتلكني الشك في أن ما أثمنه هراء. لو اكتشف المشترون زيف العملة، لأغلقت أبواب الحظ إلى الأبد. هذا يقتل الأمل. ولا شيء للسائرين في درب الأربعين سواه. عندما بزغ بائعو جواهر أرواح مستنسخة تشبه الأصل، تأكد لي عظم الوهم.

مرت عربة تطلق زخات من الرصاص، عرفت شعارها: *(الحاكمية لماركس)*. أثارت هرجا كبيرا، سرقت عددا كبيرا من تذاكر اليانصيب ورمتها في الهواء، حطمت مخازن مكدسة بجواهر الأرواح، ثم كشفت السر: *"هذا زجاج لا جواهر"*.

هربت العربة سريعا. تحلق نسل الخرافات من الخبراء وحموا بضاعتهم من دنس كشفها. تدخل متصوفة زائفون، وأعلنوا أن الزجاج هو الثمن الجديد للعبور. فامتلك الزجاج العادي والرخيص

سحرا خفيا. فصار غالي الثمن بلا سند، سوى حصوله على بركة عارفين.

عمت الفوضى، وقلت: "ربما جوهر الروح فيما يمكن أن يصير عليه الجسد. غيرت لافتة عملي، فصارت بضاعتي الجديدة هي رسم الأجساد كما كنت أرسمها لحفار القبور، أرى الملك في الجبل، وأفروديت في الصخرة العمياء، وداود في كتلة الرخام التالفة. بعت الكثير من اللوحات. لكن سرعان ما ركدت بضاعتي ولقبت بـ(بائع الفساء).

فعدت لأرسم الأجساد ناقصة كما هي، فازدهرت تجارتي مرة أخرى. كل ما أضفته أني جعلتها مسترخية، لاهية، بلا أعباء، بلا ديون، أو كراهية أو قرابين.

أحب الناس رؤية كيف ستبدو وجوهم وأجسادهم بلا أغلال. أراهم يتأملون لوحاتهم، فيشعرون بالسكون، ثم الغضب، ثم السكون ثم الشك، ثم غضب ينفي السكون والشك، وسكون ينفي الغضب واليقين، حتى يصلوا إلى اللا شيء الذي يرتسم على وجوههم وأجسادهم. فيكفون عن الحركة، وعن اشتهاء أبواب الحظ. بارت تجارة الكهنة.

حسدت تلك الوجوه التي بعث لها اللا شيء. حاولت رسم نفسي، لكن يدي كانت ثقيلة، وخائفة. كأني لو فعلت، لرسمت مسخا.

4

دفعت ثمن ذلك، صرت نبيا. نبي اللا شيء. ذلك حسن، ومضحك، وشديد التفاهة، لكنه أيضا كان مخيفا وكاشفا، كأن مؤخرتك تواجه العراء ولسعات الريح، بلا حماية من الزمن أو البرد أو الأصابع اللعوب لعابري الصدفة. لقد اكتشفت لتوي جوهر الملل. أي عذاب!

غيرت اللافتة إلى *(نبي اللا شيء)*، دون أن أغير جلستي فوق قفص القش الذي صار مباركا، وتحول التدخين من عادة مذمومة إلى مقدسة تنفث البهجة، توقفت عن رسم الوجوه والأجساد، بعد أن سرت الرسالة مع أريج الدخان وصدور المؤمنين الأوائل.

يأتيني مؤمنون جدد كل لحظة، وفضوليون ومغامرون. يسأل الواحد منهم: *"إلامَ تدعو؟"* ، فأجيب: *"إلى اللا شيء"* . *"ماذا تفعل؟"* . *"لا شيء؟"* . *"ما نص رسالتك؟"* فأشير إلى الدخان الصادر من بين شفتي والملوث بزفيري المقدس والمتجدد بشهيق الدنس.

لا أظن أن الأنبياء وجدوا وقتا للملل. ربما قاربهم اليأس، وطالتهم الجروح في معرفة جوهر ما أراده اللـه. لكن ما إن اعتدنا

الملل وتوقف الصخب وغاب الإيقاع والحركة، حتى انكشفت لنا حيواتنا السابقة كخديعة.

لم يكن الأمر هينا، فنحن حرفيا لم نصل إلى شيء، وما سعينا إلا سعي عدم الوصول، لكن علامة المكابدة للتخلص من أردان الروح كانت وحشية. غمرنا ألم قارس، فشعرنا أننا مجرد مؤخرات في العراء، ثم قبض علينا الخوف، ولم يفلت الشك حناجرنا من قبضته الكريهة. ثم تعرضنا للاختبار الأقسى، فما إن يمر الألم والخوف والشك، حتى تغمرنا بلادة اليقين وغباء الطمأنينة. فقاعات من الزيف هي حاجز أخير نحو جوهر اللا شيء، من يعبره، يبدأ خطوته الأولى، ويعرف أن لا اليقين كان بتلك الأهمية، ولا الشك.

رأى المؤمنون في كسلي تأملا وحكمة. رغم أن رأسي كانت فارغة، تسحق كل ما يتلاطم بها من أفكار، محاولا تثبيت تفكيري على خروج ودخول الدخان من الصدر، والأشكال العبثية التي يشكلها في الهواء. وكان المؤمنون هم أصحاب فكرة أن الدخان قد يكون هو جوهر اللا شيء، ورغم أن اللا شيء لا جوهر له لإمساكه، إلا أني لم أعدل الفكرة، رأيت أن من الجيد أن أتركهم لمجاز يمكن رؤيته.

استمر هدوء الحمى في درب الأربعين، وتوقف أهلها عن السعي المتخبط نحو جنة زائلة وجحيم مقيم، وتكدست تذاكر اليانصيب في

أيدي الباعة، فلم تعد تساوي الورق الذي طبعت عليه.

كدت أمسك بالمنبت الأول للمتعة. وجدته في تأمل الدخان، لكنها ما زالت متعة مراوغة. لا شيء فيها طيب، ولا شيء فيها سيئ. فقط جميلة وهادئة، تنبت من الداخل، لا يحددها عملك. كسل وفراغ، كسل وفراغ. فانعتاق.

لكن ظهور الفئران غيّر كل شيء. فئران كبيرة الحجم شرسة ووحشية تنهش اللحم، أذكى من المصائد أدهى من الطعام المسموم، لا تخشى المواجهة. تتصرف كعصابات منظمة، ولا تخرج إلا في جماعات. الغزاة المهرة أثاروا الذعر في النفوس. سبعة أطفال ومسن، حصيلة أول غزوة، كشفت الفئران قبورا مطمورة، نهشت ما تبقى من الجثث، وعرت الأرواح. تشتهي الموتى والنيام واللحم الطري للرضع، وتقرض السيقان كحلوى.

الباعة همسوا بالشائعة: *"نبي اللا شيء ملعون. والفئران ثمن إنكار الطريق. وإنه يجرُّ الناس إلى الخطيئة التي لا تغتفر: الكسل"*. تطورت الشائعة مع كل غزوة ناجحة للفئران. فصرت فيها أحد سادة الجحيم السبعة، شيطان الملل والكسل، ملكت الأرواح وخدعتها بحثا عن رفقة في قاع الجحيم.

لم أجد ما أدافع به عن نفسي. لا أثق بما قد أقوله، أهناك حقا طريق آخر غير الجنة والجحيم، الخير والشر، القديس والشيطان،

الصمت والصخب، الغناء والعويل، ماركس ومولانا. شيء يتجاوز اليقين والشك، ولا يهدف للوصول إلى شيء محدد سلفا؟

توالت هجمات الفئران والباعة، لتأكل المؤمنين بي في كل مرة. كدت أنضم لمن كفروا بي، وأخبرهم أن دعوتي قد تكون كذبة لطيفة. وأنها ربما لا تكون أكثر من احتجاج أبله على فقداني لأمل الفردوس. لكني سأصر على عدم استحقاقي للمكانة الكبيرة كسيد من سادة الجحيم.

عندما حل الطاعون حاصدا المزيد من الأرواح، تقدم الخبراء بالحل: *"فلنتخلص من سبب اللعنة، بذبحه، وتقديم دمه كقربان تكفيرا عن توقف الآلة الجهنمية"*. لم يصمد دفاع المؤمنين بي طويلا. ارتجلت طقوسًا جديدة لذبحي. هذيان اكتسب قداسة فجائية. لو ذبحت، لن أكون الأخير. ستكون عادة. هل تصبح كل نفس تموت خلفي دينًا إضافيا في عنقي؟ أين أنت يا أبتِ؟ أي خطيئة لا تعرف الرحمة!

امتد السكين المقدس إلى رقبتي. لا ألم. الموت كان زفيري الكبير لسنوات الألم والصخب والجروح. لم يكن وجه زين أو ليلى أو حفار القبور هو آخر ما رأيته قبل أن أعبر إلى الموت، بل وجه مولانا، رقيقا وحانيا، لكن حنوه لم يكن تجاهي، بل تجاه العالقين بدرب الأربعين. كانت ابتسامة كبيرة ترتسم على شفتيه سعيدة بعودة آلة الحركة للعمل، وأن السعي لن يتوقف لشراء تذاكر اليانصيب.

اقتل العائلة

1

لم أمت ولم أحيَ. أفقت على ضوء شديد السطوع، فكان والظلام سواء. أشعر بأنفاسي. قلبي ينبض. رقبتي سليمة، ولا أثر للنحر إلا من ألم خفيف يداعب الرقبة، كأني جرحت أثناء الحلاقة، لا مقتولا على يد جلاد. لا أثر للدم الذي كان واحدا من شهود قتلي الصامتين. أتضور شوقا إلى التدخين. ألا يبطل الموت الشوق إلى ما نحب؟

تحسست ما حولي في ظلمة النور العاتية. أهذا قبري؟ أدفنت بشكل لائق، أم صرت عويلا إضافيا لروح مغدورة؟ قمت من مرقدي، كنت قادرا على تحريك ذراعي كحي. لكني أدركت علامة موتي. ساقاي تحركتا بلا إرداة مني نحو خيط من الظلمة انشق وسط النور. أهكذا يكون الموت إذنْ؟ سير بلا إرداة في مسار بلا خيارات. هذا

لا يحسم أي شيء، فقد كان ذلك علامة حياتي السابقة.

وصلت إلى خيط الظلمة، أزحته كستار. فرأيت طريقا مستقيما، على جانبيه شموس خفيفة اللهب معلقة في أعمدة إنارة، وحجارة، خلاء الطريق المرصوف بالأسفلت، خلاء الرمال التي تنتظر الإسمنت والألمونيوم. مصارف، ظلمة بيضاء، وبيوت قليلة متناثرة لها عزلة الكوخ والقصر دون هيبتهما. شاحنات عمياء تمر من حين لآخر، براميل قمامة. أتذكر هذا الطريق، ففيه دفنت لويس. دفنت الحقيقة. أهذا جحيمي؟ أن أسير في نفس طريق جريمتي بلا توقف؟ لماذا وحدي أتحمل عبء دمه. لو كانت أنفاسه تحملت قليلا، لصار تحفتي الفنية، لربما صار مصارعا أقوى من عبد المولى أو جمرة إغواء نادرة. ألم يقتلك من أرسلك؟ أين هو الآن؟ في جنة الكوميونة، أم يستكمل جحيمه؟ الدين أفيون الشعوب، هذا لا يرضي تجار الأفيون. يقولون إن في الجنة قصورا لمن جمعوا الحسنات، أما الفقراء إليها الذين لم يجمعوا إلا حطب الخطايا، فسيوقدون بها. وأنت تقطع البحر من بلادك المترفة؛ كي تخبر العمال في النهاية أن ماركس حي. لو كنت معه في الجنة، هل ستطلبان نساء وقصورا أم العدل؟ هل ستحتجون من أجل الخطاة ضد إقطاعي الحسنات؟

من بعيد، رأيت رجلا. ما إن اقتربت، حتى ميزت الصلعة وعباءة التشبث برخاء الأيام الزائلة. أسعد جادو، حماي ورسول

موتي. ابتسامته المطمئنة أثارت حنقي. لم أكن أرغب في التقدم إليه، لكن لا إرادة لي على قدمي.

كلما اقتربت منه، كلما ازدادت ابتسامته لطفا، فيشتعل غيظي أكثر. لا أرى في هذا اللطف إلا تشفيا، ولا في تلك المحبة إلا إخفاء لزهو انتصار إرداته. أمطمئن أنت الآن أن حصولي على ليلى مستحيل؟ ميت أمسك بتلابيب الحي، حتى صارا معا في طريق واحد لشواهد القبور والجريمة.

لحظة وصولي إليه، قدماي تجمدتا أمامه، وانطفأ حقدي كله، فأدركت أن لا فائدة هنا للحب والكره، لا رهانات ولا عزاء أو فرح، حيث لا خاسر ولا فائز.

عبرت وجوه أخواتي البنات كأطياف، تختلط في أفواههن البشارة وزغاريد استقبالي والنذير وعويل البكاء على مصيري. اختفين سريعا، فلم أدرِ لمَ البشارة ولمَ العويل!

أخذني جادو من يدي، مضينا، فتحركت قدماي معه. سألته: *"هل الموت بتلك البساطة، أهذا جحيمي، طريق طويل، أم أن نهاية الطريق هي الجحيم؟"*.

قال ضاحكا: *"لا موت لميت، أنت كذلك منذ دفنت لويس، فدفنت الحقيقة، ذبحك حدث لتحيا، ذبحك لم يحدث"*.

أشرت إلى الجرح في رقبتي، ألمه الخفيف حقيقي أكثر من سيري مع ميت في طريق خال، بل إصبعه بريقه، ريق موتى. عبر بإصبعه على أثر الجرح. قال: *"الآن.. اختفِ"*. ذهب الألم. شكرته بلا امتنان حقيقي، فربت على كتفي بحنان أب. قلت ساخرا: *"ها قد جاءتنا الفرصة لتبادل المحبة في الموت"*. قال جادو: *"أخبرتك أنك لست ميتا.. ولم أكرهك يوما"*. قلت: *"لمَ أنا هنا إذنْ؟ هل مررت بكل هذا الألم كي أعرف أنك لا تكرهني؟"*. أجاب: *"كان بإمكانك تجنب الألم، لو أدركت، أرسلت إليك الإشارة تلو الإشارة، لكنك أنكرتها جميعا، أرواح الأحياء شديدة العكارة؛ لذا ففهمهم شديد البطء. لا عجب أن اللـه لم يكتفِ بالإشارة إلى وجوده. احتاج الإنسان ليفهم ثلاثة أديان، ثلاثة كتب، وجيشًا من الأنبياء"*.

رسالة اللـه كانت بسيطة: أنا الكامل الوحيد. لا تبحث عن الكمال في أصنام الصفة الخارقة، وتفرّغ للذة نقصانك. ورسالتي أيضا كانت بسيطة: عالمك انتهى.. اعرف طريق نجاتك وكنزك المفقود.

أجبته ضاحكا: *"لم تكن إشاراتك أكثر من حفل إزعاج ورعب"*. أصر ببراءة: *"كان ذلك أوضح من الشمس"*.

أكمل مفترضا شـــغفي: *"حصولك على الكنز، مشـــروط بإنقاذ عائلتي"*. لكني لم أكن مهتما حقا، فسألته مغيرا مسار الحديث: *"هل يمنحنا الموت الإجابات؟"*.

أجاب: "حصلت هنا على أفضل الإجابات حتى عن الأسئلة التي لم تشغلني".

- هل اللـه موجود؟

- كنت في خلوتي أستريح فجاءني طير، طلب أن يعيد اللـه روحي إلى جسدي كي يطمئن قلبه. فرجوت اللـه ألا يستجيب، فجسدي أكلته الحياة قبل دود القبر، فلم تَعُدْ روحي إلى جسدي. فاطمأن قلبي وتمزق الطير من خيبة الأمل.

- هذا لا يثبت شيئًا!

- ألم أقل لك.. أفضل الإجابات.

- هل الجحيم موجود؟

- أحيانـــا.. تقول الشـــائعات إنه موجود، لكل من تخيله وبشّــر بـــه، في قاعه يجلس شـــاعر يدعى دانتي، أعتقد أنه ألف شـــيئًا ما يدعى الكوميديا الإلهية، لم أجد قراءتها هنا مسلية، لكني عرفت من آخرين أنه وضع الناس في الجحيم كإله، وقدم نفسه كقديس، أعتقد أن أشياء كتلك لا يمكن أن تغتفر.

- لا معنى لهذا إلا أن الجحيم موجود.

- محتمل.

- والجنة؟

- موجودة قطعا.. يقول بعضهم إنه رآها تظهر وتختفي، لا تبزغ إلا في الظلام، لكن الأغبياء يعودون لإنقاذ أرواح ذويهم؛ ليدخلوها بالنهار، لكنهم لا يجدون إلا صحراء.

- لا يعني هذا إلا أنها مجرد سراب.. أي عبث.

- سمعت أيضا أن عذاب دانتي ضُوعف، لقد قُيد ظهره إلى ظهر محبوبته بياتريتشي، لا يراها ولا تراه، لكنهم يقولون إنها منذ قيدت إلى ظهره، وقد عرفت روحه السعادة في قاع الجحيم. "كرّم بهائي في جهنّم بما أنّه تألّق في الدنيا".

- وبياتريتشي.. ما ذنبها؟

- ذنبها.. أن الملائكة يقرأون بورخيس.

- لكن تلك ليست أفضل الإجابات.

- حسنا لقد عرفت شيئا على سبيل اليقين.. النعمة الأزلية، أعظم النعم: الوهم.. وهم الحرية التي زرعت فينا كشيء أصيل، لولاها لضل الإنسان وما تلطف توحشه.

- الحلاق صار فيلسوفا، ويعرف دانتي وبورخيس.

- أخبرتك.. هنا المعرفة سهلة كالهواء والماء، ولا قيمة لها على الإطلاق.

- يا ليتني أحصل على إجابة واحدة.. يحق لي هذا بحق الموت نفسه.

- أنت حي، وستعود لمسار اللعبة من جديد.. لكن تلك المرة ثمة شروط.

صمت منتظرا أن يحركني الفضول، لكني لا أحمل فضولا تجاه أي شيء. لا أثق أن هناك نجاة، بل مجرد تكرار للشقاء أملا في الفردوس.

قال متجاهلا بلادة حماسي، كأنه يخطب في حشد:

"قامت القيامة، رفعت الأقلام، وجفت الصحف. عالمنا القديم انتهى، لا فارق فيه بين حي وميت، لكنها قيامة ما نعرفه، وبداية لما لا نعرفه. أمل جديد لا يدين بشيء لقواعد اللعبة القديمة.

نجاة من المسارات الفاسدة، بمسارات طازجة وحية سيفسدها نجاة قلة، تصطفي نفسها لتخرق العالم الجديد، بخلود مصطنع، سيبورغ نخنوخ الهواري يا ابن الهوارية، حيث الخالد يتحكم في الفاني، ويمنع بحياته التجدد الذي يهبه الموت، لا يملك نخنوخ ورفاقه إجابة على هذا، رغم أن الآلهة الجدد سيمتلكون كل الوقت للإجابة، لكنهم لن ينفقوا منه شيئا، سيحطمون البدايات الجديدة، سيحيلونها من الطزاجة إلى الوحشية. لن تكون عائلتي بالنسبة لهم إن نجت إلا

ما مثله القرد للإنسان، هيئة منفصلة واحتقار دائم.

الجرذان ستأكل عالمنا القديم يا ابن الجوايدة، ستنهش الأحياء والأموات. هنا عرفت الطريق إلى النجاة. ضللت الطريق مرارا. لكني امتلكت بحسن الكلام وضربات الحظ ومساعدة الأرواح المغدورة لأخواتك البنات خارطة كنز. الخارطة مراوغة، سأمنحها لك، لكنها لا تساوي شيئا دون معاونة الدليل، رجل عالق بين الحياة والموت، اعتلى صدر النبوة، ثم تحطمت سمعته تماما، قبل أن يعود إليه صدق نبوته كالضجيج وعضة الناموس وعواء الكلاب الضالة في الليل، خافتا كأعمدة الإنارة الذابلة وكأكياس تطير في الهواء إلى اللا شيء، وحده، مثلنا جميعا، يصارع الجميع بلا رفقة ولا سلاح ولا أنصار، بلا طبقات تتصارع أو عبيد يحطمون آلة السيد. يمكنك اعتباره حيا إن رأيته، وميتا إن عرفت أنه صار نصف مجنون، مهووس، ينكر كل ما آمن به، ابن هواه. اسمه ماركس، كارل ماركس، يعرف طريق الكنز. سر الخلود الأبدي. طريق السيبورغ الشعبي. الخلود هو عملة المستقبل. من امتلكها، امتلك الثراء والنجاة. كل ما أطلبه أن تصل إلى هناك بعائلتي. وكل ما تجده من جواهر وكنوز وأموال هو لك إن أردت".

سخرت من فكرة أن يكون دليلي هو عدو مولانا - ماركس.

سألته إن كان يمكنني العودة من الموت، فلماذا لا تفعل أنت؟

قال بنفاد صبر: *"أنت لم تعبر إلا إلى وهم صممته بنفسي، أملك الكثير من الوقت هنا، والصداقات، أدفع الرّشى أحيانا. أنت عالق في حلم بين الحياة والموت. لقد ساعدني جسدك المنهك من اليأس والانتهاك على هذا"*.

فكرت أن كل ما عليَّ أن أفعله إن كانت تلك هي الحقيقة، أن أنتظر حتى أفيق؛ كي أنفض كل هذا عن نفسي، سأعود لخدمة مولانا طائعا، لكن شيئا في نفسي بدأ ينمو من جديد. الأمل كنبتة ناعمة تنتظر الفرصة لخنقك. سألته: *"من أين يبدأ الطريق للكنز المفقود؟"*.

- نصف الطريق معي.. النصف الآخر مع نخنوخ، هو يعرف أوله وأنا أعرف آخره.. حيث الاتجاهات خدعة، ودرب الأربعين ينتهي في كركوك بالعراق لا مالي. حيث لا يصل بك طريق الحرير إلى الصين، بل إلى درب الأربعين نفسه. أما الدليل فسيعينك على عبور المخاطر والقتلة والعصابات والدم المهدور والأرواح المغدورة.

- نخنوخ، أبي؟

- سيعرض عليك مهمة، اقبلها.

- قال إن هناك مهمة لا يصلح أحد لها سواي.

- بل قال إنك لم تعد تصلح لسواها.. اعذرني لو أن الفارق مهين

للكبرياء.. هذا يجول في خاطرك وأستطيع قراءته.

- ماذا لو قبلت؟

- عليك أن تعرف ضريبة الخلود والحصول على الكنز.

- وما الضريبة؟

- أن تُقتل حقا وصدقا.

- ألم أُقتل بما يكفي؟

- لم تفعل بعد.. محض وهم.

- كيف تخبرني أن حصولي على الخلود مشروط بموتي؟ !

- سأمنحك ضمانة.. أيهما أحب إليَّ.. أنت أم عائلتي؟

- عائلتك.

- اقتل العائلة.

- أنت مجنون.. ترغب في موتنا جميعا.

- لا موت إن نجوت بهم وعبرت إلى الخلود.. هل تظن أني حقا أرغب في إيذاء عائلتي؟

- كل ميت يرغب في إمساك تلابيب الأحياء إلى قبره.

لقد انتهى الوقت.. ستعود الآن إلى عالمك.

- هل تثق حقا في قدرتي على العبور بهم؟ لمَ اخترتني؟ لم تفعل عندما أهديت الخاتم لصديقك كإشارة ليصون العائلة من بعدك.

- أنت ميت حي، لا أمل لك إلا الموت من جديد لتحيا، كما أنك كيس صفن لمعرفة لا أهمية لها إلا في تلك المهمة، كما أسميت نفسك.. لكن سببي الخاص هو أنك نذل. الحياة علمتني أن أحتقر الأنذال.. لكن الموت علمني أنهم يستطيعون النجاة من الجحيم ومن الحياة.

- أتظن حقا بعد كل هذا أني استطعت النجاة؟ لقد خسرت كل رهاناتي!

- لقد انتهى الوقت. تذكر: (الموت خدعة.. الاتجاهات خدعة).

اختفى جادو، اختفى الطريق. تدريجيا اختفى الظلام، وعاد النور ساطعا حد العمى. ثم تبينت من وسط العمى وجه مولانا، كقمر مكتمل، مبتسما لي. اقتربت.

2

وجدت نفسي غافيا على فراش في شقة الحاجة ميمي، في الطابق الثالث عشر. خرجت من الغرفة، فوجدتها تضحك مع ليلى، وزين يلعب بالجوار بحياة لا أثر فيها لعبوس الموت.

ترتدي ليلى تي شيرتا خفيفا دون سوتيان وشورتًا قصيرًا كما اعتادت أن تفعل أثناء زواجنا لتهزم موجات الحر، كيف ترتدي ملابس كهذه ونحن مطلقان؟ كانت متحفظة في بيت جادو، ما زالت جميلة، لكني لا أشعر نحوها بشيء إلا اعتيادية هذا الجسد، أثر الزواج لا البعد.

قالت بأريحية: *"هل أعد لك الإفطار يا حبيبي؟"*. لم أعلق. سعلت ميمي من أثر التبغ الرخيص الذي لا يغادر فمها ولا يدها، ثم شخرت: *"فطار ايه يا علق، إحنا تلاتة الضهر"*. تجاهلتها. طلبت فنجان قهوة، وأشعلت سيجارة: *"نص يومك نايم، والنص التاني مدهول، يا ريتني بركت عليك لما خلفتك"*.

عن أي شيء تتحدث تلك الشمطاء، هي لم تنجبني. أمي هي

عشيقة نخنوخ التائهة، وميمي ليست إلا من تربحت من وجودي مقابل شقة. قلت: *"يا ليت أمي الحقيقية فعلت.. كانت ستسدي إليَّ خدمة كبيرة"*. نظرت إليَّ بازدراء قائلة: *"مجنون"*. وجهها أكثر قبحا وشراسة وقدرة على الافتراس مما أعرفه.

ليلى انصرفت إلى المطبخ، سألت ميمي: *"متى حضرت ليلى إلى هنا؟ هل ستغادر مساء؟"*، نظرت إليَّ باستغراب: *"بسم الله الرحمن الرحيم.. هي الحالة رجعتلك تاني ولا ايه؟"*. ثم توجهت ببصرها إلى سماء السقف، مخاطبة رب السماء: *"يا رب.. ليه حظي عكر في الرجالة.. كده ليا عندك اتنين خابوا.. جوز وابن.. عوض الصابرين يا رب"*، ثم توجهت إليَّ بالكلام: *"ما انت لو ما كنتش تيس زي أبوك. وديني وما أعبد لولاش ابنك لكنت طردتك من الشقة براها يا ابن الكلب"*. قلت: *"أنا وليلى تطلقنا منذ عامين"*.

"الحقي يا ليلى" صرخت ميمي، فجاءت: *"ابن الكلب رجع يقول إنكوا متطلقين.. مش قلتلك مجنون.. بتحبي فيه ايه؟"*.

وجه ليلى يكتم الغيظ كي لا تشتبك مع ميمي، ولا يحمل تجاهي إلا المحبة الصافية والغفران: *"متى عدنا لبعضنا؟"* سألتها متجاهلا ميمي. ليلى تعاملت مع سؤالي باعتيادية، لم تصرخ في وجهي أو تغضب. وجهت كلامها إلى ميمي: *"معلش يا حاجة.. بكره رزق يبقى كويس.. ارهاق وتعب والدكتور قال وارد إنه ينسى"*.

صرختُ: *"دكتور مين يا ولاد القحبة! أنا مش مجنون"*، أمسكت ذراع ليلى بعنف، كدت أضربها، لكن هذا الحنان يئد الغضب ويحيله إلى رماد منثور، فهدأت وشعرت بالندم.

لمحت تلك الصورة في الإطار بالأبيض والأسود، أبي رزق نخنوخ الهواري بجوار ميمي في حفل زفاف، لم يكن بقوة وبهاء الفيل كما اعتدته، بل ممصوص الدم ونحيلًا. ثم رأيت صورة أخرى تجمعني معهما طفلا، على وجهي ابتسامة لم أرها منه من قبل، ابتسامة محبة مكرسة لي وحدي، يضاعف من وهجها الإرهاق والتعب. لا شيء مميز في الابتسامة إلا البساطة الآسرة. أكنت تخبئ محبتك لي في صورة، تكدسها كعطر؟ كان وجه ميمي لا يزال بريئا، لا يخفي شيئا وغير ناقم على شيء، هل أكسبتك الأيام الشراسة أم أن الصورة كاذبة؟

هجمت عليها كالمجنون: *"نخنوخ ما يتجوزش قحبة زيك"*، صفعتها وركلتها بقسوة. ليلى حاولت منعي: *"ماحدش يعمل كده في أمه"*، ميمي نشبت أظافرها في عيني وفي وجهي، عضتني وهي تصرخ: *"هرجعك الخانكة يا ابن المجانين.. يا اللي عايش على عرق مراتك"*.

لم أبال بذعر زين، وواصلت الشجار والصراخ. ليلى التي ركلتها بعيدا، انضمت للكورس في الخلفية: *"حرام عليك يا رزق.. هتموت*

في إيدك.. هتضيع نفسك وتضيعنا". يدي ضغطت بقوة على رقبة ميمي. تذكرت قول جادو: (اقتل العائلة)، هل تحسب ميمي من العائلة بصورها الملفقة وادعائها الأمومة؟ انتبهت لما أفعل، أرغب في قتلها فعلا، أكنُّ لها كراهية قديمة وأزلية، أبعد من استفزازها وتزويرها لحياتي، هذا الغضب له جذور قديمة، لا أدركها حقا. أفلتها وذهبت إلى زين، احتضنته لأهدئ من روعه، ميمي ما إن استعادت أنفاسها، حتى هتفت: *"بره يا ابن الكلب ما أشوفكش في بيتي تاني"*. ليلى ضمتها بين ذراعيها لتهدئ من روعها.

ظل المشهد -هكذا لدقائق مرت كدهر- ميلودرامي فاقعا، سكت صراخ زين، ولم يتوقف بكاؤه. عدت إلى الغرفة، بحثا عن شيء أرتديه للمغادرة بحثا عن عالمي. وجدت ملابس ليلى كاملة في الدولاب، ملابسها الداخلية، حليها الرخيصة. غرفة نوم لزوجين. دخلت ليلى احتضنتني وقبلتني، اعتصرت مؤخرتها بيدي. هذا جسد اعتدته حد الزهد، نحتاج إلى الكثير من الجهد؛ كي نعيد اختراع الحب واللذة.

قالت: *"كل شيء سيصبح على ما يرام"*. سألتها *"كيف عدنا إلى بعضنا؟"*.

أجابت بابتسامة: *"لم نفترق يوما"*. ثم همست لي بمرضي، لم تجعله جارحا، بل عاديا كنزلة برد. حكت لي عن إعادة اختراعي

للعامل نخنوخ، الذي أكلت الآلة روحه، وأسلمته للمرض وتوفي شابا. مولانا، الرجل العملاق النافذ كفيل. تحكي لي عن سبعة بنات لا وجود لهن، يكلمنني وأكلمهن، هن من دللنني على أبوة مولانا المفقودة. عن أبيها المتوفى جادو، الرجل نصف الثري، الذي حارب زواجها من فقير مثلي، وطاردني في عملي ورزقي، قبل أن ننجب زين فيرق. لكني لم أسامحه أبدا. ورفضت عروضه بالمساعدة، أتحدث دوما عن كنز كبير أخبئه بمساعدة أب لا وجود له أسميه مرمم الأجساد، في أرض افتراضية لا وجود لها، أسميها طريق الحرير Silk Road، أقضي في لعبها ساعات بلا عمل ولا نوم ولا انقطاع، أخبرك أني أملك ثروة لا تقدر بثمن، أستشيرك في قضاياها، فتشيرين، كأنها حقيقة، وكأني أحارب من أجل ثروة حقيقية.

أحدثك عن عملي الآخر، كنخاس عبيد وقواد وسمسـار متعة. تقولين إني كنت سمسـارًا رائعًا للعقارات قبل أن أترك كل شيء، كانـت عبارتي المفضلة: *"الوسـيط هو أفضل المهـن، لا يغامر بالخسـارة، يربح دائما"*. قبل أن أترك كل شـيء وأقرر أني أدير حلبة رهانات كبرى لصالح مولانا منكرا وفاته وفقره.

تحليت بالهدوء وأنا أستمع إليها. أحب شفاه ليلى عندما تتحرك، وتنفث الكلام كما أنفث دخان سيجارة. قناعتي أن الهلاوس مستمرة

والتيـــه ما زال قائما جعلتني أكثر تماســـكا وهـــي تخبرني أن كل شــــيء في حياتي هو رواية مختل لم تحدث. مر شبح جادو مسرعا كطيــف فلم أخبرها. ارتفع كورس أخواتـــي البنات: *"اقتل العائلة. اقتل العائلـــة. اقتل العائلة"*. بدا لي لحنا رائقـــا وصائبًا. لا موت، قتلهم لن يكون حقيقيا في حياة من الهلاوس، لكنه ســـيكون طريقي للخروج من فقاعة التيه تلك إلى عالمي حيث الصخب سيد، ومولانا إلـــه، وهركليز عبد، والكمبيوتر العملاق أبي. هذا عالم أعرفه كما أعرف كفي، وأتحرك فيه بأريحية رغم أذاه. ســـأحصل على الكنز مـــن جديد. لا كفر بعـــد اليوم بالفردوس، ولا إيمان. فقط ســـأتابع الطريق إلى سرابه المجيد.

تابعت حركات شفتيها بشغف، ثم قَبَّلتها، لا لتصمت، بل لاستعادتها من أثر اعتياد الزواج. هذا الجسد سر إعادة اختراعه لثم شفتين تتحركان، ربما الخد والعنق، التمرير الناعم لليد على الشعر المنسدل. مررت بيدي على رقبتها، ثم انتقلت إليها بشفتين مبللتين بالحب. هي تحب أن أُقبلٍ هذا الموضع في عالمي الحقيقي والمختل. بلساني داعبت حلمة أذنها، تلك الرقة تدغدغ. خطتي بسيطة، أفك أسرها من الخجل، فتتحول إلى وحش كاسر يقود المتعة على الفراش بلا قيود.

لكن زين دخل الغرفة. كف عن البكاء واستعاد البهجة. ضحكت

ليلـــى خجلى، وغمزت إليها بشـــقاوة. *"إنت نوتي عشـــان زعلت ميمي"*. ابتسمت له: *"هصالحها وأصالحك وأصالح ماما"* فتحت له ذراعي، فجرى نحـــوي، احتضنته وهدهدته. تململ زين بعد ثوان من اعتصاري له. أنا أحبك حد الرغبة في التهامك، لتســـري في، كي لا تفارقني لحظة.

نظرتُ إلى ليلى مبتسما وهادئا: *"إخواتك وماماتك وحشوني.. اعزميهم النهارده على أكلة سمك وجمبري جامدة"*.

نهضت والتقطت بنطالا وتي شيرتا وحذاء. خرجت من الغرفة متوجها إلى الحاجة ميمي، قبلتها في جبينها قائلا: *"سامحيني"*. قالت وقد راق وجهها قليلا: *"يا ابني أنا مش عايزة غير مصلحتك، انتبه لنفسك ولابنك"*. طمأنتها كاذبا. بنت القحبة، مدعية الأمومة. سأقتلك باستمتاع حقيقي، وسأحرص على ألا تحصل روحك على النجاة، سأتركها شاردة مغدورة، تهيم في أرجاء الشقة في الطابق الثالث عشر في جحيم الوحدة والملل.

3

الشوارع كما أعرفها، لكنها لا تؤدي إلى شيء، قصر البارون إمبان في مكانه، ولا شيء مكان قصر مولانا سوى الخلاء المخيف. صرخت على مولانا أن يظهر، لكنه لم يفعل، محاولة يائسة وأخيرة قبل أن أنفذ مشيئة جادو بقتل العائلة. أرى طيف جادو في كل مكان. شبح هاملت لم يكن لحوحا. *"أنا شبح أبيك"* ثم لا شيء، يترك هاملت لجنونه وتردده وذكرى الصوت تنخر روحه وعقله كدودة. لكن همس جادو *"اقتل العائلة"* يحاصرني بلا توقف، يستعين بكورس البنات، مبتزا إياي.

في الخلاء جلست، مستسلما لصخب العويل والرسائل. في الخلاء حسمت أمري وعرفت قدري. في الخلاء وجه مولانا الخفي. منه سأصل إليه بالتجرد والقرابين، بالتنزه عن كل أمل إلا قربه. في الخلاء رسمت طريقة القتل والخروج من التيه. هاتفت ليلى فأكدت لي أن العائلة كلها في انتظار العشاء. عشاء أخير. أنا مسيح ويهوذا. نبي وخائن. سيد وعبد. أنا لا شيء، مسار جديد للعبة جديدة، لا خير ولا شر. دليل لنبع بكر لم يمس. اقتل العائلة. اقتل المسار. هذا ثمن

غال. لعلك ترضى يا مولانا. وحدك تعرف المهمة الحقيقية التي يخفيها ظاهر الأمر، سأقبل بها.

غادرت الخلاء إلى السوق. اشتريت وجبة سمك فاخرة وسكينا طازجا في نصله المحبة التي أكنها للعائلة، أستعيد من الذاكرة القدرة على اصطياد الأرواح. لا أحتاج الكثير. لا أملك إلا الطرق البدائية وتقبل فرص الفشل.

تسللت إلى المنزل مخفيا السكين. ليلى وفردوس والبنات جهزن السمك. بينما مكثت في غرفتي، أجهز نفسي بصلاة من اختراعي. صلاة من صمت أمام مرآة، فلا أعرف إن كانت لي أو لإله أو للأشباح المختبئة في المرآة أو لمولانا. عبرت أرواح أخواتي البنات في المرآة. نظراتهن تمنحني الشجاعة، لإتمام الحفل. يخبرنني أني سأعود للحقيقة وأنجو من الهلوسة بقتل عائلتي، وأن الجرح لن يؤلم أحبائي. يشق جادو الطريق بينهن ويذكرني بدرة الجواهر- زين. لا تنس درة عيني. فأرتجف وأفيق. كيف أمس ابني بجرح ولو كان وهميا! ذبحه لا يقتل العائلة، ذبحه يقتلني. *"هو العائلة"* يهمس شبح جادو اللحوح. ذروتها وتجليها. نقطة الالتقاء. ابن الجوايدة والهوارية الحق. مستقبلها الحي، جامع أرواحها في روحه، إن لم يعبر فلا عبور. سمعت صوت زين يضحك، فخرجت. صوته يرج روحي رجا. راقبته صامتا. ثم رأيته يشق طريقه نحو الشرفة.

المكان المحرم. أخشى عليه دوما من السقوط من السور الحديد الذي يسمح بالتسلق. لو كنت أعيش هنا حقا لا في هلوسة، لكنت حولت سور الشرفة إلى حائط من الإسمنت. أطمئن دائما لإغلاقها، فيده أضعف من إدارة مزلاجها. لكنه نجح. انزلق إليها فرحا بانتصاره الصغير، كانت المحاولة الألف لاقتحام المكان المحرم. قلقا -لكن دون أن أخفي إعجابي بإصراره ونجاحه- هرعت إليه.

اقترب زين من السور، وضع قدمه الصغيرة على أول عتباته. أي عاقل يعرف أنه لا ينوي القفز، بل الفرجة على المارة بشكل أفضل. لكن من قال إن الأبوة فعل عاقل! كل شيء في تلك الشرفة مخيف. الطابق الثالث عشر، يجعل الهواء ريحا وموجة البرد صقيعا، يقصف السجائر قبل أن تدرك لذتها، ويضاعف إحساسك بالنبذ والعزل، تدخن وأوصالك ترتجف. أنظر من أعلى، ولا أرى إلا السقوط، ولا أشعر إلا بالدوار والغثيان، ولا يتراءى أمامي إلا أحد أقاربي الذي سقط صغيرا بجواري من الطابق الرابع، وأنا ألعب كرة في الشارع، وعاش عمره كله بمشكلة في عقله وتهتهة في لسانه، لكنه حظيَ في النهاية بفرصته في استكمال الحياة. أما من الطابق الثالث العشر فلا فرص هنا إلا الموت. الموت!! إنه شديد الابتذال، كل الطرق تؤدي إليه.

قرفصت على الأرض في محاولة مني لإلهاء زين عن سور

الشرفة الملعون. أغويته بنقطة ضعفه الأكيدة وكذبتي الدائمة: *"سأحكي لك حكاية"*. دائما ما أفشل في أن أقص عليه حكاية كاملة من الذاكرة. ذهني ينشغل فجأة بكل شيء عدا الحكاية: أمل الفردوس، تحضيرات رهانات الموت، حقدي على ناجي والكراهية المبطنة بالمحبة له ولمولانا، جسد نفيسة البيضاء، جسد جديد أعمل على كماله، فلا أملك إلا أن أقص عليه مشاهد ساذجة ومبتورة ومشوهة، للاشيء. لا أفشل أبدا في إضحاكه، لكني لا أروي له قصة مكتملة أبدا. هل يهبني الغفران حين يكبر ويدرك الخدعة؟ الأبوة العاجزة المليئة بالمشاعر دون أفعال حقيقية هي فخ وخطيئة. لعل مولانا كان على حق حين قرر -وهو الحكاء البارع- أن ينكر حق البنوة، ليبني إمبراطوريته، ليملك حكاية واضحة مكتملة وعظيمة.

عينا زين على سور الشرفة، وأذنه في انتظار الحكاية. لم يأت ذهني بشيء واضح. فقلت: *"هل تعلم ما الذي سيحدث لو سقطت من الشرفة؟ ستختفي تماما، لن أراك ثانية"*. فيقول: *"أختفي زي جدو، وأروح عند ربنا"*. فأخبره: *"نعم.. تماما، ستختفي مثله، ولن ترانا ثانية، لن يصبح هناك بابا أو ماما، أو الحلوى أو فردوس أو ميمي"*. يجيب ببراءة: *"أنا عايز أروح عند ربنا عشان أشوف جدو"*.. أقول ملتاعا: *"بعد الشر عليك يا حبيبي"*. فيسأل ببراءة: *"هو عند ربنا مكان وحش؟"* أجيب حائرا بالإجابة الاعتيادية: *"لا.. لا.. هناك كل شيء طيب.. لكني لن أكون معك"*.. يقول: *"لو رحت*

هناك هرجعلك.. *هتشوفوني سحري زي جدو*". يلتمع الإغواء أكثر في عينيه، فأتيقن من غبائي، وأني زرعت في ذهنه لتوي فكرة لم ترد على باله: القفز. ظل يعدد القافزين من الشرفات بلا موت، مبروزا بطله المفضل: سبايدر مان. يشرح لي الأمر ببساطة: "*إنت لو جبتلي البدلة بتاعت سبايدر مان، لما أنط البدلة هتطلع خيوط، مش هتخليني أختفي، وهعرف أرجعلكوا تاني*".

لم أجد ما أقوله. احتضنته، وخرجنا من الشرفة، كميت يمسك بتلابيب الحي. لم أستسلم لبكائه، تأكدت من إغلاق الشرفة جيدا كدفاعي الوحيد الواهي. ثم جلست قريبا منها، كي أحصنها. سرعان ما أسعفتني ليلى عبر إلهائه بلعبة مساعدتها في المطبخ.

ظهر شبح جادو من جديد، ليذكرني بالمهمة. ويثني على شراء سكين. سكين لا يصلح إلا لذبح فجائي لشخص واحد لا لعائلة، إلا لو خدرتها، ولم أجلب أي مخدر لأدسه. لن أقوى عليهم وحدي بسكيني. كنت أداهن وعيي وأخادع أمر القتل. لكن ثناء جادو، كشف الحقيقة، كنت أعلم. هو لا يرغب إلا في زين، لو حصدت روحه، لحصدت معها أرواح العائلة. ما إن فهمت، حتى توقف عن الظهور، ردد عبارة واحدة قبل اختفائه: "*من أراد حياة قلبه، فلن يصل إليها إلا بذبح نفسه*".

أُعدَّ السمك، فجلسنا. يضحك الجميع، ولا أشارك إلا بابتسامات

مزيفة، أحاول يائسا مداراة شرودي، لا تلتئم بعقلي إلا فكرة واحدة: أأقتل ولدي قربانا حتى لو في هلاوس؟ أدركت أن ميمي تسخر مني. تدافع عني فردوس بقوة. فردوس جميلة وطيبة وتستحق القتل كي تغادر قمقم الهلاوس إلى كنز جادو المفقود. علي الشقيق الضائع، يأكل مثلي في صمت، لكن دون ابتسامات. وجه جامد بلا علامات. *"شد حيلك يا علي في الجامعة، وليك عندي الواسطة اللي تشغلك في شركة أو في بنك، ما تخيبش خيبة جوز أختك"*، قالت ميمي.

مائدة العائلة. طعام مسموم وضحك زائف. أحضان تخفي التوتر والكذب.

أنهيت الوجبة. ثم انتظرت الشاي. لكن في الحقيقة، كنت آمل أن يغفو زين. لن أمسه، سأمسه. سأقتلهم أثناء نومه، سأقتله أثناء نومهم؟ عدت إلى غرفتي بحثا عن السكين، فلم أجدها. ليلى ظهرت وبيدها السكين: *"تبحث عن هذه؟"* فزعت لمرآها. كانت شبحا لا جسدا، روحا مستعدة للقطف. قالت: *"جادو شرح لنا كل شيء عبر منامات ملغزة كبازل، جمعناها عبر ليال متفرقة وفهمناها، من يفهم إشارات جادو أكثر من بناته. مستعدون"*. سألتها: *"وزين؟"* قالت ببساطة: *"هو درة العائلة، الترس الناقص، من دونه يفسد كل شيء"*. أخبرتني أنه سألهن على نهاية الحلقة الأخيرة من المسلسل التركي،

شاهدناها من أجله على اليوتيوب، لكن كلما أخبرناه، أصاب الصمم أذنيه، وهدده شيء غامض بالنار.

خرجت من الغرفة، يدي اليسرى تقبض على يدها بقوة غريق يتشبث بمنقذه. ويدي اليمنى تقبض على السكين.

لم أتعجب عندما وجدت ليلى بجسدها تجلس مع الآخرين وتضحك وتثرثر، رغم أن روحها تقبض على يدي وتسير بجواري. ثم رأيت أرواح الجالسين عدا ميمي وزين، تغادر الأجساد وتمسك سكينا مماثلا على رقبة كل جسد ضاحك ومثرثر. قالت روح ليلى: *"العائلة مستعدة. عليك أن تطلق الإشارة"*.

والإشارة كانت زين، أمسكته برفق، حتى لا تخيفه سكيني. تضع العائلة دوما ثقتها في الجلاد، يحمي شرف العائلة، ويقرر من يعيش ومن يموت وأي طريق يسلكون. أغويت زين بالشرفة. فتحتها ودخلنا. كيف يمكن شرح الأمر لطفل خارج سياق الخير والشر؟!

قتلي لك شر ظاهر. لكن من قال إني أقتلك. لا موت في وهم يا زين. فاغفر لي. في الشرفة مررت على رقبته بسكيني. فلم ينزف. بل ضحك، كأني دغدغت رقبته. ليس إلا. نظرت إلى يدي فوجدتها فارغة، السكين اختفى. لم يكن هنا. نظرت إليهم بالداخل، فرأيت رقاب العائلة تفرفر مذبوحة بلا صوت ولا دماء، لقد نحرت الأرواح أجسادها وتحررت. يطن في أذني حفيف رامبو: *"هذا*

مفرط الجمال! مفرط الجمال! وضروري!". ميمي تشرب الشاي وتدخن سجائرها كأن لا شيء يحدث.

اعتصرت زين حتى آلمته، وبكيت حتى أبكيته، أصرخ وجسدي يرتجف، فيلهم المسكين فزع عدم الفهم: *"اغفر لي.. اغفر لي"*.. ملعون من ألهمني أن أمسك بسوء ولو في هلاوسي.

تحركـــت الأرواح نحوي مبتســـمة. تطالبني بـــأن أنفذ وعدي لأنجيهم، ويشـــيرون إلـــى رأس درة العائلة، زيـــن النهاية رزق نخنوخ الهواري. تراجعت للوراء، فتحولت الابتســـامة إلى غضب مخيف ومنذر: *"لو لم تفعل، لفعلنا"*. أمســـكت ولدي الباكي، رآهم معي ســـحريين كما رأى جده. هذا وهم. تســـلقت السور الحديدي للشـــرفة، وهو في حضني، ســـمعت صوت صراخ أجساد العائلة وفزعها تحاول منعي عن القفز، قفزت وفي حضني زين هربا من أرواحها.

4

هبطت إلى أرض واسعة دون زين. الزحام من جديد الكل فيه تائه. تكشفت الرؤية رويدا رويدا، عن وجه مولانا مبتسما كسراب في نهاية الطريق. على جانبي الطريق اصطف سكارى ومبتهلون إلى اللـه فقدوا أولادهم، يرتدون خرقا صوفية، ويرددون الأوراد التي يقودها بلطجية في ذلة. الأبناء هم كعب أخيل الرجال. لكنها محبة زائفة، لا يغرم الآباء بالأبناء إلا غرامًا بالجزء الميت في أرواحهم، والذي لا يكف عن طلب الخلود.

ماذا لو كان كل ما سبق -كل ما يلي- ليس إلا رواية مختل؟! كل شيء فقط في ذهني، ولا وجود لمولانا أو مرمم الأجساد، أو جادو أو عبد المولى أو نفيسة البيضاء أو العائلة.

وجه مولانا يحل محل قرص الشمس، لا أطيل النظر إليه، فتحترق عيني. كيف أمسك الشمس إلا بالذوبان فيها، محترقا وشهيدا في رضاها. أفلت من زحام إلى آخر في شوارع لا أعرفها! صرخت على وجه مولانا، فلم يسمعني. وجدت مبنى عاليا. قلت سأطلع إلى سطحه؛ كي يسمعني وينجيني من المتاهة.

ما علامة الطريق؟ رأيت رامبو من جديد، مرتديا حلة فريد الدين العطار، الرجل مقطوع الرأس: *"يقول علامة الطريق أنه بلا علامة"*. ثم عاد لينشد من شعره: *"بدت لي حيوات أخرى عديدة مرصودة لكل نفس، لم أنس أي من سفسطات الجنون، الجنون الذي يحجر عليه: أقدر أن أعيد قولها كلها، فأنا أمتلك مفتاحها.*

صارت عافيتي مهددة. أقبل الهول. رحت أسقط في النوم أياما عديدة، ولدى الاستيقاظ أواصل أكثر الأحلام اكتئابا. كنت ناضجا للوفاة، وعبر درب محفوف بالمخاطر، قادني ضعفي إلى تخوم العالم، إلى سيميريا، موطن الظلمات والدوامات".

في المصعد بدت لي الطوابق لا نهائية. فوق سطح المبنى، صرت أقرب إلى الشمس. صرخت ملتاعا: *"زيبييين.. زيبييييين.... زيبيين"*. صراخ بلا صدى، صراخ لا يخترق جدار الصخب، يصعد، فيذوب، فيفنى بلا أثر. لقد حصد مولانا ما أراد. محرك جادو، محرك الأحلام، زمبرك الهلاوس، قرص الشمس.

اختفى المبنى العالي، وجدت نفسي مع انحسار الظلمة وانكشاف النور في قصر مولانا، وبجواره ناجي يضحكان ويهنئان أنفسهما على نجاح التجربة، يمسك ناجي جهازا في يده، ويستعرض كل ما مررت به منذ اختفاء بيت ليلى حتى وصلت إلى هنا. هكذا أدخلتني يد مولانا في التجربة، آلة لصناعة عوالم افتراضية وهلاوس لا

فارق بينها وبين الحقيقة. تلفتت حولي أملا في أن أجد زين. يعلم مولانا ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسه: *"لن تعثر عليه بالتلفت خارجك"*.

أخرج زجاجة نبيذ. قال: *"هنا كل شيء. أرواح العائلة المغدورة. زين وأمه وخاله وخالاته وجدته، ماذا يسمونها؟ فردوس؟"*. فتح الزجاجة، فهوى قلبي بين ضلوعي. صب كأسا من نبيذ الأرواح، شفاف كالهواء، ورائحته حلوة كالتبغ الممتاز. أرواح لا غدر بها ولا زنخ. لو لروحي رائحة، لكانت سيئة كرائحة القطران.

مد لي يده بالكأس، فقبلت. شربت روحا بعد روح. وهو يتأملني رشفة بعد رشفة، يثرثر فلا أسمع إلا سكر روحي ونشوتها. ما التقطته من كلماته قد لا يكون حقيقيا أبدا، قد يكون ما رددته روحي السكرانة، وقد يكون كل الحقيقة. كلمات مبهمة يقولها وهو يجلس جلسة الفيل، ويدخن سيجاره. أنا ميت، سقطت من الشرفة مع ولدي، بعد أن قتلت عائلتي كلها. الهلاوس حقيقة، والحقيقة هلاوس. يعذبني مولانا بنظراته اللامبالية. يخبر ناجي أنه سيربح الملايين من جهاز صناعة عالم افتراضي، متاهات من الاستعراض مصممة سلفا. سيكون درة الألعاب الكولسيوم الروماني. مصارعون يواجهون أكثر الوحوش ضراوة: أنفسهم. أرى على الشاشات قرية زاوية النجار وهي مسخ بين القاهرة وروما. الكولوسيوم منتصب وينتظر الاحتفالات الكبيرة.

انتهيت من شرب أرواح عائلتي، المقايضة الأخيرة التي يملكها مولانا: *"نفذ مهمتي مقابل أن تنقذ عائلتك"*. ظهر مرمم الأجساد وبصحبته فريد العطار ذو الرأس المقطوع، وليزا العاهرة وهركليز والطفل الصيني الذي لم أعرف فائدته أبدا. تقدمت ليزا فنحرت عنقها بسكين، وكذلك عبد المولى والصيني. شربت أرواحهما بعد أن أذيبت مع عظمة فانجا. تغلبت على نفور الرائحة رغم جمالها، فتلك الأجساد المقهورة لا تنتمي إليَّ في النهاية. قال مولانا: *"هذا زاد طيب للرحلة.. قوة هركليز، وذاكرة ليزا، ونبوءات فانجا"*. لم أسأل عن الرحلة ولا المهمة. سأقبل أيًا كان ما يطلبه. لا مسار لي إلا طريق الموت من جديد. مرات ومرات. أنظر إلى أبي مرمم الأجساد، فلا أجد حياة في عينيه. لا أبحث فيهما عن ثورة بل عن لحظة شفقة أو تعاطف. لا شيء إلا برود الآلة.

أشار لي مولانا بالاقتراب. همس لي بالمهمة: "*جد ماركس. ثم اقتله. الكنز لك. والأرواح ستعود إلى أجسادها إن نفذت ما طلبتُ*". لم يبد عليَّ أثر المفاجآة. لم أعطه حتى علامة قبول ولو بهز الرأس. أخبرني جادو أن ماركس دليلي للكنز. ويخبرني مولانا أن طريقي للكنز وعودة زين والعائلة هو بقتل دليلي.

أشار إلى الحكيم، فأمسكني بيد وفريد العطار بيد. ألقيت نظرة أخيرة على ناجي. عائلتي بأكملها، فداء بهائك، قتلتها لأعبر بها رحلة إلى مجهول، فقط كي تستمر مرفها ومتسلطا في حضرة

مولانا. لكن ما أنت إلا كبش يسمنه مولانا؛ حتى يضيف إلى عمره الخلود. أنت فأر تجاربه الحلو، وأنا فأر تجاربه السيئ.

أعاد ناجي تشغيل آلة الهلاوس. اختفى القصر. رأيتني في خلاء يمرق وسطه نهر عظيم وبصحبتي حفار القبور وفريد العطار، وبداخلي أشعر بحفيف أرواح العائلة. جسدي الميت، هو خزانتها وأملها الأخير. عرفت أي نهر من إشارة جادو: نهر الديالكتيك. نهر ماؤه من نبيذ الأرواح، بالغرق فيه تبدأ المهمة. قال الحكيم: *"ما إن تغرق في النهر، حتى تصل إلى أشد أعماق العالم الافتراضي خطرا وفوضى"*. سألته: *"ماذا صرت يا أبي؟"* لا أتحسس بسؤالي إجابة، قدر ما أتنسم أي أثر للحياة. يجيب ببرود: *"أنت مثلي.. آلة، بضاعة، أما كفاحي وكفاحك، دم العائلة وهركليز وليزا والصيني. تلك أشياء لا يراها مولانا. لست بالنسبة له إلا آلة بلا روح. مهمة ستنفذها بلا خيارات أخرى. لم يكن الأمر أبدا وليد الصدفة أو نزوة مفاجئة، لقد أعدّك منذ البداية لمهمة كتلك، لم يحافظ على حياتك إلا ليدفعك لموت شامل ونهائي، موت ذي فائدة"*.

لم يتغير في ملامحه شيء، كلماته المتعاطفة لم تكن إلا إقرارا لحقائق جامدة. أنا ميت مثله، ولا أمل لي إلا بالقفز في النهر.

كان فريد الدين العطار يهمس أثنـــاء امتزاجه بروحي بكلمات غامضة، ميزت من بينها: *"وأَســـرُّوه بضاعة"* التي كررها كثيرا،

كان قد ربــط قدمي في بكرة غزل، حتى أعــرف طريق العودة. أأذهب إلى مجهول وكل أملي في خيط وآه؟ رددت: *"ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك"*، ثم قفزت في النهر. ثم قلت في نفسي: ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك؟ هل فعلت؟ بينما تصرخ الأرواح داخلي، بسؤال الطيور في منطق الطير: *"نحن حفنة من الضعفاء والعجزة، وقد عدمنا الريش والجناح والجســد والمقدرة. أنَّى لنا أن نصل إلى السيبورغ ذي القَدْر الرفيع؟!"*.

الفصل الرابع

الخروج

نهر الديالكتيك

1

غصت في نهر الديالكتيك في غمضة عين كأنها دهر، وكدهر مر في غمضة عين، حارسا لأرواح العائلة. مجازي الأخير، ولا حيلة لي إلا أن أتنفس أسيرا له. هاجمتني الكلمات كوحوش ضارية وأرواح مغدورة، لكنها قبل أن تصل إلى جسدي، كانت تتلاشى كفقاعات ملونة. الكلمات لا شيء، والمعرفة كذلك. رأيت ساعة ضخمة لفت عقاربها في جنون قبل أن تتوقف عقاربها فجأة عن عض الوقت في استسلام وسكون.

عبرت متحملا فزعي من البلاغة التي تصنع عالما من الوهم، من المعرفة، من الديانات، من العادات، من الثورات، من الهزائم،

من المنتصرين، من الآثام، من الفلسفة، من التاريخ، من القتلى والقديسين والشهداء، من النثر والشعر، من العظمة والرداءة، هكذا كان اغتسالي لعبور القيامة: بصقة كبيرة. ثم غلى الماء حتى أحرقتني حرارته، تحول في ثوان إلى بخار، فعبرت سالما رغم ذلك.

لم أعبر إلى شاطئ بل إلى قبر، فتحت بابه، وصعدت منه إلى نهاية العالم. هذا ملائم، استكمال طيب لمسيرة ميت يطارد ميتًا. بحثا عن الأمل. أشعر بأنفاس وونس العائلة، في الأغلب يسلون أوقاتهم بشرب الشاي والنميمة وألعاب الورق. كيس صفن العائلة. أسمع عبد المولى يضحك، ربما يداعب سارة أو جيهان، لقد ذاب خجله سريعا وسط العائلة. الجنون.

أسير إلى الصخب. طريق تضيئه النار وموسيقى تشعل رغبة الرقص في الجسد. أشعر بالخفة، كأني أخطو بلا قدمين، فمضيت منتشيا بخفتي إلى سراب ظننته شخصا على عرش، اختفت الموسيقى وحل الصراخ، وأدركت أن الطريق متاهة باهتة الألوان، كنت محاصرًا بين جدارين.

همهمات غاضبة. فقدت السراب، فلم يعد هناك هدف للمشي، أو أمل في الخروج، فاستسلمت للسير. من وقت لآخر أسمع صرخات تعذيب واغتصاب أطفال. أميزها بخبرة القواد، سمسار المتعة والجريمة. أضاءت فردوس روحي بقنديل كي لا أجزع. طمأنتها

أن لا حاجة لي إلى نورها الضعيف، فقد رأيت في حياتي وموتي ما هو أكثر هولا من ملاهي بيت الرعب البائس هذا.

أدركت أني في محاكاة ساذجة للجحيم، المتاهة التي صممها مبرمج فاشل، وأسماها الشيطان الحزين. لم يخفني إلا انقطاع أي صوت وصراخ، فيبرز مع الصمت صوت خطواتي؛ ليذكرني أني أسير في لا شيء إلى لا شيء، هنا أتونس بقنديل فردوس، وصخب العائلة. زين يضحك، فأبتسم ونسا. لا شيء يخيفه، ولا حتى الموت. أشعر بأن جسدي زجاج، إذا انكسر انسكبت منه عائلتي، وضاعت للأبد.

مرت صور من أمامي، سـريعة وخاطفــة. صور لقتلة وآكلي لحوم بشـر مشهورين، جون كيندي أثناء اغتياله، لاعب كرة القدم الكولومبي الذي أحرز هدفا في فريقه بكأس العالم فاغتيل، طوائف سرية تمارس طقوسا وثنية، مارجريت تاتشر تحتفي بمغتصب أطفال، تهاجمني رموز وأكواد، أنجـح في حلها لبصيرة مفاجئة في أعين علي الشـقيق الأصغر. كان يخبئ معرفة هائلة، ترجم لي الأكواد: *"أسـتطيع أن أعثر عليك، أنت مدفون وحدك، أنت ضمن قائمتي، اقتـل.. اقتل.. ثم اقتل مجددا، لا نجاة لك إلا بالدماء، الأشـخاص الحزانى يموتون"*. تختفي الصور، لتظهر أمامي أجسـاد متعفنة، يأكلها الدود. ثم أرى دماء طازجة تتساقط، ويعود الصراخ، لا أرى

القاتل، لا أرى المقتول، أسب الاثنين. لا شيء يخيفني إلاي. رأيت نورا خليلة مولانا القاصـــر، تلعب بدمية، كطفلة، تراني فتمد يدها إليَّ كإشارة استغاثة. اقتربت، مددت يدي، كانت الإضاءة مرتعشة وذابلة، ما إن لمســتها، حتى امتزجت صرختها مع صرختي وهي تغرس أظافر كالسكاكين في يدي، وصارت ملامحها شيطانية تماما كجوهر الأطفال وكأفلام الرعب الرخيصة. ذعرت للحظة، وسمعت بكاء زين، هل جوهره شيطاني أيضا ككل الأطفال؟ كرامبو؟ لكني ســرعان ما غرقت فـــي الضحك، وهتفت في ســقف المتاهة التي كالســماء *"أهذا آخر ما عندك؟"*. عادت نورا لطبيعتها، وانشغلت باللعب بالدمية، فتجاوزتها. كانت رغم الألم المغروس في يدي من أثر أظافرها، محض صورة، لا حقيقة. لكن لا فارق في العالم الجديد أو القديم بين الصورة والحقيقة.

مررت على دوائر الجحيم التسع: رأيت صورة عذابي فيهم جميعا. ثم توقف كل شيء فجأة، عمت أنوار ملونة ومبهجة. رأيت السراب جالسا على العرش، وهم يمكن إمساك لحمه المحترق. أعرفه: الشيطان كحدث لم يحدث، بائسا وحزينا ويتوق للتسلية، بتصميم لعبة رعب فاشلة تذكر بالخطايا والقتلة.

كان مشغولا بتدريب براغيث على عرض راقص يرتدون فيه ملابس سيدات ورجال في رقصة فالس. رأيت مدينة تلوح، تشبه عالمي، وعي مقلوب لعالم مقلوب، أول علامة فيها خيمة سيرك،

ومهرجون وحيوانات مرحة ووحوش مروضة.

قال الشيطان، مدرب البراغيث البائس: *"ها.. لدينا أحمق نجح في العبور، لم يكمل أحد لعبة الشيطان الحزين من قبل"*.

قلت مستخفا: *"خيالك بائس"*. قال: *"لا خطوة ستخطوها لم يصممها خيالك.. أنا لست هنا حتى.. أنا من يملك حق الشكوى الآن"*. قلت مدعيا نبرة تهديد لعوب: *"خيالي؟ إذنْ لو أنكرتك لمحوتك"*. ترك الشيطان براغيثه الراقصة، تقدم نحوي بغضب لم يغير من ألفة ملامحه وسذاجتها. أمسكني بلحم ذراعه المحترق من رقبتي، نظر إلى عيني طويلا، بحقد بدا واضحا، كان يخنقني، لم يسعفني عبد المولى، كان يتفرج في فضول منتظرا ما سيسفر عنه غضب الشيطان الطفولي وهو يقول: *"ماذا يتبقى من كل هذا لو أنكرتني؟!"*. قلت بصوت مبحوح: *"لا شيء"*. أفلت يده، قائلا: *"لو لم يكن الشيطان هنا، سيكون كل شيء مباحًا"*. سعلت ثم سببت عبد المولى الذي أطلق ضحكة طفولية لا مبالية، ثم عاود المرح مع كوتشينة العائلة.

سألت بحذر تلك المرة: *"إن كان كل شيء من خيالي، فكيف لا أملك أن أقفز من المتاهات السخيفة إلى كنزي مرة واحدة؟"* رد بهدوء: *"لا خيارات للموتى.. يتبعون ما سبق وصفه، ويعانون القدر"*. ثم أشار إلى الطريق، خيمة سيرك وأضواء ملونة. ثم

أعطاني براغيثه، فعلمت أني سأدخل عالمي الجديد بمهنة الشيطان البائسة؛ مدرب براغيث.

2

في الشارع، أديت فقرتي بمهارة من ولد ليدرب البراغيث، يرى الناس لعبتي المنمنمة فيضحكون، أهذا ما جئت إليه؟ الاستعراض!

لم تكن تلك المدينة إلا زاوية النجار معزولة عن العالم، كما وصفها لي مقرئ القرآن، تكسب قوتها من فنون الاستعراض، ولا يحل لها سوى بيع المتعة التي يشتريها مولانا عبر عروض الكولوسيوم الروماني، الذي أنشئ مماثلا لنسخته الأصلية، معتمدا على استنساخ جينات المدن.

لكن المتعة لم تكن الوجه الوحيد؛ فعلى الجانب الآخر، رأيت فيها معسكرات تعذيب للماركسيين والثوار المحتملين من غير الماركسيين، يرتدون شارة صفراء لتمييزهم، رسم عليها شعار الحزب الشيوعي المطرقة والمنجل. محاصرون بالذلة من أجلاف يرتدون علامة مولانا-الفيل، يسوقونهم إلى عمل شاق وعبثي لا ينتهي، يعيشون في جيتو كمخزن لحطب نار المتعة، حيث تأكلهم الأسود وينحرهم المصارعون في عروض الكولوسيوم. الفائض منهم عن الحاجة، يقاد إلى أفران الغاز لتزجية الوقت.

جائزة بائعي المتعة في شوارع زاوية النجار، هي اختيارهم للأداء في الكولسيوم. لا يقع الاختيار على أي مؤد، الأفضل والأغرب فقط، من قبل لجنة تسمى لجنة المتعة. عرفت أن رئيسها هو سمير جادو، الذي أنكرني حين رآني.

تعمل اللجنة -التي تسمى أحيانا بشرطة المتعة- دون قوانين أو أسباب واضحة، فكما تتخير الموهبة والغرابة، يمكنها فجأة أن تحولك دون خطأ ارتكبته إلى أحد العبيد المميزين بالشارة الصفراء. يخيل لي أن لا شيء يتحكم في الأمر إلا الحظ والأهواء.

همسات متناثرة عرفت منها أن مفتاح الكولسيوم هو رشوة سمير جادو الذي لا يتحرك إلا وسط حراسة، ويعيش في قصر بناه من أموال الجباية والرشوة.

كانت البراغيث تثير إعجابي يوما بعد يوم؛ فهي قادرة على القفز مسافات أضعاف طول جسمها، لكني كنت في حاجة لتعليمها المشي لا القفز، وكان ترويضها سهلا تماما كحياة الجميع، أضعها في صندوق زجاجي، فتظل تقفز لعدة أيام فترتطم رؤوسها بالزجاج، حتى تتعلم أن القفز مؤلم، أو أربط زوجين من سيقانها بأسلاك، فتظن أنها تمشي بإرادتها، بينما أعيد تصميم حياتها بالكامل. سميت العلبة التي تؤويها كهف أفلاطون.

علمتها خدعة تدوير الأشياء في الهواء، حيث يستلقي البرغوث

على ظهره محركا فوق سيقانه كرة صغيرة من الكتان. كنت أجعلها أيضا تجر عربات بأربع عجلات، أو تركب دراجات ثلاثية منمنمة، أن تطير من أرجوحة لأخرى، أو تسحب دلاء من آبار شديدة الصغر، أن تلعب شد الحبل أو أن تشغل طواحين هوائية.

علاقتنا صارت عميقة؛ فكي تعيش كان عليَّ أن أمنحها ذراعي لتتغذى من دمائي، مصدر حياتها الوحيد. هذا على عكس الحياة أمر شديد العدالة والشاعرية، كما أني أعرفها بالاسم، وأدفنها في جنازات تليق بحياتها الرائعة والقصيرة.

كنت في انتظار أن يحدث شيء ما، أحاول تذكر قصائد رامبو، لكنها محيت من ذاكرتي تماما.

ثم جاء الحدث دون أن أفهم غرضه، عندما عبر موكب كبير لنفيسة البيضاء. عربة ذهبية من ستة خيول، ترتدي زي أميرات القصص السحرية، هل تظن ابنة الأربعين أنها سندريلا، لن تكون أبدا إلا زوجة الأب القادرة على السحر والتخطيط والأشهى من سندريلا لولا نفاق الناس للضعف والبراءة.

ترجلت نفيسة وبجوارها سمير جادو؛ لتتفرج على مؤدي العروض. كنا حيوانات مسلية نجعل الجميلة الغادرة تبتسم برقة وتوزع النقود. أنكرتني حين رأتني، كما فعل سمير. لكنها استمتعت بالعرض، وادعت عدم الغضب، عندما جعلت البراغيث تقلدها وتقلد مراد في

رقصة فالس ساخرة، ثم جعلتها تضاجعه من الخلف، ثم كررت مأساة الحلبة التي أقيمت في قصرها بإضافة برغوث لعبد المولى، يركبهما معا كحمارين. ساهمت نظرات عيني الوقحة في فهم ما أرمي إليه. استطعت رؤية الغضب كبركان خلف ابتسامتها الساحرة.

لكنها عرفت مقتلي. نظرتها العميقة داخل روحي، كانت تفتش عن عبد المولى وحده، كأنما تخبرني: ستظل قوادا للنهاية.

ألقت لي بجنيهات على الأرض، فلم أنحن لالتقاطها ضاربا حفلة النفاق التي أقامها سمير جادو. فانصرفت دون أن تفلت الغيظ، لكن حرارته لفحتني.

لم تمر دقائق حتى جاءت عربة شرطة تابعة للجنة المتعة، حملتني بعنف رغم استسلامي. بزغ أمامي السجن على الخريطة، فعرفت أنها خطوة موفقة نحو الكنز.

3

كان الضوء شحيحا في الزنزانة، ورغم ذلك ميزت شريكي، كهل أشقته السنوات، بجسد مكوم مرتعش، بقميص ممزق وبنطال متسخ، يتحدث مع أشخاص لا وجود لهم بهمس يحمل عتابا يثير الضحك والأسى.

جلست في وضع القرفصاء، أشعلت سيجارة. مد الكهل يده طالبا سيجارة دون أن يكلف نفسه عناء الكلمات. فأعطيته واحدة، أشعلها. دخن نفسا واحدا بشوق المدخن ونشوته، ثم دهسها تحت قدمه قائلا: *"لا أحب التدخين"*. تألمت على السيجارة المهدرة.

عاد إلى حديثه الغامض والهامس مع أشباحه. ثم وجه حديثه إليَّ: *"يرغبون في التحدث معك، ويتعجبون من أنك لا تراهم، وأنت منهم"*. سألته: *"من؟"* قال: *"أشباح الموتى"*.

انتهيت من سيجارتي وأشعلت أخرى. ثم قلت: *"هل يحملون رسالة؟"* أومأ الكهل برأسه إيجابا. ثم أمسك جسدي وتحسسه، نفرت. قال: *"غريب.. جسد ميت يحمل أرواحا بين الحياة والموت. أرى الموتى منذ طفولتي، ولم أصادف مثلك أبدا"*. قلت: *"كنت أسمع*

عويل المغدورين منهم، *أمثالنا قلائل"* . قال: *"لكنك خنت هبتك، أليس كذلك؟"* قلت: *"لم تكن لي طاقة باحتمال عويلهم"* ، لكنه عاجلني: *"إنهم غاضبون، لكنهم سيسلمونك الرسالة كرامة لصديقهم جادو"* . ثم بدأ في حك جسده. قفزت بعض براغيثي إليه. هذا أول دم لغريب تتذوقه منذ فترة. لعلها استطعمته. سألته: *"ما الرسالة؟"* .

قـــال: *"يخبرونـــك بأن في انتصـــارك نهايتك، وفـــي هزيمتك انتصارك. فانهزم"* .

قمت من مجلسي، ارتج جسدي بالضحك. ضحك حقيقي، حي، من القلب، حتى أن أرواح العائلة توقفت عن الســمر، وتأملتني في انزعاج وخوف. انقلب ضحكي إلى سعال قوي ومجروح، بصقت بصقة تلو أخرى طاردا لبلغم مزعج، وأنا أشـــهر إصبعي الأوسط فـــي وجه أشـــباح لا أراها. تجاهلت غضب الرجل الذي عكســـت ملامحه غضب أشباحه. ثم صرخت: *"قامت القيامة، وانتهى العالم ولم تتخلوا عـــن الكهانة والتلغيز حتى بعد موتكم. أنتم لا شـــيء، مجرد عجزة حتى لو أمسكتم بتلابيب الأحياء، فلا قدرة لكم إلا على قيادتهم من حتف إلـــى حتف، أن يتجاهلوا الحياة ويؤمنوا بالموت. تظنون أن عبارة غامضة ســـتمنحكم أكثر ممـــا أنتم عليهم فعلا.. حمقى"* .

قام الكهل، ووضع يده على فمي.

هدأت قليلا، أشعلت سيجارة أخرى، كان تدخينها مرهقا بعد فترة الصراخ في اللا شيء. مرت ساعات دون أنبس بشيء. حتى انتبهت إلى شيء مخيف. لم يكن الكهل إلاي، فقيرا ومهشما ومجنونا يخاطب خياله، صورتي في مرآة المستقبل، لو كنت حيا. اعتراني الغضب، لم أفكر إلا في شيء واحد؛ قتله خنقا. توجهت إليه، مددت يدي لأكتم أنفاسه، لكنه اختفى. بكيت. تكومت أرواح العائلة حولي لمواساتي. لكني لم أتوقف عن البكاء.

انفتح باب الزنزانة ومعه الضوء. كان سمير جادو، حاملا وجبة ساخنة وماء وعلبة سجائر. رغم كل شيء أدخل ذلك على قلبي قليلا من الونس والبهجة الشحيحة الدافئة. خيل لي رؤية شبح ابتسامة لا ينقصها حنان وشماتة العائلة تتراقص فوق شفتي سمير جادو.

أمر حراسه بالخروج. ألا يخشى جنوني؟ التهمت الوجبة لا عن جوع، لكن لأنها حظي المضمون في حقل البؤس.

بنبرة استسلام لا عتاب فيها، وجدته يقول: *"لقد سرقتني أنت ومولانا"*. واصلت ازدراد الطعام، لم أفهم ما يرمي إليه. واصل: *"فكرة القرية المعزولة عن العالم، وتنفيذ الحل البرازيلي.. زاوية النجار التي صارت روما"*. قلت: *"أنت من ذهبت بنفسك لتقديم الفكرة إلى مولانا.. لقد عوضك بتعيينك رئيسا للجنة المتعة بعد أن حول فكرتك البائسة والعاجزة إلى حقيقة"*.

تنهد جادو: "لا أنكر.. لست غضبانا حتى.. رغم أن ما ألقي إليَّ كان الفتات.. الوليمة الحقيقية على مائدته". قلت ساخرا: "الفتات؟ قصر وحراسة وأموال.. أنت طماع يا جادو.. طماع وخسيس.. لا يغفر مولانا النظر إلى مائدته بسهولة.. فلا تأمن".

قال مبتسما: "يبدو أنك لا ترى الوضع جيدا.. أنت الأسير في زنزانته لا أنا". قلت: "أدفع ثمن نظري إلى وليمته.. اختباره الأخير هو طريقي للغفران ودليلي للنجاة.. هو من أرسلني، لن يعادي من يتبع طريقه". كنت أكذب. أنا حانق على أبي، وأعرف أن النجاة من اختباره تعني الوقوع في فخ أكبر. لكن هل أملك طريقا آخر؟

قال سمير: "لا ألومك على شيء.. أنا هنا فقط لأنك من العائلة.. لن أقدم لك الكثير".

قلت بتحد: "لم أطلب شيئا.. أما العائلة فقد ذبحتها ذبحا". لم ينزعج سمير، بل قال: "أسعد أخبرني بكل شيء، جاءني مثلما جاءك، وطلب مني مساعدتك. أخبرته أني لا أملك مواجهة غضب نفيسة البيضاء أو مولانا.. لقد تفهم الأمر، هذه إحدى كرامات الموتى. كل ما استطعت تقديمه، هو أن أمنحك فرصة ضئيلة للنجاة فلتحسن استغلالها. نفيسة البيضاء أمرت بقتلك وإنقاذ روح عبد المولى فقط". قلت ساخرا: "هل يُقتل ميت؟" قال: "ميتة أخيرة ونهائية إلى العدم، قد تنسكب معها أرواح العائلة". قلت: "لن

يرضي ذلك مولانا.. *لن يسمح بأن يقتل من كلفه بمهمة"*. ضحكة جادو المجلجلة عرتني تماما: *"أحب ثقتك فيه رغم كل شيء.. أتظن حقا أنه لا يعرف مكان كارل ماركس؟ ألم يرسلك لقتله؟ ما أسهل استبدال القتلة، عمالة رخيصة.. مصالحه مع نفيسة أكبر"*.

لذت بالصمت، فتابع: *"أقنعتها أن قتلك سرا يهدر متعة الانتقام وفرصة تجلي روح عبد المولى مخلوطا بروح القاتل المثالي، فلم يزهق عبد المولى روحا إلا ليظفر بحياته، هذا لا يجعله قاتلا صرفا"*.

قلت: *"سيد أبو كرنبة.. ترغبون في عبد المولى مع قاتل الألف نفس. لكنها ستحظى بوحش قد تكون هي أولى ضحاياه"*. فرد دون اكتراث: *"فلتحصل على ما تريد"*.

قلت: *"والمطلوب؟"*. أجاب: *"أن تؤدي عرضا يوميا في الكولوسيوم الروماني، تقتل فيه من أجل لذة القتل، هذا يكفي أن يمزج روح عبد المولى بسيد أبو كرنبة قبل أن"*.. عاجلته بقولي: *"قبل أن ترسلني نفيسة إلى العدم عندما تحصل على ما تريد"*. قال: *"لا تفكر في الأمر بتلك الطريقة، فكر في أن كل يوم تؤدي فيه عرضك هو فرصة إضافية لنجاتك.. إن فعلت فقد أديت واجبي تجاه العائلة، وإن هلكت فلا حيلة لي في الأمر"*.

قلت ساخرا: *"لقد فاقت أفضالك الحد"*.

قال بجدية: *"تذكر أنا معهم.. لا معك.. لا أملك أن أقدم أكثر من هذا كرامة للعائلة.. أما أنت فلا تمثل لي شيئاً"*.

قام جادو، فتح لي باب الزنزانة، لكني قرفصت على الأرض في حيرة. أشعلت سيجارة جديدة، وأنا أفكر لمَ تنفذ السجائر كل مرة؟ أي دم قد يسفكه عرض البراغيث إلا دمي؟

4

خرجت إلى المقابر، حاملا عائلتي وبراغيثي، بإرادتي تلك المرة، حيث كل حفار قبور هو أبي، وكل هاملت هو عدو لي. للمرة الأولى أيضا أشعر بالراحة هناك. أمامي ثلاثة أيام للتدريب على عرض في فشله انتصاري وفي نجاحه هزيمتي، هكذا فسرت جملة الأشباح، المغلفة بدنس الكهانة.

بحثت عن قبر جادو، ضللت الطريق إليه، ولم يسعفني قمر الظلمة. ظهر حفار قبور وبيده قنديل. أشار لي أن أتبعه. دون كلمة واحدة امتثلت، أبحث فيه عن رائحة ملامح أبي الحكيم. أتركني بدوره؟ أم تمثل في العجوز الذي يتحرك أمامي الآن؟ عندما أتيح لي تأمل ملامحه نفرت منها. التجاعيد وانحناء الظهر والسن الطاعنة، لم تصنع من عينيه إلا شعلة مكر ذاوية وخسة لا يمكن إخفاء نتن رائحتها، أما حكمة حفار هاملت، فلا أظن أن أثرا لها سيظهره.

توقف عند قبر. ظننته قبر جادو. دون كلمة أخرى مد يده، وظللت وجهه ابتسامة صفراء مستفزة، فأخرجت خمسين جنيها، حصيلة عمل يوم كامل، خطفها من يدي، وأراها جلبابه بسرعة

خاطفة. ثم انحنى على شاهد القبر، أطفأ قنديله، فعمت الظلمة إلا من قمر شاحب، سمعته ينقر ثلاث نقرات، فانفتح القبر ومعه النور.

مد يده، فأخرج جمجمة، دحرجها على الأرض تجاهي، كانت أثناء دورانها تكتسي لحما وتكتسب الفجوات عينين ولسانا وشفتين، آخر ما نبت كان الشعر. تلك الرأس لأنثى، أدركت، عندما توقفت الجمجمة عن الدوران وتسمرت أمامي، تحملق بي في حنان. لم يكتمل الوجه، بل ظل وجهًا ميتًا، بالحفر التي تخرج منها الديدان، الأسنان، العين اليمنى التي توشك على السقوط، الأذن اليسرى لم تنبت أصلا.

"ألم تعرفني يا حبيبي؟" قالت ذات الابتسامة المرعبة، دون أن تحرك فيّ شيئا، هل يشمئز الميت من ميت؟ ألا حظ لي إلا لقاء الأشباح بحثا عن شبح ماركس؟ تخيلت للحظات اكتمال الملامح، هذا الجمال لم يأكله الموت، بل الفقر. وتلك الملامح رأيتها مرات في وجوه أخواتي البنات، الشقاء الذي يأكل الوجوه ويحجب النور ويحيل الربيع إلى خريف، أتلك هي؟ عاجلتني الجمجمة: *"أنا شبح أمك"*.

دارت الجمجمة ومن حولها رأيت أخواتي البنات يرفرفن كجوار حسان حول ملكة، ونجمات حول قمر. كان الهواء قارسا، والبرد

متناهيًا في الشدة، هواء كأنه نصل حاد. بدت لي أم الجميع عداي. لم أشعر بشيء، تأملت الوجه مرة أخرى، شديد الألفة والبراءة والتشوه.

تورد وجه ليلى بالخجل وأضاء بالبشر مع ابتسامة أمي لها، ابتسامة رضا، سرعان ما توجهت إليَّ قائلة: *"جميلة.. أحسنت الاختيار"*. أشارت ليلى إلى زين، فتهلل وجه أمي المشوه أكثر: *"يا قمري.. لو املك لاحتضنتك يا زين، لكن عذابي ألا أحتضن أحبائي أبدا"*.

قلت غاضبا: *"جزاء تركك إيـاي، بلا إرث إلا عويل الموتى، وحيدا في قبضـة الخذلان وقدمي التائهة"*. انقلبت ابتسـامتها من صفاء أم إلى تحدي عاهرة:

"أنت أهون أخطائي، ربما لم يكن خذلانك ذنبا على الإطلاق.. لم أفعل ما فعلت إلا لأنجيك.. أما عن جرائمي الحقيقية، فقد قضي علي لفترة من زمان أن أظهر ليلا، عبر أخواتك البنات لأراك وأدلك على رزقك، وأن أحبس صائمة في النيران نهارا إلى أن يحين للجرائم الشنيعة التي ارتكبتها في حياتي أن تحترق وأن أتطهر منها، ولكن ظل عدم احتضاني لأحبائي، عذابا يجعل من النيران وهما، ولولا أنه محرم عليَّ أن أبوح بأسرار محبسي، لأدليت بقصة، يكفي أخف لفظ فيها لأن يعذب روحك عذابا أليما، ولكن هذا السر الأبدي لا يمكن أن يباح به لآذان من لحم ودم".

"أي إثم تظنين قد يعذب روحي؟ لقد ارتكبت كل شيء، ورأيت كل شيء".

"لا تقاس الآثام بثقلها، وإنما بخفة أصحابها، وأنا كنت خفيفة كطير، لذا فذنوبي ثقيلة كجبل. الخطيئة حررتك من الملائكة والشياطين؛ لأنك ارتكبتها كاملة بينما كبلتني خطاياي في الجحيم".

"أهناك جحيم؟".

"أحيانا" نفس إجابة جادو، إجابات الأقدام التائهة التي لا تشفي غليلا.

"أنصت" أمرت بحسم أم أرهقتها مراوغات ابنها، ثم أردفت بمراوغة الأم نفسها عبر الحنان: *"أنصت.. إذا كنت يوما تحب أمك العزيزة"*.

ضحكت ملء روحي الميتة والمحملة بثقل أرواح العائلة وأذى البراغيث: *"أتسمعين ما تقولين؟ أنا لم أرك يوما، لا أعرف إن كنت أحبك أم لا"*. أكملت ببراءة لم أفهمها: *"اثأر لمقتلي الآثم الشنيع، ولمقتل أخواتك البنات. القتل إثم شنيع مهما هونت من أمره، ولكن هذا القتل أعظم من أي قتل، لئن لم تتحرك لمثل هذا الخطب، فأنت أشد بلادة من العشب الغليظ الذي يسري فيه العفن"*.

لم أتأثر؛ لأني حقا أشد بلادة من العشب الغليظ الذي يسري

فيه العفن. نظرت طويلا عبر جسدي، ثم سألت بحذر: *"أتلك هي ليزا؟"*. أطلت ليزا عبر عيني الخاليتين من الحياة إلا من أرواح قتلاي، ثم انحنت انحناءة تقديس لأمي التي قالت: *"رغم أنك نسخة مني، إلا أنك أكثر جمالا، لولا العذاب والفقر المكتوب على أرواحنا التعسة، لولا ثقل الذاكرة"*.

لم أفهم ما تقصده أمي، لكنها كانت تتهيأ للحكي، حتى أن القمر لعب دوره كبقعة ضوء وسط ظلمة تضيء رأسها الذي يحتشد للمونولوج، هُيِّئ لي أن حفار القبور قد يكون عامل إضاءة يملك سرا مخيفا كالتحكم في إضاءة القمر، روح ليزا انعكست على جمجمة أمي، فصارت هي:

"كنا سنتزوج. أخبرني أن صوتي الجميل كنز مدفون، فطرت معه من زاوية النجار تحت ستار الليل، هربت من أهلي ولم نتزوج. نخنوخ لم يكن من السادة، كان خادمهم حتى صار منهم، وأنا؟ سلمة في طريقه. لا.. هذا أكثر مما أستحق، أنا كنت لا شيء وسط أجساد بلا حصر أحرقت قربانا لنار مجده. بنات جميلات أغوين بالوعد. باعهن آباؤهن من أجل زجاجة خمر، أكياس أرز وزجاجات زيت وملء قبضة يد من شعير، خطفن مكبلات دون أن يعلمن إلى أي مصير يسرن، وأي وحش ينتظر افتراسهن المتكرر والأبدي.

جمالي لم يكن صارخا، عادية كسنابل القمح. لكن والدك أخبرني

أنه يحمل سرا خلابا: قليلات هن من يقبضن على سرة الكون. جملة غريبة قالها بعذوبة عاشق مفتون. غرابتها دوختني.

لم يكن صوتي الجميل هو كنزي المدفون. لم أعمل مطربة. بل عاهرة ووالدك قوادها. لم أغن إلا ترانيم بلغات لم أفهمها. سماني ليزا. حدث الأمر ببساطة ولطف، انزلاق محسوب، ثم غوص نهائي.

لم أكن بغيًا لأي عابر، بل لسادة حليقي الرؤوس، لم أعرف هويتهم. عند هيكل في خلاء صار بستانا من أشجار عملاقة أجلس ومعي القابضات على سرة الكون. لم نكن نادرات إلى هذا الحد، لكننا كنا نملك فعلا أن نقبض على سرة الكون، ذاكرة من نضاجعهم تتسرب إلينا، ومنها إلى نخنوخ، الذي انتقل من فئة الخدم إلى السادة، عبر عرق أفخاذنا.

كان يخبرنا: أنتن مختارات، ويهمس في أذني: وأنت ملكة. ملكة من دون ملك؟ هو ملكي ومليكي. فأدركت أن ما نفعله ليس إلا صلاة سرية لشيء لا نعرفه ولا نؤمن به. لم يخبرني الموت عنه، لعله إله منسي مطمور بالحقد والنسيان.

حبلت سبع مرات، من ذكور لم أعرف هويتهم، أجهضت سبع مرات بيد أعرفها. يد نخنوخ. هربت فأعادني.

خشى أن يرثن قدمي التائهة، لم يرغب في نسلي بل ذاكرتي، قائلا: لماذا أراهن على صدفة الجينات؟ هربت مرة أخرى، فأعادني، منهكة من الإجهاض المتكرر، ولا أمل لي في أن أنجب من جديد، ضربني، فهربت. أعادني وعذبني فهربت. أعادني مجربا حيلته الأخيرة، الحب. ضاجعني. ظن مثلي أن لا أمل أن يحمل رحمي المنهك صدفة مزعجة.

ثم عرفت أني كنزه، وأني أُعد للموت. أن تدمج ذاكرتي مع ذاكرة البنات الحلوات المنهكات المرهونات لشيء مقدس ومخيف. قرص صلب يحوي ذاكرة العالم. عبر ذاكرة رجاله المقدسين، كهنة حليقي الرؤوس يتحكمون في المصائر والأموال. يصير سيد السادة بما يملكه عنهم وعن أسلافهم من أسرار. ما أكثر ما نجهله في الحياة، ما أغرب ما يكشف لنا بعد الموت.

لم يعلم أني أحمل نبته في أحشائي عندما هربت. ووحدي كنت أعلم أنك منه، ثمرة ليلة الحب، التي ثمل فيها قليلا. لم يعثر عليَّ تلك المرة بسهولة، كنت أعلم أنه سيفعل لا محالة، لذا ما إن أنجبتك، حتى أخفيتك في مسقط رأسي بزاوية النجار، عند جارة لي. أعطيتها كل ما استطعت كنزه من هدايا العاشقين. ثم عدت إليه مستسلمة للنهاية. كنت خائرة الروح والقوى".

توقفت أمي لثوان عن الحكي؛ كي تعزز من أثر التشـويق في

مونولوجها الوحيد والأخير، قبل أن تكمل بأسى لا يشبه حتى النبرات المســرحية الزاعقة، بل يســتوحي أداءه من المسلسلات الدرامية الرخيصة:

"كنت أرقد في البستان، كعادتي بعد ظهر كل يوم، فتسلل أبوك في ساعة أمني وراحتي، وصب في تجاويف أذني سائل السيكران الفتاك الذي يسري في منافذ الجسد بسرعة تحاكي سريان الزئبق، فلا يلبث مفعوله العنيف أن يجعل الدم خائرا كأنه سائل حامض ألقي في اللبن، كذلك كان تأثيره في جسدي المنهك، فلم يلبث أن شاعت فيه القروح، كأني مجذومة. كذلك فعل مع البنات اللاتي يقبضن على سرة الكون، ولم تعد هناك فائدة لأجسادهن إلا ما يرغب أبوك في استخلاصه من ذاكرتهن.

أحرق أجسادنا في حفل كبير، الدخان المتصاعد من الجحيم، يهدئ روحه وروح السادة. صار منهم أخيرا، بذاكرة ليزا.

ذهب به إلى أحد رهبانه طمعا فيما هو أكبر من أن يكون مجرد سيد. كان قرص ليزا برهان استحقاقه. لكن الراهب أزاحه بازدراء قائلا: "لا قيمة لبرهانك.. فعد من حيث أتيت.

غادره غاضبا. أعاد نسخ أرواحنا في بنات أصبى وأجمل. مئات الآلاف منهن. ظنا أنه لم يحصل بعد على الذاكرة النهائية

العالم. يقدمن كل يوم كقربان، يتصاعد دخان أجسادهن فداء رغبة لا نهائية تشتعل في صدر أبيك".

انتهى ضوء القمر من مهمته كبقعة ضوء على شبح أمي المسرحي. كاد أن يتوقف فوق جسدي، انتظارا لمونولوج مسرحي مماثل. لكنه تراجع ما أن رددت ببرود: *"والمطلوب؟ أتظنين حقا أن جرائم أبي صارت تثير فيّ أي كراهية أو حقد؟ لا طريق إلا طريقه. لقد جربت الانتقام ومحاولة الإفلات من قبضته، وانتهيت إلى خسارة كل شيء".*

قالت أمي: *"لن تظفر بشيء منه، ستكون ضحيته في كل الأحوال. خطته محكمة كالقدر. أنت لست فيها إلا قربانا جديدًا لنزواته التي لن تعرف الارتواء أبدا".*

توقفت عن الكلام مجددا قبل أن تكرر رسالة الموتى التي كرهتها من كثرة تكرارها: *"اقتل مولانا".*

ضحكت من دقة ما توقعت. قلت ساخرا: *"كنت أتمنى أن تخبريني شيئا آخر أفضل. كأن أكتشف طريقي إلى العدم مثلا حيث يختفي عبء العائلة والبراغيث".*

قالت: *"لا تفقد الأمل.. لولاه لكنت جنينا مجهضا"*. قلت ساخرا: *"كانت حياتي حقا هي أفضل هداياك".*

كان شبحها يتضاءل، بينما تسعفني الذاكرة أخيرا، بأن طريقة قتلها هي نفس الطريقة التي أخبر بها شبح والد هاملت سر مصرعه.

همست أمي: "*الوداع.. الوداع.. تركت لك هديتك مع حفار القبور*". ثم اختفت.

صرخت: "*أنا لست هاملت، كل هاملت هو عدو لي، أمير الدانمارك لم يكن إلا مختلا حقيقيا، ابن العفن، مصابا بالبارانويا، لقد اختلق كل هذا، راويا لحدث لم يحدث، فلا عمه قتل أباه، ولا أمه كانت خائنة، ولم يكن شبح أبيه إلا شبح هواجسه التي ألهمت ماركس صرخته. صرخة المختل ضد أشباح لا وجود لها إلا في روح تأكلها الحقد ويتنازعها الجنون*".

5

كنت أشعر بوجه مولانا، أشم رائحة قربه، وأرى صوته في هدير الجماهير المهتاجة. رغم أني كنت حبيس قبو يفضي إلى حلبة الكولوسيوم، أعض الانتظار بصحبة المؤدين المختارين. أسلي نفسي بتخيل عروضهم من أدواتهم.

لا أحمل سوى براغيثي، وهدية أمي التي منحها لي حفار القبور، وأخبرني أن فيها نجاتي بقدرتها على تحويل عرضي البائس إلى عرض مدهش. كنت أميل لأن أفقد تلك الفرصة، تروادني حمى خيانة العائلة، للتخلص من أي أمل. لكن شعوري أن مولانا بين الجماهير الآن، داعب فيّ أمل أن أرضيه. رضاه هو خيطي الواهي بالعالم والأكثر صلابة رغم ذلك من أي دافع. أفكر أن حب مولانا هو مصدر الخسة والعظمة الكامنة في قلبي، نقطة ضعفي التي تفرض عليّ تقبل حيوات لم أخترها، ونقطة قوتي التي تمنحني تحمل كونها وهما. لا يتقبل تلك الحياة إلا عبد أصيل.

بجواري، يتمرن عازفا بيانو على فقرتهما. يرتديان بذلتين فاخرتين، ثم يخلعان بنطاليهما، ثم سرواليهما الداخليين، ليعزفا مقطوعة كلاسيكية

بقضيبيهما المنتصبين، أضحكني هذا. مسل وبريء، ولا يشاهد مرتين. سيدخل معهما رجل سيضع كرة حديدية على مشط قدمه، وهي مشتعلة بالنار من جانبها العلوي، ليركلها إلى أعلى ويوقفها على رأسه دون أن تمسه النار، لا أظنه سيثير الكثير من التصفيق. رأيت رجلا مهيبا رغم شيخوخته يمسك حبالا يقذفها في الهواء فتتحول إلى حيات، ثم يأتي دور رفيقه الأكثر مهابة، ألقى بعصاه فأكلت الحيات. أظنه عرضا رائعا، كانا شريكين حقيقيين يأملان عرضا طيبا وقروشا قليلة وإعجاب الجماهير. رأيت رجلا رقيقا، يخبرنا بقدرته على إحياء الموتى.

ثم دخل كهل سكير، بلحية كثيفة، أسمر، متوسط الطول والحجم، شديد الأناقة، في يمناه الزجاجة وبيسراه السوط، يجر أحد عبيده قفصا من الغرابة: امرأة برقبتين، رجل بثلاث سيقان، امرأة يتدلى رضيعها من بطنها. رجل له ملامح هندية يحمل بطنه، وجه رجل ثان لا يكف عن الكلام. قزم له لحية ووجه أسد، فتاة صغيرة لها ساقا جمل، صبي أصابع يده كأطراف سرطان البحر، وآخر يملك قدمَي بطة، صيني يحمل في رأسه قرنا كقرن اليوني كورن. لكن الكهل بدا لي أكثر غرابة من قفص الفضلات الجينية الذي يملكه.

كان السكير يصرخ فيهم، يسبهم ويلعنهم، قائلا بسخرية: *"يا فضلات العالم.. اتحدوا"*. ثم أخذ يدور على الحاضرين واحدا

واحدا وهو يهتف على طريقة الباعة الجائلين: أحمل النص الأصلي للحياة، النص المخفي، المقدس والمعلن والذي لا ترغب الأعين في أن تراه *"نساء يتزوجن الثعابين، إخوة يقتل بعضهم بعضا، شعوب تذبح عن بكرة أبيها، قبائل تهيم على وجهها في الصحراء، أطفال رضع يُهَجرون ويوأدون، وجريمة تتبع النبوءة، ونبوءة تتبع الجريمة، وراقصون يطالبون برؤوس الأنبياء"*.

لكن لم يرد أحد على عرضه، إلا عازف البيانو: *"ذلك شيء يعلمه الجميع"*. رد السكير بضحكة رقيعة: *"الكل يعلم، لا أحد يتكلم.. النسيان يلتهم الحقيقة"*. ثم صرخ فينا: "فضلات.. أنتم فضلات.. تعتقدون في مواهبكم، ولا حاجة لأحد بالسخافة.. أفيون يداري الوهم، تحت كل فعل، يوأد طفل ويغتصب، يباع مخدر، يمارس قاتل مأجور عمله، تنظم شبكة إرهابية عملها، تباع الأسلحة، ينتقل العبيد بسلاسة الضغط على زر، النساء فيها قربان والأجساد أطعمة.. هل تظنون حقا أن المدينة بلد المتع والاستعراضات البلهاء؟ ما أنتم إلا قشرة وهم تحت سطحها تمارسون أحط الأفعال. عازفا البيانو الرقيقان ليسا إلا بائعي أعضاء بشرية، تقتلان المشردين وتعيدان تدويرهم كنفايات. أنتما لا تدريان، تظنان أن رقتكما وظرفكما هما بضاعتكما. العالم ما زال مدهشا أكثر من طاولة ترقص، رغم أني رأيت طاولة ترقص، ولم أر في ذلك شيئا مدهشا.

لما رأى غضبنا الذي انعكس في تجاهلنا له ونظرات الازدراء والتهديد من البعض، قرر أن يلطف الأمور، لكنها لم تكن إلا حيلته الجديدة: *"لا تغضبوا مني.. أنا كوالدكم، لعنة اللـه على السن وعلى الخمر، أتؤمنون باللـه؟.. سأعوضكم، لكن بمَ؟ نعم.. عرفت.. باستعراض بسيط.. أنا أقرأ الكف"*.

لم يمنحه أحد كفه، لكنه ودون تردد، أمسك كفي، لم ينظر حتى إلى خطوطه وهو يقول: *"وأنت؟ محض قاتل. قاتل الألف نفس، خائن الكل، تدفن الحقيقة في كل خطوة تخطوها، وفي كل نشاط تفعله، تسقط ضحية جديدة، دمها يجعلك أكثر نهما للمزيد، بينما الثمن البخس هو البقاء حيا داخل موتك، لا يحييك الأمل ولا يقتلك اليأس. أو ربما في أملك الشحيح كالموت خسة أن تفلت بفعلتك في النهاية"*.

رددت بنبرة ساخرة محاولا أن أقلل أثر استعراضه البائس: *"هذا حاضري، أي طفل صغير قد يعرفه. حدثني عن مستقبلي"*.

قال ضاحكا: *"لا مستقبل لموتى"*.

رددت ببساطة: *"المستقبل كله للموتى"*.

قال: *"صدقت"*.

أمسكت كفه عنوة، قائلا: *"وأنت؟ أي جريمة أشد قسوة يخفيها*

وهم *استعراضك بقفص الغرابة؟"*. لم يجبني، سحب كفه، وابتعد عني ليبدأ في الرقص، كان رقصه سيئا وفظا ويناقض أناقته، يدور حول نفسه كمجذوب في حضرة وسكير في حانة، تعثر مرات، في عينيه يلمع اليأس التام، يأس موتى. لم يقل شيئا لا أعرفه. لكن إشارته -إن صدقت- نبهتني إلى أن المسافة ما زالت طويلة، فأنا لم أر إلا قشرة الوهم فقط، لا شيء سوى بائعي متع.

توقف السكير عن الرقص فجأة ليقول: *"سأنشد عليكم شِعرًا، كتبته في بداياتي فسامحوني إن لم يعجبكم يا إخواني.. إنها قصيدة من ديواني (للكتاكيت أجنحة).. يا مستمعون يا كرام يا أولاد القحبة"*. ابتسمت وحدي، لقد أجبرني على هذا، بابتسامه هو نفسه وهو يخبرنا باسم الديوان، ثم أنشد بصوت استعراضي:

"البنت البكر الشاحب لونها

البنت البكر تقف شاحبة جدًّا

صامتة جدًّا،

منطوية،

روحها الحلوة الملائكية في بؤس ممزوعة.

حيث لا يسطع شعاع، والأمواج تمور،

هناك حيث الحب والألم يلعبان

وكل منهما يغش الآخر.

رقيقة هي، ومحتشمة، ومخلصة للسماء،

صورة طاهرة نسجتها النِّعَم

ثم جاء فارس نبيل، على صهوة فرس كبير

وفي عينيه بحر من الحب يفيض.

فضرب الحب بعمق في صدرها،

لكن الفارس فوق الفرس ولى،

تواقًا للنصر في المعركة،

لا شيء يدعوه للبقاء.

راحة البال طارت،

والسماوات سقطت،

والقلب، عرش الأحزان الآن،

من الشوق سكران

ولما انقضى اليوم، ها هي على الأرض تركع،

أمام المسيح، لتصلي من جديد

لكن وهي على ذات الحال، شيء آخر ينتهك قلبها

ويعصف به عصفًا

ويعمل خلافًا لشعورها بالتأنيب

حبك بالنسبة لي عطيتي لأبد الآبدين

إن تقديم روحك للسماء محض ادعاء

إنها من الرعب ترتجف، باردة، صارخة،

وفي رعب تندفع في الظلام

تعتصر يديها الزنبقية البيضاء،

وقطرات الدمع تشرع في السقوط

هكذا النار تَسم الصدر والشوق والقلب

هكذا فقدتُ السماء التي أعرفها تمام المعرفة،

وروحي، ما إن أخلصت لله، حتى اصطفاها للجحيم.

كان طويلًا، يا حسرتي، ذا قامة سماوية

فنظرته لا يسبر غورها،

نبيلة للغاية

طيبة للغاية

ما خصني على الإطلاق بنظرة

فدعوني أشتاق بلا أمل حتى هلاك الروح

آه لو مرة تعصرني ذراعه وأشاركه لذته

لكنه بلا قصد يعطيني الألم،

ألم يفوق كل وصف

أفارق روحي وآمالي راضية لو ينظر إليَّ ويفتح قلبه لي

يا لقسوة السماء حيث لا يسطع نوره،

الأرض يملؤها الشقاء

وأنا أحترق من الألم

لكن هنا الفيضان الهادر قد ينجيني،

ويبرّد، لهيب القلب، ولوعة الصدر.

تقفز في الرذاذ بكل قوتها في الليلة الباردة المظلمة

لتحملها المياه بعيدًا.

قلبها، حرقتها انطفأ للأبد

طلتها، تلك الأرض المضيئة، يتغشاها السحاب

شفتاها، الحلوتان الرقيقتان، شاحبتان بلا ألوان

وقوامها الرقيق المرهف ها هو التيار يجرفه للعدم

وما من ورقة يابســـة تســقط من الغصـــن، لتوقظها فالأرض والسماء أصمّان

وبقرب الجبل والوادي،

وفوق ســباق الأمــواج الهادئ كي تحطم هيــكل عظمها فوق الصخور،

الفارس الطويل الفخور يحضن حبه الجديد،

والقيثارة تشدو في الجوار أفراح الحب الحقيقي!!(*).

صفقت وحدي بحرارة، بدوت ســاذجا وأنا أنتفض من مجلسي قائلا: *"أنا أعرف هذا"* هكذا فقدتُ *السماء التي أعرفها تمام المعرفة.. وروحي، ما إن أخلصت لله، حتى اصطفاها الجحيم* ســمعته من قبــل للمرة الأولى في بداية تيهي بدرب الأربعين، كانت الإشـــارة الأولى لفشل معرفتي.

انحنى أمام جمهوره بتحية مسرحية، رغم أن أحدا لم يتفاعل مع قصيدته سواي. كدت أن أمسك به لأسأله من يكون، وأستزيده من الشعر بيتا، لعله يكون خطوة حقيقية إلى دليلي.

دخلت شــحنة من عراة تسوقها السياط، عرفت من وشم المنجل الأحمر، وشـــارة صفراء تظلل اللحم العاري، أنهم الماركســيون

(*) قصيدة البكر الشاحب لونها لكارل ماركس، ترجمة: تامر فتحي.

والمشتبه بحملهم لبذرة الثورة، يُساقون إلى عرض الموت. صرخ فيهم السكير: *"يا شيوعين يا كفرة.. يا قاع المجتمع يا ولاد الكلب"*. ثم بعبص أحدهم ضاحكا من أثر انتفاضته: *"العب"*.

مُنحت الأجساد الهشة أزياء مصارعين، دون أسلحة. ارتدوها قسرا. وليمة للأسود.

لم تعضني الشفقة. لا مجال لها. أما العائلة التي تتحرق شوقا لرؤيتي وأنا أؤدي استعراضي، غلبها ملل الانتظار، زين غفا في حضن فردوس. أما عبد المولى وجيهان، فسليا نفسيهما بتبادل القبلات والمحبة خلسة. نهرت عبد المولى، لا حاجة لي بأحد في العرض سواه. لا تخذلني يا عبد. أخبرني مولانا وأظنه على حق أن لا أثق أبدا في عبد حتى ولو نال حريته، فأخلاق العبيد تظل أثره ورائحته. أتعلم لم صرت عبدا يا عبد المولى وصار مولانا سيدا؟ لأنه غامر من أجل حريته، أما أنت فجبنت. هكذا يستحق السادة حريتهم حقا وتستحق أغلال عبوديتك. لا تنس يا وسخ، ما زلت عبدي، ضحك قائلا: *"عبدٌ لعبد"*.

جاء موعد فقرة حامل العصا وآكل الحيات، عبر متلحفا بالأمل، لكن جاءنا الرد سريعا من أصوات الجماهير المستاءة. كانت فقرته رغم كل شيء أفضل مما أملك تقديمه. أخبرت ليلى أني خائف من ألا أرضي مولانا.

عندما جاءت فقرة الرجل الذي يحيي الموتى، رمق المصارعين قبل مغادرته إلى الحلبة بنظرة ملتاعة قائلا: *"طوبى للمساكين"*.

ضحكة السكير جلجلت كسوط. اندهشت من ضحكته. فحتى جسدي الميت وروحي المطفأة يدركان أن من يساقون إلى الموت دون أمل أو فرصة للدفاع عن أنفسهم هم مساكين، حتى ولو لم أشعر نحوهم بالشفقة.

أدرك السكير مغزى نظرتي، فاقترب مني، ثم جلس بجواري. أعطاني سيجارة، قائلا بتودد: *"خذ.. أنت مدخن شره ومحب. لم تفارق السيجارة يدك"*. أشعلتها، فأكمل: *"لكنك لم تتعلم أبدا أن تدرك ما تحب، ولا تعامله أبدا بما يستحق، لا تمنحه حتى الفرصة لإمتاعك. تمتص السيجارة كأنها آخر سيجارة في العالم، كأن صدرك لن يشبع أبدا، فلا تحصل إلا على قشور لذتها"*.

سحبت نفسا تلو نفس، لم أتأثر يوما بملاحظات الآخرين عن التدخين، سألته: *"لم سخرت من وصف محيي الموتى للمصارعين بالمساكين؟"*.

رد بابتسامة كدرة: *"لا مسكين سواه. لا مساكين سوى حاملي الفكرة المدهشة التي لا تعرف الموت رغم تحللها فلا تجلب إلا الموت. عقابه وعقابي أن نأتي إلى هنا كل يوم، نؤدي العرض البائس نفسه، ونأمل أن يفشل فشلا تاما ونهائيا؛ كي ننال الجائزة*

الوحيدة التي تبقت لنا، والتي يظنها الجماهير عقابا، أن نقذف إلى العدم، فنرتاح تماما. هذا مصير من لا يحظى عرضهم ولو بمصفق واحد، قد يكون هذا مصيرك أيضا. لكن دائما ما نجد هذا المصفق، الذي سرعان ما يصبح في اليوم التالي ضحية جديدة كمصارع أو كمهووس بالفكرة الميتة والمدهشة".

قلت ضاحكا: "*ربما عليك أن تلقي عليهم إحدى قصائدك"*.

رد وقد صفي كدر وجهه: "*لقد وجدت مصفقا وحيدا.. لقد قتلت أملي الأخير.. أنت قاتل.. وأنا ضحيتك الجديدة"*.

ضحكنا سويا، وشعرت بسريان الانسجام والتآلف بين روحينا الميتتين. لعل موت روحه هو سر هذا التآلف السريع، أو لعلها جرأته في إعلان رغبته في أن يقذف إلى العدم، والتي يفصلني عنها جبني، وأملي الواهي في إرضاء مولانا.

كان توقع رؤية الحشود التي سأؤدي أمامها عرضي مخيفة، كعهدها دوما، والأسوأ رابطة الأخوة المغرية التي تنشأ ببساطة بينها، قلت للسكير. فأومأ موافقا دون أن ينظر إليَّ: "*عرفت ذلك بالطريقة الصعبة. إنسانية الأخوة القاتلة، ضباب هائل يدعى الأمل. حشد رأسه من إيمان مبهم وجسده عالق في السراب"*.

سألت السكير: "*هل من يؤدي العرض هو المسيح؟"*.

أجابني بحسم: *"لا .. ذلك مجرد مقلد، مثله آلاف وربما ملايين من النسخ في هذا العالم، يمكنك هنا عبر ضغطة زر وعبر وعي مشوه ونوازع نقصك وطموحك أن تصنع نسختك الخاصة من المسيح. يمكنك إضافة النكهة التي تريدها، تجعله ماركسيا مثلا، أو شيخا سلفيا، أو ملحدا، أو زير نساء. نسختي الخاصة منه ستكون فيلسوفا رواقيا"*.

لم يكن مؤدي عرض إحياء الموتى يشبه المسيح على أي حال، كان يرتدي زيا مكسيكيا، حليق الشعر، زنجي وأنفه مفلطح.

سألت السكير عن اسمه فأجاب: *"بابا الفاتيكان!!"*. أعقب إجابته بضحكة ماجنة، فعرفت أنه يكذب، لم أعاود السؤال، خشيت أن يدفعه إلحاحي إلى الهرب، كان وجوده بجواري يشعرني بشيء من الطمأنينة، ففضلا عن الألفة في عالم أشعر نحوه باغتراب بالغ، بدا أن خبرته بهذا العالم قد تساعدني. عدت لمتابعة العرض. لكنه عاد من نفسه وقال: *"اسمي المغربي.. عطيل المغربي"*. لكني عرفت أنه يكذب أيضا.

6

عبرت إلى الحلبة، فدبت العاصفة في أرواح الحضور. يهتفون لشخص سواي: *"هركليز.. هركليز"*، والذي انتفض داخل جسدي كرمح مسنون حين سمع النداء باسمه. ألا يروني؟ ألا يرغبون في عرض بائس للبراغيث؟ لم أكن مهتما، جل ما اهتمت به عيناي كانت رؤية مولانا، التقطته بسهولة، كان هنا كما شعرت سالفا، مضيئا كشمس، ملكا للعالم، قد يحرقه دون ذرة ندم لو تعكر مزاجه، دون أن يملك أي شخص القدرة على حسابه أو مراجعته. كان يرتدي زي قيصر، مالكا ما لقيصر وما لله دون أي نية لتقسيم ثروة الأرض وملكوت السماء، بيد يملك العقاب، وبالأخرى يملك الغفران.

على يمناه نفيسة البيضاء التي توارى جمالها في أوج ظله، وعلى يسراه نورا ككعب أخيل، طفلته المدللة، تلعب في دميتها أو في قضيبه. ملك العالم لم يعد بحاجة إلى أن يداري خجله من بيدوفيليا العاشق في قبو، بل سيمنحها تاج ملكة على مسرح لا يجرؤ جمهوره على المواجهة بنظرة ازدراء أو فضول.

كنت مهيأ لتقديم عرض براغيثي البائسة، لكن هتاف الجماهير باسم هركليز، ونظرة نفيسة البيضاء التي تنتظر أن تحصل على عبد المولى وقد تحول إلى آلة قتل، جعلاني أتراجع عن تقديم عرضي. سأصارع بروح عبد المولى وبنيتي الضعيفة ونظري الذي أكلته خطيئة القراءة.

دخل إلى الحلبة عشرة مصارعين أقوياء البنية، مسلحين بالكامل. عرفت من علامة المنجل الأحمر أنهم من العبيد، لكن منحوا فرصة التدريب على القتال؛ كي يصير العرض أشهى. لا يوجد أعزل سواي، بيديَّ العاريتين عليَّ أن أقتلهم، الكل يراهن على روح عبد المولى الكاسحة. أعرف الآن شعوره داخل الحلبة، النجاة من هذا المكان المرعب لم تعوضه أبدا عن ازدراء النفس.

عبر أقواهم إليَّ، قويا كجبل، محاصرا مثلي كفأر، أمسكت به دون عناء، وطوحت جسده إلى الأرض، واعتصرت بساقي رقبته، كنت قد بدأت أسمع قرقعتها عندما رأيت إشارة مولانا بأن أقضي عليه؟ أأحصل على رضاه؟ لكني أفلت رقبته وسط دهشة الجميع. ربما أثر نصيحة الأشباح: *"انهزم"*.

انتابتني راحة بالغة لم يدنسها ذنب عصياني، لا لم تكن نصيحة الأشباح هي السبب، شيء لا أدري كنهه، يمنعني من أن أنغمس في تلك اللعبة للنهاية، للمرة الأولى ربما في حيواتي الكثيرة. رأيت

الغضب على وجه مولانا، وجه نفيسة امتزج فيه الحقد بالوعيد. هوة العدم. لا أشك أن هذا هو ما همست به لمولانا. أمسكت بعلبة براغيثي، كالقابض على الجمر، بينما أيقظ استسلامي شيئا ما في نفوس المصارعين المتأهبين لاستكمال العرض.

تركوا أسلحتهم، لقد فسروا ما فعلت على أنه تمرد ضد استمرار العرض، لم يدركوا أنه ربما كان شيئا نابعا من هوة يأس بالغ. أسقطوا أسلحتهم واحدا تلو آخر، وسط استياء الجماهير التي طالبت مولانا بالإجهاز عليَّ. تلقيت ضربات سياط من الحراس تحملتها مستفيدا من قدرة عبد المولى على إشفاء نفسه، لكني هتفت: *"لن أصارع.. لن أقدم سوى عرض البراغيث"*. عيناي رغم كل شيء معلقة بوجه مولانا، كلما مد لي اليأس طوق نجاة رفضته، وتشبثت بأمل أخير في غفرانه: *"يا أبتِ، لم تركتني؟! احمني.. أنا ولدك وعبدك ورسولك"*.

أمر حراسه بالإجهاز علينا دون تردد، لكن طفولة نورا أنقذتني، لقد أرادت أن ترى عرض البراغيث، ظنته كزين مسليا أكثر من منافسات الدم. فأمر لي بفرصة أخيرة. بعث لي رسوله، الذي لم يكن سوى سمير جادو، حاملا رسالة: مولانا يمنحني فرصة أخيرة، لكن *"حريٌّ بك أن تقدم عرضا مسليا حقا"*، أخبرته: *"سأقدم عرضا مسرحيا لأعظم الممثلين في العالم، سواء في المأساة أو في المهزلة، أو التاريخية الريفية، أو التاريخية الريفية المحزنة، أو التاريخية*

الريفية المحزنة الهزلية، سواء كانت القطع من منظر واحد، أو مناظر شعرية لا حد لها، إنها فرقة فريدة في تمثيلها للقطع المكتوبة أو المرتجلة".

لم يعد لديَّ خيار سوى قبول عرض أمي، طلبت من جادو تجهيز مسرح صغير وشاشة عرض، عدت أدراجي إلى القبو حتى ينتهي التجهيز، وأنا أسمع صرخة المصارعين تمتزج مع أصوات الرصاص: *"فداء ماركس"*. ليسقطوا جثثا حول صليب محيي الموتى. لا فائدة أبدا من الحمقى.

استقبلني السكير، بنظرة إعجاب، قائلا: *"لم يجرؤ أحد من قبل على رفض تقديم العرض"*. أخبرته أنني سأقدم عرضا آخر. سألني عنه، فقلت: *"قطعة مسرحية من هاملت"*. قال: *"رائع"*.

ثم اعتدل في جلسته لينشد من الذاكرة بعينين لامعتين من النشوة: *"أكون أو لا أكون، تلك هي المسألة. أمن الأنبل للنفس أن يصبر المرء على مقاليع الدهر اللئيم، أم يشهر السلاح في وجه الهموم، فيكافحها حتى يقضي عليها؟"*. أكملتُ: *"نموت.. ننام وما من شيء بعد.. أنقول بهذه النومة أننا نقضي على آلام الفؤاد وآلاف العلل والأسقام التي تنتاب الجسد؟"* فأكمل: *"نموت.. ننام.. الموت نوم تتخلله الأحلام، وهذه هي العقبة، فإن الأحلام -التي قد تعاودنا في رقاد الموت، بعد أن طرحنا عنا ذلك الغلاف الفاني- لجديرة أن*

تحملنا على التريث. إن الشعور بالكرامة يجعل من العمر الطويل عذابا أليما. فمن ذا الذي يتحمل ضربات الزمان وإهاناته، وظلم المستبد، ووقاحة المتكبر المتعجرف، وآلام حب يقابل بالازدراء، وبطء العدالة وغطرسة الحكام؟!". فأكملتُ: "فمن ذا الذي يتحمل هذا كله، وفي وسعه إن شاء أن يقضي عليه بطعنة خنجر؟ فمن ذا الذي يتحمل الأعباء الفادحة، في حياة شاقة كلها أنين وعرق يتصبب؟ لولا أننا نحس بالرهبة مما بعد الموت، ذلك العالم المجهول، الذي لا يرجع من تخومه أحد، فتملكنا الحيرة، ونؤثر احتمال الشرور التي نعرفها، على التوثُّب نحو أخرى نجهلها كل الجهل". فختم مونولوج الكينونة: "وهكذا أمكن لضمائرنا أن تجعلنا جبناء، وفقدت عزائمنا لونها الطبيعي البراق، وعلاها شحوب المرض، كم من أعمال مجيدة عظيمة قد تحول مجراها؟".

صفقت له مازحا، ثم انحنى انحناءته المسرحية لمتفرجه الوحيد، ثم تبادلنا الأدوار، فصفق لي، وبادلت متفرجي الوحيد التحية.

أعرف أن تلك اللحظة الفارقة، هي التي حملت شرارة صداقتنا الأبدية، ولن أنفذ فيما بعد وعدي بقتله، فلم يكن عطيل المغربي إلا كارل ماركس، سأعرف ذلك لاحقا، وسينكره إلى النهاية.

7

أعد كل شيء، قلبي القاسي والميت يرتجف كطفل. أرواح العائلة متحمسة كأننا نلعب بنك الحظ في سهرة مسائية هادئة. تقدمت وسط أنفـــاس متململة لحضور يرغب في عبد المولى ســـافكا للدماء، لا درامـــا تمثيلية، لن أخذلكم، لن يُســـفك في عرضي ســـوى الدماء. عيناي متعلقتان بمولانا الذي سأستعيد بعد قليل حقيقة وحشيته. هل تكذب أمي؟ لم تكترث فرقة الأشباح الجوالة ولا براغيثي لنصيحتي العبثية: *"لا تسرفوا في الإشارات، ولا تسرفوا في الهدوء، واجعلوا من فطنتكم دليلا لكم"*.

بدأ العرض على مســـرحي الصغير الموصل بشاشـــة عرض كبيرة، ضاعفت من أحجام البراغيث وظلالها، وبدأت في تجســـيد ما أرويه:

"في البدء كانـــت امرأة، جميلة كالخوف وكالشـــر وكالخطيئة وكالأســـرار. تقبض بيدها على تفاحة محرمة، تفاحة مقضومة، ثم تفر.

ليليث، زوجة آدم الأولى عندما كانت الخرافات جميلة وحقيقية ومنسوجة بعناية، فرت من نير فردوسه إلى أتون حريتها. فاستبدلوا بها نسخة أليفة، تنســج الصمت وترتدي القهر. وليليث لُعنت، بأن ترى لها ألف طفل يموت في أحشائها وأمام عينيها، فلا ذرية يجب أن تقوم لابنة الدنس.

كان الخلاء شاسعا ومهيبا، لم يخنه العمران بعد، ولا البيوت التي تعلب سكانها في زنازين، لم تأكله المصانع ولا ناطحات السحاب، لم تخترع بعد خطيئة الجسد، ولا خط تجميع فورد.

على عرش داخل هيكل حول بستان تحفه ألف أنثى وألف ذكر وألف مخنث، جلست ليليث. والرجال يسيرون في صفوف، عرايا في حجتهم إلى الفرج المقدس؛ كي ينالوا النهار الجيد والرزق العظيم. بغية مقدسة، تملك العالم، وتحيطه بالخصب وبالخرافة. وإناثها، البغايا، الملعونات، يجددن ألق التفاحة المقضومة.

ثم مر رجل يمتطي فيلا، قويا كجبل، وسيما كطلعة الفجر، كان ينتظر ما أسماه استرداد الوديعة، ذبح مع رجاله ليليث ونساءها المقدسات. وضع التفاحة المقضومة في تابوت العهد، تحميه سلالته وتقدم له القرابين، والقرابين أطفال مذبوحون؛ كي تتذكر روح ليليث اللعنة.

الرجل سمى نفسه مولوخ، الإله الرهيب. يميل الرجال العاديون

إلى أن تخلد سيرتهم كآلهة، ومولوخ كان عاديا كإله رهيب.

تتجسد ليليث ألف مرة في ألف جسد في ألف زمن، لكن دون التفاحة المقضومة، تعود عبدة تنتظر انعتاق السيرة الأولى.

سُرق تابوت العهد مرات، من يسرقه يصير سيدا، ويحيل الآخرين إلى عبيد، ظل حكرا على السادة، حتى انتقل صراعهم من الشرق الأوسط إلى وادي السيليكون، يتصارعون كآلهة مرحة تسكنها النزوات.

صار العمران شاسعا ومهيبا، جميلا كليليث وكالخوف وكالشر وكالخطيئة، يحرر الإنسان من خرافاته، يكشف له الأسرار واحدا تلو آخر، ثم يستعبده بكرباج اللذة، يحيله إلى متفرج، مغترب، مسلوب، يخنق آلهة ليصنع أخرى.

حتى تسلل خادم يحمل فكرة. كان شابا ضعيف البنية، لكن عزيمته قوية كالشمس. يواجه رجلا عملاقا طوله ستة أذرع وشبر، ثقيلا بما يحمل من دروع، يدعى آي بي إم. عرف الشاب أن دروع عدوه ليست إلا معرفة ميتة، تمنعه من الحركة السريعة.

كان العملاق قد احتكر تابوت العهد الذي صار حاسوبا عملاقا، لا يجيد استخدامه إلا الكهنة والسادة.

كانت فكرة الخادم ثورية، سأجعل تابوت العهد طيعا للجميع،

بفأرة الحاسوب وأيقونات يجيد الأطفال استعمالها، فأرة في حجم اليد، تطيع اليد.

في مؤتمر حضره الآلاف من المتحمسين. سألهم: "هل كان جورج أورويل على حق؟ هل سيتحكم آي بي إم في مصائرنا، هل نستسلم للأخ الأكبر؟"، فيجيبونه بحماسة: "لا .. لا".

بدراماتيكية تناسبه، سيعرض إعلان الحرية، حيث يصرخ الأخ الأكبر في أشخاص يرتدون زيا عسكريا موحدا، ويمشون بنظام الجيوش باتجاه نفق طويل تديره شاشات المراقبة: "اليوم نحتفل بالذكرى السنوية المجيدة لحركة تطهير الاتجاهات المعلوماتية. شعب واحد، رأي واحد، إرادة واحدة، سوف نسود.. سوف نسود". فيأتي الخادم، ليحطم رأس الأخ الأكبر بالمقلاع.

ثم يكشف الشاب من حقيبته تابوت العهد، محسنا ومطورا، حاملا شعار تفاحة ليليث المسروقة، قائلا لجمهوره: "للمرة الأولى سيتحدث التابوت عن نفسه"، فينطلق السحر مع جملة التابوت الأولى: "مرحبا.. أنا ماكنتوش.. سعيد لأني تحررت من الكهنوت، وأشكر أبي الحقيقي".

تصرخ الجماهير المسحورة، دون أن تظن أن الخادم الذي حررهم سيستعبد مئات الآلاف منهم، سيسوق العمالة بالكرباج، سيدفعهم للانتحار، سيحتكر المعرفة، ويقتسم العالم مع ستة سادة، ويصير عملاقا

وسط عماليق، يصنعون المليارات من العمالة المجانية التي تصنع المحتوى دون مقابل، سيجتثون لأنفسهم فائض القيمة. يصلون باحتكار المعرفة إلى خلود نهائي، يقتل ملكوت السماء ويرث الأرض".

توقفت لثوان عن الكلام، أنظر لوجه مولانا الغاضب. ويظهر بستان على الشاشة، يتسلل فيه مولانا بجسده البدين كعملاق، وتظهر أمي بلحمها المنهك نائمة برفقة البغايا، ومولانا يصب سائل السيكران في آذانهن، وبعد أن يفتك بهن، ينزع نخاعهن في وحشية فيل لا يعبأ بجمهوره؛ كي يصنع قرصا صلبا يخصه، ليزا، ذاكرة العالم.

ثم عرضت إذلاله وهو يتقدم إلى الراهب بقربانه، فيرفضه الراهب بازدراء: *"لا قيمة لبرهانك، فعد من حيث أتيت"*.

هنا انتفض مولانا صارخا: *"أوقفوا العرض.. أوقفوا العرض"*. ثم انسحب تاركا إياي لغضبة الجماهير، لتتبعه نورا ونفيسة البيضاء، هل لمحتها تبكي؟ لم أحصل على معجب واحد. مصيري تهتف به الجماهير: *"هوة العدم"*.

لكن فجأة انشق الهتاف الغاضب عن يدَيْ مصفق، كان السكير، عطيل المغربي، ربما رشا الحراس؛ كي يمر إلى الحلبة وبصحبته قفص الغرابة الذي تبعه في التصفيق الذي كان يعني نجاتي. لكن سمير جادو احتج بأن التصفيق لا بد أن يأتي من مدرجات المتفرجين

لا من حلبة العرض، وأمر بتسليمي مع السكير إلى هوة العدم لاختراق القانون.

أحاط بنا الحراس، لكن أنقذتنا أصوات طلقات لم أعرف من أين جاءت، من الجمهور أو من الحلبة، ثم انفجرت قنبلة من الدخان، تحت عمائها، أمسك السكير بيدي كي أتبعه. كان يعرف الطريق رغم العماء، فعبرنا أنفاقا معقدة، حتى وصلنا إلى نفق في نهايته ضوء، استرحنا من الجري قليلا، دخنت بشراهة كالعادة، وشربت معه بعضا من خمره. قال: *"لقد خسرتُ بسببك الآن ثروة من الندرة، هل تظن أني أحصل كل يوم على رجل تحمله قدما بطة؟ كما أني صرت بفضلك مطاردا من شرطة المتعة"*.

سألته شاكرا على تصفيقه للعرض: *"هل أعجبك؟"*، قال ضاحكا: *"أسوأ ما شاهدت على الإطلاق"*.

ضحكتُ، سمعنا صوت خطوات تتقدم. قلت: *"لقد لحقوا بنا؟"*. أشار السكير لي بالصمت.

ظهر رجل ضخم الجثة، بهيئة متسخة، يرتدي ملابس رخيصة كيفما اتفق، ورائحته القذرة تسبقه، وخلفه رجال مدججون بالسلاح، لم يتحرك السكير، فاستسلمت. قال الرجل الضخم للسكير: *"أي غباء ارتكبته اليوم؟"* تجاهله قائلا: *"هل أمنت الطريق إلى المخبأ؟"* فأومأ بالإيجاب.

انتظرنا حتى جنّ الليل، ثم تسللنا عبر طرق معقدة إلى المقابر، حيث المخبأ المقصود.

عرفت أن الرجل الضخم، اسمه باكونين. تلميذ ماركس وعدوه. فظننت أني اقتربت من دليلي، لم أعرف أنه كان بهذا القرب. عندما سأله باكونين عني، أجاب ماركس ببساطة: *"رجل نادر تحت مظهر تافه"*.

8

لم يكن المخبأ إلا غرفة كبيرة وقذرة تحت الأرض، تعج بالدخان ورائحة الفورمالين والشـعر الرديء. العناكب تتسـيد، والفئران تمرح. في منتصف الغرفة طاولة عتيقة يتزن أحد أطرافها المتآكلة بالمجلد الأول لرأس المال. عم الصمت مع دخولنا لثوان، وقوبلت بنظرات من الشـك من المختبئين. فلم يكن السـكير يحمل معه إلا دخيلًا، لكنه طمأنهم قائلا: *"إنه ثوري مثلنا ومطارد"*.

لكن الشك لم يختف، بل استمر التفحص المرتاب، أحدهم سيخبرني فيما بعد وهو يعتذر عن شكه في عمالتي، لم يصدقني عندما قلت له إنه كان على حق.

حكى لهم السكير بفخر عن عصياني لمولانا، لكنه لم ينس أن يقرعني على الثروة التي أضعتها عليه، مؤكدا أني مدين له، أجبرني لاحقا على أن أوقع إيصالا بالمبلغ المستحق.

تأملت الوجه في الإضاءة الخافتة التي تناسب عملا سريا مريبا. رأيت جملة هيجل مكتوبة بخط عربي على الحائط: *(لا يوجد شيء*

أكثر إثارة للخوف من مواجهة شيء ميت). اندهشت، فرغم موتي وكل ما خبرته، لم أر موتا كهذا من قبل، كانوا يحملون ما هو أحط من الموت؛ عفونته وتحلله.

رأيت لافتة، عرفت منها أن الغرفة القذرة هي مقر ما أسموه: *(دار أدباء الاشتراكية الروحانية السرية للكتاب الأفروآسيويين)*، أعلاها ينظر إلينا بازدراء بالغ تمثال نصفي لزرادشت، على الحائط العفن، خارطة كبير لما أسموه اتحاد المجالس العمالية لنور الحق، تقع حدودها ما بين نهر دجلة بالعراق إلى نهر شينانو باليابان. أما عاصمتها البارزة على الخريطة في كركوك بالعراق.

لم أتمالك نفسي، فضحكت. لفت السكير أنظارهم عني بإلقاء دعابة عن الأمريكي الذي لم يجد طريقة لبيع كتاب رأس المال إلا إقناع مديري المصارف أنه كتاب يشرح طرقا لجمع الثروة.

كان السكير، غير مكترث لما يدور حوله إلا كعرض مسل، ينظر للجميع بشفقة متشفية. اتخذت مقعدي بجواره على كرسي متهالك، بينما تأهب رجل سبعيني لإلقاء قصيدة. كان الرجل يتدلى من بطنه رضيعان برأسين يحملان وجهين ناضجين، أحدهما يشبه ستالين بشاربه المهيب، والآخر تروتسكي بذقن النبي المنبوذ. كان حاملهما يشبه لينين في شيخوخته.

في اعتزاز وثقة بميزان الرداءة قال: قصيدة بعنوان: *أطلقي القيد*

بحنية، تعبر عن أشواق الطليعة الثورية: (ارسمي على شفاه النجوم بسمة/ امسحي من مآقي الغيوم دمعة/ أنقذيني من تلك الوحدة/ فأنا يا غاليتي إنسان/ أنا مثل عصفور.. صغير لا يكاد يطير/ امنحيني تلك الحرية/ أطلقي القيد.. بحنية/ فأنا.. يا غاااليتي.. يااا.. غاليتي/ إنسان).

اندلعت عاصفة من التصفيق والإشادة عقب انتهائه من القصيدة، بينما غرق الرضيعان في الشجار حول تفسيرها.

باكونين كان يرمق السكير بنظرات إدانة. ازدادت تلك النظرات غضبا عندما دخلت خادمة تحمل أكوابا من الشاي، فقرصها السكير من مؤخرتها قائلا: *"أموت في الدعارة السياسية"*. ردت الخادمة بضحكة رقيعة: *"يا انتهازي يا متوحش"*. ثم بصق السكير على الأرض ردا على همهمات الموتى المستاءة. جره باكونين بجلافة ودار بينهما حديث غاضب لم أتبينه.

لم يكن السكير يشبه صورة ماركس التي أحفظها عن ظهر قلب، كأي قاتل مأجور يمارس مهنته بأمانة.

تقدم رجل لإلقاء قصيدة أخرى، كان يشبه سيد قطب، بشارب هتلر ورقبة منحنية قليلا، لم يغادرها حبل المشنقة، كتذكار من قاتله. عيناه كأعينهم، تجمع بين القسوة والجنون، بملامح جامدة وعابسة، كأنها تقبض على جمر الحقيقة وتخشى إفلاته.

قوبل بالحماسة عندما أعلن أنه سيلقي قصيدة (غرباء):

غرباء يا دنيا من الصغار للشيبة

غرباء يا دنيا وطالت بينا الغيبة

غرباء.. غرباء.. غرباء.. غرباء

لا نبالي بالقيود بل سنمضي للخلود

فلنجاهد ونناضل ونقاتل من جديد

غرباء هكذا الأحرار في دنيا العبيد

أغراب يا دنيا

يا مضحكانا يوم

ومبكيانا يوم وموريانا كل حاجة عجيبة

غرباء.. غرباء.. غرباء

غرباء وارتضيناها شعارا في الحياة

إن تسل عنا فإنا لا نبالي بالطغاة

أغراااااب يا دنيا

دول مهما قالوا ولا عادوا

ما يهمناش.. ده إحنا حامينا حامينا ربنا

غرباء.. غرباء.. غرباء

أنشدوا جميعا في كربلائية تصاعد معها البكاء: غرباء.. غرباء.. غرباء. كان النحيب نبيلا حد أنه لا يطاق.

همس لي السكير الذي أدرك اللعبة: *"لم يروا الشمس منذ عقود، لا يجرؤون على الخروج من القبو، يعتمدون عليَّ أنا وباكونين؛ كي نؤمن لهم الغذاء والتبغ والأخبار، متخفين في صورة تجار غرابة"*.

قلت: *"وما يمنعهم؟"*، قال: *"إنهم ينتظرون الشمس"*. سألته: *"أي شمس؟!"*. قال: *"شمس الحتمية التاريخية"*. ثم أطلق ضحكة خبيثة. هذا الرجل يعبث بهم ويستمتع بتعذيب قفص الغرابة، لكن فيما بعد سأدرك أنه كان يستمتع بتعذيب نفسه.

سألته: *"أيعرفون بأمر جماعة الماركسية اللينينية التي تطالب بدم لويس؟"*. قال ساخرا: *"نعم، ويعرفون أن نخنوخ جلب مأجورين لاحتلال زاوية النجار رافعين قميص لويس. كانت فرصته المثالية لمطاردة الماركسيين والثوار المحتملين. كان الأمر ممتعا حقا وأنا أخبرهم. لينين كاد أن يصاب بالفالج، ستالين توعد بإعدام الخونة، بينما ذكره تروتسكي بأحقيته بالخلافة وأنه لا يقبل المزايدة على دم لويس"*.

ابتسمت، لم يكن من راهنت عليهم إلا جنود مولانا نفسه، خدعة متقنة ومركبة ككل خدعه، لا تدرك أثرها، وإن أدركته لا تفهم المغزى، ولا تملك إلا اليأس من انتهاء ما في جعبة الساحر.

سألته عن ماركس، بدا السؤال ملائما. قال: *"لم يعد ذا أهمية بالنسبة لهم، إنهم يفضلون زرادشت الآن، وينتظرون انبعاثه الثاني"*.

لم أفهم ما يقصده إلا عبر مناقشات حامية الوطيس حول ما أسموه بالاشتراكية الروحانية، قال أحدهم بلغة فصيحة، شممت فيها شيئا من اللهجة العراقية:

"العالم عاد في مسار دائري إلى رمزية (الصورة)، أي عاد للتحول من الاستخدام الكامل لنصف الدماغ الأيسر في النشاط العقلي إلى التوازن في استعمال نصفَي كرة المخ.

فالحضارة الغربية اعتمدت في الأغلب على نصف الدماغ الأيسر، حيث الرموز تستعمل بكثافة عالية، واللغات نتيجة ذلك تكون متنوعة، والتقاليد والسلوكيات تكون منبعثة من واقع (الفردية الذاتية) التي تؤدي إلى تنوع الفلسفات، ما يبرر النتاج الفلسفي الشرقي البخس وغزارة النتاج الفلسفي الغربي.

مـــا إن تتراجع القدرة الغربية وتصبح الأمم الشـــرقية في بداية التفـــوق، حتى يحدث (التصادم) بين المكون الحضاري الشـــمولي

الروحاني في الشـــرق، والمكون الحضـــاري التفكيكي المادي في الغرب، هذا التصادم ســـيؤدي إلى ســـيادة الحضارة يمينية الدماغ على الحضارة شمالية الدماغ، أو بلغة الفيلسوف الشرقي زرادشت انتصـــار أهورمزدا (رمز الخير والنور والجماعية) في آخر جولة على أهريمان (رمز الشر والظلام والفردية)".

هتف السكير: "*هللويا*". لم يلحظوا نبرة سخريته الواضحة، فرددوا في تبجيل أمام تمثال زرادشت: "*آمين.. آمين*".

واصل السكير عبثه: "*ما يدعم هذا نبوءة فانجا أن الصين ستكون المستبد الجديد للكون*".

قال لينين: "*لا تنس يا عزيزي عطيل أن أثر فانجا ما زال عالقا في روحي، وأملك تفسير الكثير من أسرارها القدسية، فنبوءة زرادشت نظرية متكاملة، نظرية وحي باطنية كلانية، مصدرها الوعي الجمعي البشري*".

قال ستالين: "*اعتقاد الغربيين أن انهيار الاتحاد السوفيتي وزوال جدار برلين وتفتت يوغسلافيا يعني نهاية التاريخ خطأ جسيم. فحسب نظرية زرادشت الروحانية، هزيمة الاشتراكية المادية كانت مجرد جولة خسر فيها المعسكر الشمولي الاشتراكي كيانا ماديا ذا فلسفة غربية ليس إلا، وها هو المارد الاشتراكي (الروحاني) يعاود بناء قوته في التاريخ*".

قال تروتسكي بازدراء: *"هراء.. ثورة البروليتاريا لن تكون إلا في الغرب، عالمية وقاصمة"*.

لطمه ستالين، فصمت. هلل السكير ساخرا: *"الشيوعية سيبزغ نجمها من جديد.. شعب واحد، رأي واحد، إرادة واحدة، سوف نسود.. سوف نسود"*. رددوا الهتاف وراءه في حماس أعمى.

صرخ فيهم باكونين معرقلا حفل الإيمان: *"أغبياء.. تتركونه ليضللكم من جديد"*. أمسك جسد السكير بقوة قابلها بلا مبالاة قائلا: *"إنه يعرف الطريق للخروج. تتركونه لإنكار هويته. من أمامكم ليس إلا كارل ماركس يا عميان القلوب"*.

جفلت، أهذا حقا هو؟ بائع عبيد الغرابة، المتباكي على الثروة ببخل وشره، محب العمل، دليلي وضحيتي؟

قال لينين: *"ألن تكف أبدا عن هذا العرض اليومي يا باكو؟ هذا لا يشبه ماركس، فأنا أعرفه كما أعرف كفي"*.

قال تروتسكي بنبرته الكربلائية: *"أي حيلة دنيئة لاغتصاب حقي في خلافة ماركس؟ أنا أصدق أبنائه ووريثه الوحيد، لو كان هو لعرفته. ألم يكفكم ذبحي وذبح سلالتي؟"*.

دب الشجار بين الجميع، وعمت اتهامات العمالة، وانطلقت النظريات التي تتحدث عن جوهر الماركسية الصحيحة، وأن المانفيستو حمال أوجه.

سحبني السكير من يدي، تسللنا خارج المخبأ، حتى وصلنا إلى مخزن مهجور ومغلق، دخلنا، كانت زجاجات الخمر المعتقة والنادرة تملأ المكان، قال: *"هذا كنزي الصغير وثروتي الوحيدة التي استطعت جمعها، وسري أيضا، لا يعرفه سواك الآن"*.

فتح زجاجة يعود تاريخها إلى القرن التاسع عشر، صب لي كأسا. سألته: *"أأنت حقا ما يدعيه باكونين؟"*، أومأ بالنفي، وواصل الشرب.

أشعلت سيجارة، أخبرته أن فردوسي هو سيجارة لا تنتهي أدخنها بديلا عن الهواء. قال: *"أتدري ما هو جحيمي؟ أني أحب الكحول، ولا أسكر أبدا"*.

قلت: *"أعتقد أن ما يعذبك هو شيء آخر"*. صمت. كان الشراب رائعا، يستحق ندرته. ثم قلت: *"لم تسألني أبدا عن اسمي"*. أجاب: *"لأني أعرفه.. رزق نخنوخ الهواري.. قاتلي"*. ألجمت الدهشة لساني. أوضح: *"أخبرتني فانجا بكل شيء قبل أن أفقد أثرها. أعطتني علامتك (رجل نادر تحت مظهر تافه، يحمل أرواح عائلته).. لا أخشاك، ولا أكن لك أية ضغينة، أنتظر العدم منذ زمن، كلما قتلت انبعثت من جديد في هراءات لا نهائية. أتمنى أن تفلح في مهمتك، وأن يكون ذلك انبعاثي الأخير"*.

قلت: *"لكنك لست هو؟"*، أجاب: *"أحيانا"*. فابتسمت وابتسم، ثم

التحفنا بالصمت وتأمل الدخان، في انتظار القدر. تمنيت أن لا يكدر الصفاء بين القاتل وضحيته المستسلمة شيءٌ، ولو لساعة نشرب فيها الشراب النادر وندخن اللا شيء.

لكن جلبة فجائية، ميزناها كأثر أقدام جنود لا تعرف الرحمة عكرت كل شيء. لقد عرفوا المخبأ، قلت: *"ألم يكن مؤمنا؟"* قال: *"لا أعرف كيف حدث هذا، لقد كان سريا لدرجة أن أحدا لم يعلم به إلا قوات الشرطة"*. ضحكنا، ثم انطلقنا هاربين، لا لشيء إلا لأن الهروب كان يبعث في أرواحنا الميتة دبيب اللذة والأمل.

9

اختبأنا فوق تل. شاهدنا السحر يولد، كانت زاوية النجار تتخلص أخيرا من شرنقتها، وتتحول بالكامل إلى روما، تولد من قلب الكولوسيوم، ولا تبقي أثرا إلا لمدينة التلال السبعة، عاصمة العالم، المدينة الأبدية، الخالدة. تقول الأسطورة الرومانية القديمة، روما باقية ما بقي الكولسيوم، فإن سقطت روما يسقط العالم بأسره.

هنا أُطعم العبيد والمسيحيون الأوائل للأسود. رأينا الفاتيكان بائع الغفران يصعد مهيبا كالشمس، وتنبثق نافورة تريفي.

كان ماركس مبهورا كطفل بما تستطيع التكنولوجيا أن تلده، يقول: *"الثورة الحقيقية هنا"*. طلبت منه ساخرا أن يدعو لمولانا محقق الخرافة.

افترشنا الأرض من التعب، خلع بذلته وقميصه، فرأيت هذا الوشم على ذراعه: *(لقد صار قلبي قابلا كل صورة)* سألته إن كان معجبا بابن عربي، فأخبرني: *"لم أقرأ له حرفا، لكني وجدتها في موقع يبيع الوشوم، فأعجبتني"*.

لم نتحدث بشأن قتله، كان مستسلما حقا. كنت أفكر كثيرا في كون قتله فرصة أخيرة وقربان غفران على مذبح مولانا بعد عصيانه. فكرت أيضا أني سأحتاج ضمانا لما هو أكثر من وعد بالغفران، صكًا لا يقبل التراجع أو الخداع، ربما ما هو أكبر: الاعتراف بأحقيتي في بنوته وإرثه.

داعبنا النعاس على صوت شدو الطفل الصيني، كانت المرة الأولى التي أسمعه فيها يتحدث، أو أعرف له أي فائدة على الإطلاق:

تخل عن المعرفة.. تدع الهم والقلق

بين الـ(نعم) والـ(لا)

هل هناك فرق؟

بين الخير والشر.. هل بعيدة هي المسافة؟

أجابه فريد الدين العطار: *"دين الحيرة لا حدود له، ليس له مبدأ ولا منتهى، ولا يعرف الحب ولا البغض، وليس له روح ولا جسم، ولا هو خير ولا شرير، ولا تقي ولا فاسق، ولا معتقد ولا شاك، ولا عظيم ولا حقير، لا هو شيء ولا هو لا شيء، ولا جزء ولا كل".*

لا شيء. لم أفهم أبدا فلسفات التخلي، قتل الحياة بقتل الرغبات. أفتقد رامبو، بشعره الذي يمسك الحياة من قرنيها كخطر هائل،

دون خوف أو رهبة. أفتقده ولا أستطيع استعادة سطر واحد من كتابه المقدس. أتأمل ماركس الغارق في النوم كأن قاتله لا يجلس بجواره، وأظن للمرة الأولى أن ثمة أشياء مشتركة بين الاثنين، ككراهيتهما العميقة للعمل، وإيمانهما في كوميونة باريس.

رحت في نوم عميق لم أنله منذ حيوات عدة، نوم فارغ بلا أحلام أو أشباح موتى أو معرفة أو رغبات، لا شيء فيه إلا لذة الصمت والسكون كالفردوس. لكن دق طبول من صفيح تمسك بها ملائكة أفسد علي هناءة السَّكينة، كان الدق عبارة تتكرر بقوة: *"ليس الآن.. ليس الآن"*.

صحوت فزعا، فوجدت حيتين يقتربان منا، قبضت على عنقيهما بالقوة الهائلة لعبد المولى، حتى أجبرتهما على ابتلاع سميهما. أيقظت ماركس، الذي أدرك ما حدث، عندما رأى جثة الحيتين. لامني على قتلهما قائلا: *"إنهما كانا يحملان رسالة، ولا آمن غضب المرسل"*. لم أفهم، ولم يشرح، لكني استجبت لأمره: *"فلنمض من هنا"*.

أثناء هبوطنا من التل، كان زين يبكي، ويتوسل طالبا حكاية. حاولت أن أقص واحدة، لكني فشلت، جعلني ذلك مضطربا.

لكن ماركس ببساطة وبصوت رخيم ودافئ قرر إنقاذي بحكي حكاية عن ساحر يملك حانوتا للألعاب، يمتلئ بالأشياء الرائعة:

عرائس خشبية، عمالقة وأقزام، ملوك وملكات، عمال وأرباب عمل، وحيوانات بعدد حيوانات سفينة نوح، طاولات وكراس ترقص، وجنيات جميلات. ولكن على الرغم من أنه كان ساحرا، لم يكن قادرا على سداد ديونه إلى الشيطان وإلى الجزار. وكان مضطرا لبيع لعبه إلى الشيطان الذي لم يفهم أبدا أهميتها.

ظل يروي قصصا متشابكة أثناء هبوطنا من التل عن المغامرات بين الساحر والدائنين وعلى رأسهم الشيطان، بعضها كان مخيفا، وبعضها كان مضحكا، لكنها كانت مسلية جدا، حتى أننا ظللنا منتبهين لما يرويه بعدما غفا زين راضيا. اللئيم أدرك تعلقنا بحكاياته، فاشترط حمله أثناء هبوطنا، كي يستكمل الحكي. أي مستبد!

لا أتذكر الكثير مما روى ولا طريقة سرده، لكني أتذكر قصة خيانة الساحر لسر مكان ملكة الحيات، رغم وعده لها بعدم إفشائه، بعد أن أجبره على ذلك الشيطان الذي يحمل صك ديونه؛ لأن ملك المدينة كان مصابا بداء عضال لا شفاء منه إلا بأكل لحم ملكة الحيات، لكنها غفرت للساحر قائلة: *"إنها تعرف أنه أداة في يد القدر"*، وأوصته بأن يشرف بنفسه على ذبحها؛ لأن جسدها به ثلاثة أجزاء: واحد يشفي، والثاني يميت، والثالث يهب الحكمة، فأعطى الساحر كما أوصته ملكة الحيات، الجزء الذي يشفي للملك،

والجزء الذي يميت للشيطان، واحتفظ لنفسه بالجزء الذي يهب الحكمة، فانفتحت له بوابات السماوات السبع حتى سدرة المنتهى، وصار أكثر أهل عصره معرفة وحكمة.

10

هبطنا إلى المدينة على إيقاع حكايته، لم أسأله إلى أين نسلك، فقد بدا واثقا من الطريق، لم أراجعه عندما ذبنا وسط زحام يبحث عنا، قال إن كلنا في الحشد لا أحد. كانت هناك فرقة شعرية مسلحة، ترتدي زيا عسكريا، وقف زعيمها يلقي بيانا:

"سنغني حب الخطر، وعادة الطاقة والجرأة. ستكون العناصر الأساسية لشعرنا الشجاعة والثورة. لقد قام الأدب حتى الآن بتمجيد النوم والنشوة والسكون المفكر، في حين يجب أن نمجد الحركة الهجومية والخطوة السريعة المضاعفة والملاكمة.

نعلن أن بهاء العالم قد أغناه جمال جديد، جمال السرعة.

ليس هناك ما هو أجمل من الكفاح، وليست هناك تحفة بلا عدوان.

نحن نقف على حافة عظيمة للقرون كلها، فلمَ يجب أن ننظر إلى الوراء؟ في الوقت الذي يجب فيه أن نخترق البوابات العظيمة المجهولة.

لقد مات الزمان والمكان البارحة. فقد سبق وعشنا في المطلق، من اللحظة التي خلقت فيها السرعة والأزلي والحاضر دوما.

نأمل أن نمجد الحرب، مانحة الصحة للعالم، والمادية والوطنية وذراع الفوضوية المدمر وقيم القتل الجميلة، وازدراء المرأة.

نأمل بتدمير المتاحف والمكتبات والقتال ضد الأخلاقية والنسوية وكل الخسة الغيرية والانتهازية.

سنغني الحشود العظيمة في العمل، واللذة والثورة، سنغني الألوان في المدن الرأسمالية، سنغني ارتجاف ورشات العمل والمدافع الليلية، تحت الأقمار الكهربائية العنيفة.

سنغني المحطات الجشعة التي تبتلع الأفاعي المدخنة، سنغني للمعامل المعلقة من الغيوم بخيوط دخانها، سنغني الجسور التي تقفز كبهلوانات فوق السكاكين الشيطانية، المستحمة في ضوء الشمس. سنغني الصور المغامرة التي تعطر الأفق".

صفق ماركس مع الحشد مؤديا معهم التحية النازية المضحكة، وهلل بحماسة لتمثال ضخم لمولانا كشف عنه عقب انتهاء البيان، بينما يُساق الماركسيون والثوار المحتملون إلى حتف سريع. رأيناهم مكبلين، مصطفين شبه عرايا في طوابير طويلة تنتهي بحقنة للموت. علق ماركس: *"ليسوا ماركسيين، إنهم يعدمون فقراء*

الموهبة والنفع، الفائضين منهم عن الأعمال الحقيرة والتافهة، من لن يفهموا الآلة أبدا، تهمة الماركسية مجرد غطاء".

تابعنا الطريق، دون أن يبدو عليه علامة تأثر واحدة، فقلت: *"لم تحزن على هؤلاء ولا على مصير أصدقائك الذين كشفتهم شرطة المتعة"*. فابتسم بغموض ولم يرد.

عرجنا إلى خلاء، وحده يرى في الصحراء المهيبة الخالية، بابا من زجاج. توقفنا أمامه. سألته: *"ماذا سنفعل الآن؟"*، فأجاب ساخرا: *"سنحرق ها المدينة ونعمر واحدة أوسخ"*. ببصمة عينيه انفتح الباب الزجاجي. قال: *"لا يمكن لنخنوخ أن يرصدنا هنا"*.

دلفنا إلى معبد شاسع يزخر بالتماثيل الأنثوية العارية وأيقونات لقضبان ذكور، ونقوش لأوضاع جنسية. على جوانبه يجلس كهنة أمام حواسيب، شعورهم مرسلة ولحاهم طويلة، يرتدون الجينز والتي شيرتات الرمادية، أدركت من ملامحهم، أن جنسياتهم مختلفة. كانوا منهمكين في تلاوة صلوات من أكواد بدت لي كرموز غنوصية معقدة. لم يلتفتوا عن حواسيبهم. سألت ماركس: *"أين نحن؟"*، فأجاب: *"هنا السكان الأصليون للإنترنت، يحررونه من سيطرة السادة، ويعيدونه إلى أصله ملكا للجميع، بلا تلصص أو تضليل، حيث المعرفة للجميع بلا احتكار من أحد، تحرير المعرفة يحرر الميديوكرز من عبوديتهم للموهوبين"*. قلت: *"لصوص"*، رد بحدة: *"أفضل من قواد*

ميت". ابتلعت غضبي من الإهانة بمعاونة روح فردوس الملطفة لكل شيء.

مر على أحد الكهنة، سأله: *"هل انتهيت؟"*، فأجاب الكاهن: *"لم يبق على اللعنة إلا اللمسة الأخيرة"*.

عبرنا في ممر طويل إلى نهاية المعبد، حيث يجلس رجل على عرش وحوله حراس، ميزت بسهولة ملامح وأزياء الهنود الحمر، ثم أدركت أني أمام جسد محنط لميت. سجد أمامه ماركس، ثم تلى أكوادا غامضة، كصلاة، لم أميز من بينها إلا: *"مالك اللوغاريتم العظيم"*. ثم أشار إليَّ قائلا بصوت عال: *"ها قد جئت إليك بقرباني، حاملا روح السيد الناقص والعبد المسحوق، القوي بلا ذكورة، والساكن بلا أنوثة. فأعطني ما وعدت.. الطريق إلى جيني"*.

أمسك الحراس بي، خذلني عبد المولى، ووضعوا رقبتي على مذبح السيد المحنط. لم يكن استسلام ماركس لقاتله إلا خدعة، كان يدعي اليأس وهو يحمل الأمل بأن يعرف الطريق إلى زوجته وحبيبته جيني. من يقصد بالقوي بلا ذكورة والساكن بلا أنوثة؟ ليس عبد المولى قطعا.

انطلق بوق، فترك الكهنة حواسيبهم، وتقدموا نحونا، مهللين في نشوة. نظرت في عيني خائني، بصقت في وجهه، لم يبد عليه التأثر بخيانته. لن أغفر له كما فعلت ملكة الحيات مع الساحر.

قرأ الكهنة أكوادهم إلى مالك اللوغاريتم العظيم، ثم أدركت أي روح يقصدون. كانت روح علي تتوثب للفرار من ضيق جسدي، السيد الناقص والعبد المسحوق، القوي بلا ذكورة والساكن بلا أنوثة. اخترقت روحه رأسي المحنية كذبيحة، حاملا عظمة فانجا، لتسكن جسد سيدهم الهندي الأحمر، الذي دب اللمعان في عينيه، لم يكونا سوى عينَيْ علي كما أعرفهما، تورد جسده بالحياة، ثم تثاءب من أثر نومه الطويل، قبل أن يقول:

"كيف نستطيع أن نبيع أو نشتري السماء ودفء الأرض؟

ما أغرب هذه الأفكار"!

أطلقـــي الكهنة للاحتفاء بعودة زعيمهم. توجهت نحو ماركس، ولكمته، عضضته وشددته من لحيته، أطبقت يدي على رقبته حتى كدت أقتله، لم يقاوم. الكهنة أفلتوه من يدي. قرروا قتلي عقابا على إفســاد لحظة مقدسة. لكن ماركس طلب منهم أن يكفوا عني، قائلا: *"أقدر غضبه، ولقد ســامحته"*. ضحكت ســاخرا: *"الخائن يمنحني الغفران"*.

11

كانت فردوس فخورة بولدها، لقد وجد عملا رائعا في النهاية؛ (زعيم). هدأ غضبي قليلا، مع إدراكي أني لم أتأذَّ أصلا.

كان علي يتجول بين الكهنة يشرح لهم ما تعقد عليهم، حاملا عظمة فانجا، مانحا إياهم اللمسة الأخيرة لإطلاق اللعنة. جرذ افتراضي من وهم خالص، رفعه بيديه إلى ضوء القمر. أسموه (الجرذ الذكي).

فهمت من أحاديثهم المبتهجة في مجلسهم الذي يسمونه مجلس الأنوار، أن الجرذ الذكي سينسخ نفسه بنفسه إلى ما لا نهاية، ملايين الجرذان ستنطلق إلى زاوية النجار ككابوس حقيقي يهدم الأمان الوهمي بين أهلها؛ لإجبار مولانا على فك سراح الأسرى. تذكرت أن تلك اللعنة هي ما تسببت في قتلي بدرب الأربعين. كانت لمسة علي الأخيرة أن تكون الجرذان بالذكاء الكافي لتفلت الأسرى من النهش، وتميزهم بعلامة موتهم نفسها، المنجل الأحمر والشارة الصفراء.

كان يحدثهم كزعيم حقيقي، مذكرا إياهم بالهدف الأكثر طموحا من

لعبة الجرذان الذكية: تحرير شجرة المعرفة من يد مولانا والسادة، قاعدة البيانات الكبرى التي تتحكم في البشر، وتعرف عنهم أكثر مما يعرفون عن أنفسهم. كدت أن أتعاطف مع مطلبهم الحقيقي والعادل، لولا الشعار الهيستيري الذي يشرخ الحناجر: *"الحرية أو الموت"*، كيف يفسد الإيمان كل شيء؟!

يخطب فيهم: *"أرض الإنترنت كانت أرض الحرية الكاملة، قبل أن يغزوها محتكرو المعرفة، فأصبح الدارك ويب أرض جحيمهم وأرض حريتنا. الآن يحاولون بسط إرادتهم عليه، وحجتهم أن الأرض صارت وكرا للجريمة وللأسواق العرقية، وللقتلة المأجورين ولتجارة المخدرات ولدعارة النساء والأطفال وتجارة العبيد، الجماعات المتطرفة، أكلة لحوم البشر. مولانا الذي لم يترك جريمة دون ارتكابها، يتحجج بالأخلاق الآن؛ كي يعظم أرباحه، ويحتكر وحده شجرة معرفة الخير والشر"*.

"لا يهمنا إن ظلت أرضنا بكرا وبريئة؛ فالإنترنت المظلم، كما سيصبح أكثر فظاعة وتدميرا، سيصبح أيضا أرضا للابتكار. في أرض الحرية، لا خير يحيا دون شر. ما المسافة حقا بينهما؟ ليس نصفنا الملائكي هو من يحمل أشواقنا إلى الجنة، بل نصفنا الشيطاني هو الذي يدفعنا إلى استعادة موضعنا القديم، سادة للفردوس والكسل واللذة الصافية من دنس العمل".

لم أعرف كم لبثنا وهم يعدون العدة لحرب مقدسة، ربما يوما وربما سنوات، لقد فقدت كل إحساس بالزمن، حيث يمر كل شيء سريعا كطيف، ثقيلا وضاغطا ككابوس. فاجأتني ليلى وهي تخبرني أن اليوم هو عيد الميلاد الثامن لزين. ثلاث سنوات مرت كثلاثة أيام. وعدته بالفردوس كهدية.

ثمة شيء أدركته ببطء. ماركس لم يكن ملهمهم، بل العكس، هم ملهموه. من أعادوا إليه الحياة بأفكار جديدة. يشيرون إليه أحيانا بازدراء كعبد، يذكرونه بمواطن النقص، يعدلونه من وقت لآخر، يهمش تماما إلى أن يحصلوا منه على الفكرة التي أرادوها. ربما هذا ما جعلني أرق نحوه من جديد رويدا رويدا، ثم عدنا للحديث ولعب الورق وتدخين المخدرات، كنا نفضل منها الحشيش المخلوط بهواء الفقر والترمادول، وحظيت أمسيات العائلة بأقاصيصه الرائعة.

عندما لمته من طرف خفي، قال بلا تردد: *"نعم.. لقد خنتك.. ولن أتوقف عن الخيانة حتى أصل إلى جيني. على عكس ما تظن أنا لا أؤمن بشيء"*. تعجبت من قوله، فهو في النهاية واحد من أعظم منظري العالم، الذي دفع مئات الملايين إلى الإيمان والموت، ومنحتهم نظريته الذكاء التام والغباء التام. فأجابني: *"لست هو، أنا نسخة عن نسخة عن نسخة، أما نسختي الأصلية فقد طمست، ولم يتبق منها إلا الجوهر الصلب*، محبتي *لجيني وللعائلة. أتعلم ما المضحك في*

الأمر؟ أن عذابي لخطيئة القتلى الذين دفعوا ثمن أفكاري، ليس أشد ما أعانيه، جحيمي هو أن أتعذب بالشوق إلى جيني دون أن أراها، تكفيرا عن خطيئة خيانتي لها مع الخادمة هيلين، أنجبت منها ولدا يدعى فريدريك، مات دون أن يعلم أني والده، ولولا تبرع صديقي إنجلز بادعاء أبوة الطفل لانهار البيت، جيني كانت تعلم، صمتت وتجاهلت الأمر كأنه لم يحدث. لم أحب سواها يا رزق، حتى ولو ضاجعت سواها، لا يفهم النساء أبدا شيئًا كهذا. منذ رأيتها للمرة الأولى وأنا أعرف أن غرامي بها نهائي وأبدي كالزمن. لم تكن الخيانة الوحيدة، أفكر أحيانا أني خنت عائلتي عندما دفعتها إلى الفاقة والتشرد؛ كي أصير مجازا رائعا للتمرد على الاغتراب، كي أكون ماكينة تلتهم الكتب وتتقيأ ما فيها على مزبلة التاريخ".

لم أصدق ادعاءه بأنه نسخة عن نسخة عن ماركس، خمنت أنها محاولة واهية لإثنائي عن قتله، أخبرته عن خياناتي المتعددة لليلى. الخونة يفهمون بعضهم، لقد خنت الجميع، نفسي ومولانا وطبقتي وزوجتي وعائلتي من أجل فردوس نهائي.

جاء اليوم الموعود، وأُطلق الجرذ الذكي. لم يقدر أهل زاوية النجار الخطر في البداية، حتى قضمت الجرذان ساق رجل مسن، وجرته إلى المقابر كوليمة. استنسخت نفسها في كل بيت، كل حقل، كل زاوية، وركن. نهشت أجساد الأحياء الآمنة، جثث الموتى،

طورت نفسها مع تطور أعدائها، ستدرك الأفخاخ والأطعمة المسمومة، ولن تفلح معها مهارات البوم والقطط. أدركوا سريعا أنها تتجنب العبيد حاملي المنجل الأحمر والشارة الصفراء. لم تترك شيئا حيا إلا الضعف والإيمان، أسموها لعنة ماركس.

كانت الخطة تسير بشكل جيد لإجبار مولانا على إطلاق سراح العبيد.

12

اقتحمت دبابات مراد بك المعبد. رأيت الابتسامة على وجه ماركس، هل بر بوعده ومارس خيانة جديدة؟!

مراد بك ما زال أسير قبحه وعبوديته. كانت نفيسة البيضاء بصحبته كحية تسعى بلا رادع، وحولها حيات تلهم شيئا ما بين الخوف والقداسة، كما وصفها ماركس في قصته عن ملكة الحيات، أكان هو الساحر، مالك الحانوت الذي يسيئ الشيطان استخدام لعبه؟!

زحفت إلى عرش الزعيم الهندي، وجلست عليه، فينوس، خرت قلوب الجميع لجمالها. في حضرة الجمال لا تنشق الحناجر عن هتاف الحرية أو الموت. تحملت للمرة الأولى جمالها الطاغي، حرا وسط عبيد. تلك لحظة نادرة.

تقدم ماركس نحو سيدة العرش، حاملا الجرذ الكبير، رسمته ككبير للكهنة، فأمرهم جميعا بأن يتلو وراءه الصلاة المقدسة:

"إني أؤمن بك! أؤمن بك أيتها الأم السماوية

آه.. الطريق مرير منذ أن شدنا الإله الآخر إلى صليبه،

أيها الجسد، الرخام، الزهور، فينوس، بك أؤمن.

حقا، فالإنسان كئيب وقبيح، كئيب تحت السماء الشاسعة

يرتدي الثياب لأنه لم يعد طاهرا

لأنه دنس هيئته الإلهية الأبية،

ودفع بجسده الأوليمبي إلى الضمور، كوثن يحترق،

في عبوديات قذرة!

نعم، فحتى بعد الموت، يريد الحياة

في هيكل عظمي شاحب، مهينا الجمال الأول!

والوثن الذي أسبغت عليه الكثير من البكارة،

وبه ألهتِ طينتنا، المرأة،

ليمكن للإنسان أن يضيء روحه البائسة

ويرتقي ببطء في حب هائل

من السجن الأرضي إلى جمال النهار،

تلك المرأة لم تعرف حتى أنها محظية

- مهزلة كبرى، والعالم يستهزئ

بالاسم الرقيق والمقدس لفينوس العظيمة!

لم يسلم أحد من الإذعان لطغيان الجمال، لا فردوس ولا ليلى ولا فريد العطار ولا عبد المولى، كلهم عداي، رغم اشتهائي العارم لها. رددوا الصلاة طائعين. أتدركين الآن يا ليلى أي جمال قد أعماني؟ أعرف تلك الصلاة كما أعرف كفي، لكني لا أتذكر قائلها.

انتهت الصلاة، فانهار العرش البائس، وانكشف عن جداره عرش أكبر من الذهب، مرصع بالجواهر على تل من الزبرجد الأخضر فوق بحيرة من ماء، فخروا ساجدين.

كانت تمسك بيديها النسخة الأولى من الجرذ الذكي، أنثى لا تحتاج لذكر كي تتناسل من نفسها، قبلتها في فمها، ثم أطلقتها. ثم حدثت شعبها: *"أحسنتم.. لقد هزمت الجرذان. مولانا رضخ لطلبكم، سيمنحكم الخروج من زاوية النجار إلى كركوك بالعراق"*.

هتفوا بحياة فينوس. ذكرهم مراد بك بالوعد. تقدم الزعيم الهندي وبصحبته عشرة من المختارين، خلعوا سراويلهم، حاملين ذكورتهم للبتر المقدس، فتحسست خصيتي تلقائيا.

فردوس لم تحزن على ولدها المغدور، كانت مسحورة تماما وهي تردد اسم نفيسة البيضاء مرة، وفينوس مرة، وليليث مرات الساكنة الأصلية لعدن، البغي المنبوذة. وتشرح لبناتها: *"لقد عادت، بعد آلاف الأعوام من لعنها كروح هائمة، لقد وجدت جسدها الملائم"*.

قالت ليلى: *"الفردوس في كركوك، هذا ما كان يقصده أبي"* ، فقلت: *"أخبرني أيضا أن الاتجاهات خدعة"*.

انتهى طقس الخصاء، انسحبت الذكورة المسحوقة إلى الأركان لتمرضها الحيات، ولم تنقص السعادة مثقال ذرة في الوجوه المؤمنة.

قال مراد بك: *"إذا نجحتم في العبور إلى الكوميونة في كركوك، والصمود هناك، ستستكمل نفيسة البيضاء ما بدأته بتمويل أبحاثكم للوصول إلى شجرة المعرفة"*.

قالت نفيسة البيضاء: *"حذارِ.. لن يمنحكم نخنوخ الخروج بتلك البساطة، بل سيضع في طريقكم ستة أفخاخٍ، قبل أن تقابلوا سيد الجحيم، حارس جيني حيث الفردوس"*.

تهلل وجه ماركس بالبِشر. التوسل وقبول العبودية كانا ثمنا بائسا، فقد كان الطريق إليها أمامه طيلة الوقت على خارطة يحملها مخابيل.

تابعت نفيسة: *"لا وصول إلى الفردوس قبل أن تعثروا على النسخة الأصلية من لوح الوصايا العشر، عليكم أولا تحطيم آلة الدوجما وأن تجدوا حديقة تفاحات ذهبية، وأن تقطفن لي منها ثلاث تفاحات، تخصني. وأن تقدموا غزال المتعة الصافية كهدية إلى جيني. لا خوف يا أبنائي، لا خوف، سأمنح فارسكم هدايا ستساعده"*.

كنت أظن أنها تقصد ماركس، لكنها أشارت إليَّ، كالعادة لا ترى إلا عبد المولى.

تقدمت متــرددا تحيطني الحيــات بالرعب، ويبعــث فحيحها القشــعريرة في نفســي. لكني قلت متحديا: *"أنتِ لا ترســلينهم إلا لسراب نهايته الهلاك"*. ثم وجهت غضبي نحوهم: *"أي عماء!!"*.

ردت بإغواء لا يقاوم: *"ألا يرضيك أن تحصل على صك نهائي بالغفران والحرية، موقع من نفيسة البيضاء؟ ألم تكتف من خداع نخنوخ؟"*.

قلت: *"كيف تعدين بما لا تملكينه؟"*.

أخرجت صــكا موقعا من مولانا بتنازله لها عن عبودية عبد المولــى. اعترضــت أن الصك لا يحمل اســمي: رزق نخنوخ الهواري، بل اســم عبدي. ردت بــازدراء: *"وما أنت دونه؟ لا شــيء. كيس صفن فارغ إلا من عبد المولــى وأرواح العائلة. إن تحــرروا وتحــررت"*.

لم أجد ردا إلا خطوة الموتى. أشارت إلى خادماتها. ثم ألبستني خوذة وقلدتني سيفا وقوسا وكنانة سهام وحذاء من نحاس ودرعا قويا.

تجهزنا للخروج، تقدمت وبصحبتي ماركس، دليلي الذي يعرف

الطريق إلى كركوك، حيث الاتجاهات خدعة، وطريق الحرير ينتهي إلى الفردوس. عندما انفتحت بوابات المعبد، كان شعب هائل مختار من العجزة وعديمي الموهبة والقراصنة والماركسيين والمنبوذين والثوار المحتملين والمعاقين والأغبياء والمجذومين والقوادين البررة، ينتظرون في الخلاء، بعد أن أشاعت نفيسة الخبر في طريقها.

هللوا لنبيهم ماركس المتوكئ على عصاه، ولم يخفوا إعجابهم بحذائي النحاسي. كانت دبابات مراد وجنوده تحرسنا في خروجنا الآمن إلى الهلاك.

الفصل الخامس

الكوميونة

1

بدأنا الرحلة محطمي القلوب، فاقدي الأرواح، سقيمي الأجساد، في طريق من صمت مطبق، قامرنا فيه بالعقل والروح والدين والقلب. كان الهواء راكدا وحرارة دون شمس تجعل من المسير جحيما. تهلك منا الأرواح التي عبرت كالجراد من المقابر إلى أودية سبعة تفصل بيننا وبين الأعتاب العلية. يستبد بنا العطش، يرافقنا الجوع كظل في حجة الهلاك والأمل، تطاردنا رصاصات جنود مراد بك على سبيل التسلية.

يقول ماركس عن نهاية الطريق مستعيرا مني صوت فريد الدين العطار: *"اسمه السيبورغ، ملك الشعب المختار، حامل ماء الخلود للجميع، وهو منا قريب، ونحن منه جد بعيدين، مقره تعلوه شجرة عظيمة الارتفاع، شجرة المعرفة، ولا يكف أي لسان عن ترديد اسمه، تكتنفه مئات الألوف من الحجب، بعضها من نور، وبعضها من ظلمة، وليس لفرد في كلا العالمين مقدرة، حتى يحيط بشيء من كنهه"*.

كان يمنحنا الإيمان كي نتحمل، بينما يقتله الشك واليأس من آن لآخر، فيوقف المسير، ويبزغ الجنون في عينيه ليسأل: *"ما الذي يحرك التاريخ حقا؟"* ثم يصرخ: *"الاغتراب ما انتهاش يا هيجل يا عرص، لحنك السخيف لم يعد يوحي لي بشيء"*. ثم يحول جنونه إلى شعب العجزة المختار: *"يا معدومي الموهبة.. يا قاع المجتمع يا ولاد الكلب"*. ثم يطارد أبدانهم بسوطه صارخا: *"بروليتاريا رثة غارقة في عفونتها. اقتلوا أنفسكم، ذلك خير لكم. لا نجاة لكم، أنتم قادرون على تحويل الفردوس نفسه إلى مزبلة قذرة"*. ثم يعود إلى صوابه مع بكائهم الملتاع واليائس، فيبكي ويرق ويعتذر ويمسح دموعهم بيديه المتسختين، ويغسل أقدامهم العارية بالتراب.

سرت بجواره، وفعلت ما لم أفعله في أي حياة عشت؛ تقاسمت معه نصف سيجارتي الأخيرة. هل أقع في غرام هذا المجذوب؟ أي جاذبية طاغية يحملها كجرثومة تستنسخ نفسها.

سألني بنبرة من يعرف الإجابة: *"لم تغب عنك فكرة قتلي بعد؟"*.

قلت ما بين المزاح والجد: *"لم تفارقني ثانية.. أنت فرصتي الأخيرة"*.

قال: *"كل ما أطلبه ألا تفعل قبل أن أحصل على غفراني من جبني"*.

قلت: *"أتثق حقا في وعد نفيسة البيضاء؟"*.

أخذ شربة من زجاجته، صمت قليلا قبل أن يتلو نصا من الذاكرة: *"الفرق بين الديكتاتورية الثورية والدولة معدوم؛ فالاثنان يمثلان القاعدة نفسها، ألا وهي حكم الأقلية على الأكثرية باسم الغباء المزعوم للفريق الثاني والذكاء المزعوم للفريق الأول. إن كانت البروليتاريا هي الطبقة السائدة فعلى من ستحكم؟ باختصار ستحافظ على وجود بروليتاري آخر يكون خاضعا لهذه السلطة الجديدة للدولة الجديدة"*.

سألته: *"من قائل هذا؟"*.

قال: *"عدوي.. باكونين. لم تصدق نبوءتي وصدقت نبوءته.. أتعرف لمَ يجتث الأنبياء والقديسون وأصحاب الرسالات الكفار والمشككين من حولهم؟ إنهم مزعجون كالذباب، يوقظ طنينهم ما هو حقيقي أكثر من الإيمان: الشك في أنهم على صواب، وأن مشقة الطريق تستحق. لهذا طردته ووسمته باللعنة. الاستغلال أم الطغيان؟ تلك هي المسألة. عندما طردته متآمرا من حركة الأممية الأولى، كنت أعرف أني أطرد ما أخشاه، لا وعيي مجسدا أمامي، أكثر توحشا وفظاظة وحرية. بالعودة إلى سؤالك عن نفيسة البيضاء؛ فديكتاتورية الأنثى لن تكون أكثر رحمة، تلك خرافة طيبة منسوجة بعناية، ستسحق الذكورة بدعوى ماضيها المشين"*.

قلت: *"كانت تلك وصية مولانا بشأن نفيسة. لا تثق أبدا في عبد صار سيدا"*.

قال ماركس: *"نخنوخ كالزبون دائما على حق"*.

قلت متعجبا: *"أنت من تقول ذلك؟!"*.

فأجاب: *"وكيف لا يكون في مسار صممه بنفسه وغسل فيه كل رأس، وجعل من كل كذبة حقيقة صادقة وأزلية. لن يكون على خطأ إلا بنسف المسار"*.

سألته: *"إن كنت تراه على صواب، ولا تثق في وعد نفيسة البيضاء، فلم المشقة إذنْ؟"*.

قال: *"الأمل في رؤية جبيني، ينخر روحي كسوسة، مثل غفرانك الذي تعلم أنك لن تحصل عليه. أما كلمات كالحرية، العدل، المساواة، الأخوة، فلم أخرج من أجلها، إنها ليست إلا خرافات العصر الحديثة، آلهة زائفة نستعبد باسم سرابها"*.

نهشني غياب الدخان. أوقف ماركس مسيرة الحشد من أجلي، وقف على صخرة، وهتف: *"من يأتني بسجائر ملء كفي، وأضمن له الجنة؟"*. فحظيت باللذة المجانية طيلة الطريق، أسميناها سجائر الفردوس.

واصلنا السير أياما، حتى رأينا كومة غبار آتية من بعيد، انكشفت عن باكونين فوق جواد، ترجل عن جواده، لكم ماركس: *"أية خيانة!!"*.

فهمت من صراخه أن ماركس هو من أبلغ عن مكان اختبائهم، وأن فراره من الكولوسيوم لم يكن إلا وسيلته كي تتبعه شرطة المتعة إلى هناك. لم ينكر ماركس خيانته: *"كان عليَّ أن أضلل نخنوخ بطعم قفص الغرابة؛ كي أبعد نظره عن كهنة مجلس الأنوار"*.

قال باكونين بحسرة: *"أتعدني حقا ضمن قفص الغرابة؟"*، فأجابه خجلا تلك المرة: *"الأنبياء دائمًا في اضطراب، أما أنا فلا أستطيع تحمل كل هذا، فارفع يدك عني"*.

كان يطرده مجددا، ويوصمه باللعنة؛ لأنه كما أخبرني لاحقا يوقظ فيه تلك المرة: الإيمان لا الشك. عندما كاد الحشد أن يفتك بباكونين، توسل منحنيا أمام سيده: *"لست إلا تلميذك في النهاية"*.

عرفنا منه أنه استطاع مع لينين أن يجد طريقا للفرار، وأنه يحمل خبرين أحدهما سيئ والآخر جيد، اخترنا أن يبدأ بالسيئ: *"لقد فر ستالين، واستطاع التسلط على غابة يقطنها جهاديون إسلاميون، يخبئون فيها كنوزهم. عاونه تروتسكي، ثم سرعان ما انقلب عليه، ونجح مع شيعته في ذبح ستالين باسم العدل ووصية لينين المزعومة. كان أكثر دموية من ستالين نفسه، علق رأسه في قلب الغابة كي*

يصير عبرة، وسمى نفسه النبي المسلح. خليفة يملك شعبا كاملا من العسكر يتحكم فيهم عبر آلة الدوجما. وتحت إمرته وحش يُدعى أسد الإسلام، والكنوز والجواهر التي ينتجها شعبه دون أن ينالهم منها شيءٌ.

أما الخبر الجيد فهو أنباء عن إضراب الميديوكرز في أكثر من دولة لتحسين الأجور، ومطالبة عديمي الموهبة بالمزيد من حصص المعرفة وتخفيض الرسوم عليها. اندلعت انتفاضة في فيينا، وعمت المظاهرات برلين ضد انتخاب الموهوبين ومحتكري المعرفة. ومظاهرات أخرى بدأت من زاوية النجار من أجل حرية تداول المعلومات والحق في استغلالها".

هلل ماركس للنبأ الجيد: "يا ميديوكرز العالم، اتحدوا". لم أعرف إن كان جادا في هتافه أم يواصل سخريته.

قال: "إننا سنتقدم إلى الغابة لتحطيم آلة الدوجما"، وحذرنا من أن في فتنة الكنوز والجواهر هلاكنا.

سألته وأنا قلق من دموية تروتسكي والوحش إن كان هناك طريق آخر لتجنب المرور من هناك، فأجاب: "كن رجل هذا الباب حتى يفتح لك، ولا تشح برأسك عن الطريق حتى يتضح لك".

2

حاذيت خطو ماركس، لا أمامه، لا خلفه.

تخبرنا فانجا عن ما سنجده: *"على مشنقة سوداء كأكتع لطيف، يرقص رجال الحاشية، حاشية الشيطان الضامرون، هياكل المحاربين الشجعان، عرائسه المتجهمة السوداء، الخليفة يشد بحبل العنق، دُماه المتحركة السوداء العابسة نحو السماء، وبصفعة على الجبين، بظهر حذاء بال، يدفعهم إلى الرقص على الإيقاع القديم لميلاد متجدد"* (*).

سرنا كالجراد نأكل الطريق، والدمامل وآلام الكبد تأكل جسد ماركس. كان يعرف علامة الطريق ووسمه، يجنبنا الأفخاخ الزائفة؛ احتشادا للفخ الضروري، خارطتي إلى الكنز لم يعد لها فائدة.

على حدود الغابة تصلنا أناشيد وصراخ، حتى رأينا أشجارا كأحبال المشانق، عليها ألف رأس لستالين المذبوح، تتأرجح كبندول ساعة، وكتب عليه بخط طفولي، كمكايدة: (النبي المذبوح).

(*) رامبو، حفلة المشنوقين الراقصة، بتصرف من ترجمتَيْ كاظم جهاد، ورفعت سلام.

سلح شعب العجزة نفسه بحجارة وأغصان شجر وما تيسر من أسلحة خفيفة، واختفوا كما أمر ماركس وراء تلال متفرقة خلف الغابة، حاول باكونين تنظيمهم بخبرة خرقاء في الحرب، لكنه عوضها بجمع اقتراحات من الحشد عن أفضل الوسائل.

خطوت بصحبة ماركس. رأيت تروتسكي يجلس على عرش من ذهب، يرتدي جلبابا أسود وعمامة مزينة بريشة ذهبية. تطوف مجموعة بملابس الحداد أنحاء الغابة منشدة أغاني الذنب في ترك تروتسكي يقتل غدرا في حياته الأولى. تجلد مجموعة أخرى نفسها بالسلاسل على الصدر والظهر، ويضرب آخرون جباههم بالسيوف. وتلطم أخرى الصدور بالكفوف، وتهيل مجموعة التراب فوق أجسادها.

"غرباء" صرخ أحدهم، فاضطرب الحفل. استل جنود تروتسكي أسلحتهم، وحل الغضب كحدأة فوق عمامته. ادعينا الثبات.

تقدم ماركس نحو العرش غير هياب من أثر الغضب. نظر في عيني تروتسكي الخليفة بقوة، ثم جذبه من لحيته قائلا: *"أتدعي حقا أنك أصدق أبنائي؟"*. كدت أتمزق غيظا من تصرفه الأحمق وأنا أسمع تكات البنادق.

سأله تروتسكي: *"من أنت؟"*، قال ماركس: *"تعرفني كما تعرف كفك، نبيك صاحب كتابك، الذي حولتموه من علم إلى طائفة،*

وحرفتموه كأي كتاب مقدس، *تظن كل طائفة أنها وحدها تملك حقيقته".*

ارتجف وجه تروتسكي لثوان من التأثر قبل أن يتماسك قائلا: *"لست سوى عطيل المغربي، تاجر تافه وبائع غرابة. أي بضاعة تافهة يبيعها النبي الكاذب الآن؟".*

قال ماركس: *"الفردوس. إن كنت أصدق أبنائي حقا، فلتأمر جنودك بالانضمام إليَّ، وتسليمي آلة الدوجما".*

قال تروتسكي: *"لكل نبي معجزة، إن كنت نبيا حقا فما معجزتك؟".*

قال ماركس: *"رأسك"*. ثم لمس عنقه، فنبتت رأس ستالين التي كان يخفيها بذبحها سرا في كل مرة.

أثارت معجزة ماركس الصغيرة الارتباك بين صفوف الجنود. شعر تروتسكي بفقدانه للسيطرة. فهبط من العرش، آخذا بيد ماركس نحو الشعب المحتشد بالإيمان وينخره الشك. سألهم: *"بمَ نؤمن هنا؟"*، قالوا: *"بالله الواحد الأحد"*. قال: *"وما جزاء الكافر؟"* رددوا: *"دق العنق.. دق العنق.. دق العنق"*.

سأل تروتسكي ماركس: *"أتؤمن بالله؟"*.

أجاب دون تردد: *"أؤمن بالله، إله العلماء الواحد الأحد، الذي لا تتغير لغته أبدا، وأؤمن بكتابه المقدس، كتاب التفاضل والتكامل، طاقته تسري كالكهرباء في جسد العالم، لا تفنى ولا تجلب من أحد سواه"*.

سأل تروتسكي أحد شيوخه: *"كيف ترى إجابته؟"*، قال الشيخ: *"الكفر عينه"*. استعاد تروتسكي بتلك الإجابة السيطرة على جنوده مجددا. ثم أمر بذبح رأس ماركس ورأسه الزائدة.

أطلقتُ صرخة هزت الغابة. وصلت الإشارة إلى شعب العجزة، فجاءوا من كل حدب وصوب، وأربكوا جنود الخليفة ذي الرأسين، نجح باكونين في تنظيمهم، وأبلوا بلاء حسنا، تحولت في المعركة بفضل قوة عبد المولى إلى آلة قتل جبارة، فمالت الكفة لصالحنا قبل أن يظهر أسد الإسلام، أسد في حجم الفيل وسرعة النمر وخبث الثعالب، ولبدته من الأشواك النارية السامة، فعم الاضطراب بين صفوفنا.

صرخ عبد المولى: *"يا سيد الوحوش.. لقد حان أجلك، وأزفت ساعتك"*. فقفز الأسد نحوي مباشرة، هالني حجمه، لكني تماسكت، نبش الأسد مخالبه في جسدي، فحملته بين يدي وقذفته بعيدا ليسقط محطمًا عدة أشجار. انتزعت شجرة من جذورها، وقسمتها إلى نصفين، جاعلا من أحد أطرافها طرفا حادا، وقبل أن ينهض الأسد

من سقطته، كنت قد قذفتها في كتفه، فخارت قواه. أسرعت قبل أن يفيق من إصابته وأمسكته من ذيله. ودرت به في الهواء عدة دورات، قبل أن أقذفه مرة أخرى. هرولت نحوه، وفتحت فكيه متجنبا أن يجرحني بأشواك لبدته السامة، ففصلتهما عن بعضهما، ولم أتركه إلا جثة هامدة. رن الصمت لثوان، توقف القتال، واستسلم جنود تروتسكي، ولاذ بعضهم بالفرار.

حملت جثة الأسد متوجها نحو تروتسكي الذي ألجمه الذهول، وحاول يائسا تحفيز جنوده على معاودة القتال، ألقيت جثة الأسد بين قدمَي الخليفة، بينما يهتف شعب ماركس المختار بحياتي. تحول الخليفة إلى وحش ضخم، له سبع رؤوس متكررة لستالين وتروتسكي ولينين، يسيل السم الزعاف من أنيابها.

فر، فواصلت مطاردته وحدي، حتى وصلنا إلى مستنقعات، اختبأ بها. غصت في المستنقعات، وبسيفي قطعت الرؤوس الثلاثة الأولى بضربة واحدة، لكن كل رأس قطعته نبتت مكانه سبع رؤوس جديدة، فتراجعت مرتبكا، لا أعرف ماذا أفعل. هاجمتهم بالهراوة من جديد حريصا على سحق الرأس دون قطعها، لكنه كان ينبت مجددًا. اختفى الوحش في المياه.

لحق بي ماركس والحشد. لاحظت أن عددهم قل إلى النصف، فعرفت أنهم تجاهلوا نصيحة ماركس، وانشغلوا بمخازن الكنوز

والجواهر الثمينة. لم يهلكوا كما تنبأ، بل عادوا من حيث أتوا، أغنياء وملوك.

ليلى أشارت عليَّ بفكرة، فلجأنا إلى حداد من شعب العجزة، صنع لي قضيبين من حديد، لكل منهما طرف عريض، ثم أشعلنا نارا قوية حول المستنقع، وضعت فيها طرفَي القضيبين حتى توهجا. أعطيتهما لماركس، ثم هبطنا معا إلى الوحش المختبئ، فكنتُ كلما بترتُ رأسا بسيفي، كوى ماركس مكان الرأس المبتورة بالحديد المحمي قبل أن تنبت مجددا.

دام القتال بيني وبين الوحش يوما كاملا، كانت رؤوسه خلالها تتناقص، حتى سقطت آخر رؤوسه وغمر دمه المستنقع، غمست سهامي فيه لتصير مسمومة لا يبرأ من جرحها مخلوق، لم يكن ما قتلته لتوي إلا آلة الدوجما.

كان ماركس حانقا على أتباعه الذين غرهم *"نفق الشهوات الذي لا نهاية له"*. نظرت بازدراء إلى من تبقى من حشد العجزة، القابضين على جمر ما يظنونه الحق.

3

عبرنا أميالا عدة، ثم توقفنا للراحة ولانتظار نبوءة فانجا التي يملك ماركس وحده تفسيرها.

رقدنا معًا، نراقب النجوم، وتراقبنا النجوم، كانت السماء بديعة رغم ما تحمله من نذر. ندخن الحشيش بلا اكتراث لمصائرنا.

سخرت من إعلانه أمام الخليفة عن إيمانه بالإله الواحد الأحد: *"ادعيت الإيمان، ومن قبل ادعيت الإلحاد"*، قال منزعجا: *"لم أؤمن سوى بالإنسان"*. فقلت لأثير غيظه: *"لم تكن يوما إلا يهوديًّا لم يخرج الإله من قلبه. لم تكن نظريتك إلا حديثا عن الجحيم وتعاليم الخلاص منه للوصول إلى الفردوس، المانفيستو لم يكن إلا لوحا للوصايا العشر، وشيطانك كان رأس المال، يا للسخرية شيطانك هو من حقق أغلب الوصايا. لم يكن بحثك المضني إلا محاولة لكشف خطة الإله، خطة التاريخ. أهكذا تنتصر عليه؟ هذا عين ما يبحث عنه المتصوفة اليهود. أي عبث، ماذا لو لم تكن هناك خطة؟ ولو كانت هناك واحدة، الإله الحق لا يكشف عن خططه، محاولاتنا*

الشاقة التي تدفعنا للإيمان وللموت لكشفها، قد لا تكون أكثر من ألعاب أطفال في عينيه".

قال ساخرا: "*ها أنت الآن تصنع مني نسخة جديدة، عالم كابالا يهودي، ماذا تسمي كتابي (الزوهار) بدلا من رأس المال؟"*.

واصلت المزحة: "*شروطك لتحقق الشيوعية وشروط المتصوفة اليهود يقولان أنكما تنتظران الشيء عينه: الزمان المناسب وتحقق الوعي، بتعبيرهم: نضوج النفس وقدرتها على الإدراك. وكهانتك التي تفسر اللغز فتصنعه، هي الطليعة الثورية التي تنشر الوعي"*.

قال: "*لم تكن الطليعة إلا نسخة لينين وإنجلز من ماركس. لكن دعني أتخيل.. لو استولى المتصوفة والسحرة والمؤمنون بقوة الأرقام الخفية ونظريات المؤامرة على مقادير الأمور، سيكون العالم أكثر إمتاعا. تخيل لو كان العالم أصلا محض لعبة، ألغازٍ كبيرة للتسلية"*.

قلت: "*حينها تصبح الدماء المهدرة، وذنب الخطايا، الشقاء، البؤس، الدموع، الضحكات، المحبة، الكراهية، الإيمان والكفر، محض أشياء لتزجية الوقت. أما الفردوس قد يكون سرابه ضروريًا كزمبلك اللعبة. لا خطة.. بل رميات نرد عشوائية"*.

قال: "*ستكون خطة ذكية"*.

ضحكنا، وقتلنا الوقت ونحن نتخيل شكل الأشياء شديدة الجدية

في العالم، لو كان كل شيء فيه محض لعبة، كأن تكون ملايين الكلمات التي سودها هيجل، ليست سوى رطانة وألعاب لغوية، بنية من وهم. وأن ما عرفناه، نعرفه، سنعرفه، ليس إلا أمراضا أسلوبية شائعة.

أخبرتنا فردوس بآيات إن تلاها ماركس قد تخفف من دمامله، لكننا فضلنا النوم وانتظار الصباح. لم يطل نومنا كثيرا، فقد همست فانجا أخيرا بالخطوة القادمة: *"حيث يختصر العالم إلى غابة مظلمة في أعيننا المذهولة، سوف تعثر عليه، لافتة البيت الأسود، شموس حقيقية للشطآن، آبار شعوذات، حيث ترى بوضوح بالغ مسجدا محل مصنع، ومدرسة طبول أنشأتها الملائكة، وعربات خيول على دروب السماء، وقاعة استقبال في أعماق بحيرة، المسوخ، الأسرار. حيث وعدنا بدفن شجرة الخير والشر في الظلام، عاجزين عن الإمساك فورا بهذه الأبدية، حين نكون أقوياء للغاية، فمن سيتراجع؟ ومبتهجين للغاية! فمن سيسقط من الضحك؟ وحين نكون خبثاء للغاية، فماذا سيفعلون بنا؟"*.

قال ماركس: *"إن هدفنا تلك المرة هو إيجاد غزال المتعة الصافية، هدية جيني"*. لمعت عيناه بالنشوة حين تذكرها، يقول: *"إن غزال المتعة في أرض تجار المخدرات المحرمة"*.

ظهرت اعتراضات ضعيفة الأثر من باكونين على الاستسلام

لقيادة عرافة ولكهانة ماركس الاستبدادية، لكنها اكتسبت بعض القوة، عندما قال ماركس إنه سيبتلينا بنهر *"من شرب منه ليس مني"*، رأيت ذلك جنونا في صحراء من عطش.

عندما وصلنا إلى النهر، ثبت بعضنا على ما طلبه ماركس. شربت مع باكونين متحدين إياه. ضاعف ذلك من أثر بضاعة باكونين وأتباعه. فتجرأ أغلب الحشد وشرب، إلا قلة تقبض على جمر ما يظنونه الحق، وقلة أخرى تأثرت بما ظنوه هلاكا لمن خالفوه باكتناز جواهر غابة الجهاديين.

استبد العطش بالقلة القابضة على الجمر، بعدما عبرنا النهر. ماركس شرب أمامهم بقسوة بالغة من المياه التي ادخرناها أثناء عبورنا دون أن يمنحهم قطرة واحدة. قبل أن تغلبه الشفقة ويأمر بسقايتهم، قائلا بازدراء: *"ليس هناك ما هو أخطر على فكرة من المؤمنين بها"*.

لم أفهم هذا المجذوب المختل أبدا.

بعد مسيرة أيام، بدأنا في سماع موسيقى شديدة الجمال والغواية آتية من اللا مكان. تبعنا ماركس، حتى وجدنا أنفسنا أمام قلعة حصينة فوق منحدرات عالية، مزينة برايات سوداء، وتحلق فوقها النسور.

رأيت عربات خيول تطير في السماء، وملائكة تدق على الطبول، ومسوخًا تقف في نوبات حراسة بأبراج القلعة. كنت أدرك أننا ندخل أرضا من الهلاوس لا وجود لها، لكن لم أكترث، فنحن قادمون من أرض لا وجود لها.

انفتح باب القلعة، وخرج أحد الحرس. سأل عن قائدنا، فأشرنا إلى ماركس. قال إنه لن يسمح لسواه بالدخول، لكن ماركس أصر على اصطحابي.

عبرنا البوابة. لم أر إلا بيوتا مهملة، يعيش فيها سكانها مع بهائمهم التي يعتمدون عليها في الأكل والشرب، مخلفين أكوامًا من القمامة والروث في كل مكان. أسقف البيوت وجدرانها متآكلة. لكن بدا على الجميع السعادة والنشوة في تلك الزرائب القذرة.

أعطانا الحارس أقراصا لابتلاعها، ونظارات أشبه بنظارات السينما ثلاثية الأبعاد. رفضتُ في البداية قلقا من محتوى الأقراص، لكن ماركس ابتلعها دون اكتراث، ففعلت مثله.

ما إن ارتديت النظارة، حتى اختفت الزرائب، وحلت محلها شاشة بيضاء وطرق خالية إلا من بيوت ظهرت كمكعبات زرقاء اللون، بينها أحواض ماء، وسكان بدوا كنقاط صغيرة سوداء على الشاشة، يمكنني محوهم إن أردت. مع رسالة ترحيبية: *"نتمنى لك رحلة سعيدة في الفردوس"*.

كانت النظارة تسمح لي أن أصنع الجنة التي أريدها، لكني اكتفيت بضغط زر إخفاء الرائحة.

رأيت غزال المتعة الصافية يعدو حرا بلا خوف، ولا يحاول أحد اصطياده، مرحا كالسعادة الغائبة، مطمئنا كالحرية، شديد الجمال والرشاقة، يملك قرنين ذهبيين وحوافر نحاسية اللون.

بدأت ملامح القلعة في الظهور مجددا، مع أثر القرص. فرأيت باعة المخدرات ومتعاطيها يتواصلون في انسجام وأمان تام، بلا خوف من متتبعين أو شرطة أو إدانة.

صعدنا إلى غرفة كبيرة منحوتة داخل قلعة الجبل. كانت مليئة بالتحف النادرة والجواري والغلمان. لكن الغرفة كانت أيضا معملا للمخدرات. رأيت شيخا يشرف بنفسه على طبخ ما، عرفتُ لاحقا أنه الهيروين، بجدية وشغف واضحين، وبدا أن الجميع يدين له بالولاء. خمنت أننا قد نكون في قلعة الحشاشين، وأني قد أكون أمام حسن الصباح، أو نسخة عن نسخة منه، كما علمني ماركس.

تقدم الشيخ نحو ماركس، متفحصا ملامحه بشك، تشممه بحذر قبل أن يلمس بمحبة بالغة أثر الدمامل على وجهه، قال ماركس معاتبا: *"حتى ملامحي التي تغيرت ليست عذرا لتتأخر في تمييزي"*، ثم احتضننا بعضهما في شوق.

قال الشيخ بلهجة متهدجة: "*كنت أعرف أنك لا تزل حيا يا صديقي*".

دخلا في وصلة بكاء وعواطف حارة. لم أفهم شيئا، قبل أن يقدمني ماركس إلى الشيخ كرجل نادر تحت مظهر تافه، ثم قدمه إليّ: "*رفيق عمري.. إنجلز*".

4

كان إنجلز بجلبابه العربي، يمسك بيد ماركس برقة محب؛ ليريه مشروعه الكبير الذي أفلت من قبضة مولانا. شعرت بشيءٍ من الغيرة.

أمدنا إنجلز بما أسماه (المخدرات الحقيقية)، يسألنا متعجبا: "*كيف تتحملان درجات الجحيم دونها؟ أي عقار ترغبان: النشوة؟ السعادة؟ السكينة؟ الصخب؟ الأمل؟ النهار الدائم؟ القدرة على العمل؟ الكسل؟ الرقص؟ أحاديث مع أجمل بنات الجان؟ الإشفاق على الذات؟ قبولها؟ الثقة بالنفس؟*".

جربت السعادة، ثم خلطتها بالسكينة، بينما اختار ماركس الحديث مع أجمل بنات الجان، لكن لم يظهر أي أثر سوى أن عقولنا صارت أصفى وأكثر تركيزا، على عكس ما كنا نبغيه، علل ماركس ذلك أن المخدرات تحتاج إلى أرواح حية. فردوس اختارت النشوة، حقا!! أصرت ليلى على أن تتناول عقارَي الصخب والرقص مع سارة وجيهان. أما مع عبد المولى فأجبرته على أن يأخذ علف العبد؛ القدرة على العمل الشاق.

يشرح إنجلز كل شيء في القلعة المستنسخة مع تعديلات طفيفة من قلعة الحشاشين، ثم يخبر ماركس: *"كل هذا هو لك.. صنعته من أجلك وباسمك.. وبقوة إيماني أن إمامنا الغائب ما زال حيا.. لم تصبني الدهشة عندما عرفت خبر خروجك مع شعب الماركسيين، كنت فقط أرى إيماني يتجسد"*.

ضغط ماركس على يد إنجلز الذي تابع: *"كنت شريدا، مطاردا، أخفي هويتي مثلك، كي لا يتشممني كلاب نخنوخ، في أرض مصدر قوتها هو إخفاء الهوية. يأكل نخنوخ كل يوم قطعة من الأرض الحرة. يقولون إن من أنشأها إله غابر يحمل مطرقة الرعد والبرق، ثور، صنعها على هيئة بصلة كبيرة درجات طبقاتها هي درجات الحرية والجحيم، عطفا على البشر وضد رغبة السادة"*.

كنت سأقول إنها أسطورة، لولا أنه أتاني ذات يوم شديد اليأس، ومعه رسالة: حررهم واستعد مطرقتي، فانطلقت متخفيا من مكان إلى مكان، أهمس في الآذان: *"إمامنا الغائب سيعود"*. لم يجتمع حولي في البداية سوى ستة مراهقين أذكياء، وسابعتهم جيني، شابة جميلة كعهدها، لا تستلطفني لكن قلبها يسعني، تكبرهم بأربع سنوات كما كانت تكبرك عندما وقعت في غرامك، تحب فيهم ما أحبته فيك؛ الوقاحة وسرعة البديهة.

كانوا هاربين من طريق الحرير، السوق التي حررت المخدرات

من أسعار السادة، تصل ليد الجميع بأرخص سعر وأعلى جودة، من أي نوع، ودون رقابة أباطرة التجارة، لا مكان فيها لغش.

على عكسنا، كان المراهقون السبعة، أنبياء وحورايين في الوقت عينه، قادرين على إعادة أفكارنا إلى الحياة، كتبوا لوحا جديدا للوصايا العشر، يستلهمنا، ولا يشبهنا. إيقاع ميلاد متجدد، قاوموا به لوح الوصايا العشر الزائفة للسادة: *خفض عجز الموازنة/ لا تنفق على الخدمات العامة/ وسع قاعدة دافعي الضرائب/ وحد أسعار الفائدة/ خفض أسعار الصرف/ الغ القيود الضريبية على المستثمرين/ شجع الاستثمار الأجنبي/ خصخص المؤسسات العامة/ الغ القيود على تأسيس الشركات/ أمِّنْ حقوق الملكية الخاصة.*

يشبهونك يا صاحبي، يستهلكون أنفسهم في الغضب والجدال، يعرفون تناقضات المسار، يمسكون جسده المترهل والضعيف من خصيتيه، يعصرانهما بلا شفقة أو رحمة.

لكن نخنوخ تتبعهم، وقتلهم واحدا تلو آخر، عدا جيني، التي استطاعت الفرار بلوح الوصايا العشر، لكنه تمكن من أسرها ووضعها في أدنى طبقات الجحيم، حيث يختبئ الفردوس.

"أما أنا؛ فأخذت على عاتقي إحياء ذكراك وذكرى الحواريين السبعة، وشرح تعاليمهم. فشيدت مع أتباعي قلعة محصنة لم يتمكن نخنوخ من اختراقها، فلا مكان لها ليرصده، إنها تنتقل كالجنة

المسحورة من مكان إلى آخر، تظهر وتختفي، وتختفي فتظهر. ثبّتُّ نفسي في طريقك كي تجدني، ولا يمكننا الانتظار طويلا".

توقف عن الحكي؛ ليقدم استعراضا حيا لإثارة إعجاب ماركس. اختار ثلاثة أفراد من أتباعه عشوائيا، ثم أمرهم بالانتحار قفزا من أحد الأبراج، فعلوها دون تردد. شهق ماركس: "*ذلك مثير للإعجاب*". ثم أضاف: "*الغباء دائما كذلك*".

تابع إنجلز: "*من هنا يمكننا تحرير العالم. بأتباع يحملون الولاء التام والطاعة حتى الموت، أمنحهم جنة افتراضية، لكن حين أحرمهم منها، يعرفون الفرق بين حياتهم الحقيقية، وما ينبغي أن تكونه. يأتيني المحروم، متوسلا، مذلولا، لكني أطرده قائلا: اذهب واستعد حياتك. لا يخرج من قلعتي كما دخلها أبدا، بل يتحول إلى ثائر، حانق، يدرك أي زيف قد امتلك وعيه طيلة حياته. قلعتي هي مصنع الثوار*".

لم يقابل ماركس حديثه إلا بعينين خاليتين من أي تعبير، سأله إنجلز: "*أخبرني عن خطوتنا التالية! هل آمر أتباعي بالانضمام إليك في المسير، هل نهجم على زاوية النجار؟ هل نخطط لحملة اغتيالات تسقط المسار؟*".

قال ماركس: "*لا حاجة لك بجنتي، فقد صنعتك جنتك بالفعل*".

بدت علامات الإحباط والخذلان على وجه إنجلز، فرغ غضبه

في أحد قاطني القلعة: *"هاي.. احذر مما تضعه في فمك"*. ثم موجها حديثه إليه: أعترف أن تلك نقطة ضعف القلعة الوحيدة، بعض أنواع المخدرات شيطانية فعلا، تقتل فورا، أو تمتص الأرواح، وتحيل الأجساد إلى حطام، لكن لو بدأت في تحريم الأشياء لانهار المبدأ.

نظر بعتاب بالغ نحو ماركس، منتظرا بيأس المحبين أن يقول شيئا يصلح به ما أفسده، لكنه لم يفعل.

تنحيت بماركس جانبا: *"إنه على حق.. بوابات الإدراك الكبرى والخروج على المسار لم تفتح إلا بالمخدرات.. لهذا لعنت"*. رد بعناد: *"ومن ينزع الخيوط عن يد بائعها؟ من يضع حدودا للنهاية؟"*.

قلت مستشهدا بفرويد: *"غاية الإنسان هي الحلم، وحقيقته هي الجنون"*.

ربت ماركس على كتف إنجلز، قائلا برقة: *"أعطني الغزال لأرحل من هنا.. إنه هدية جيني"*.

رد إنجلـز: *"هذا الغزال ليـس ملكا لأحد.. أتخون ما بشـرنا به؟"*.

"لسـت أنا من يبيع أفيون الشـعوب؟ ماذا عـن أحلامنا بطبقة محررة جذريا من الأوهام؟!".

"كيف صرت محافظا بهذا الشكل؟".

"منذ أدركت أني لم أوفر لعائلتي الحماية. كيف انتهى الحال بادغار؟ الموت. وحال ابنتي بعد رحيلي، الانتحار. أتتذكر عندما لم أجد ثمن كفن لابنتي الرضيعة؟".

"لكنك لم تساوم حينها، كان ردك واضحا، قلت لي إنك عرفت من قبل معنى سوء الحظ، والآن عرفت معنى التعاسة والقلب الكسير، ولا عزاء لك سوى أن نسعى معا لتغيير العالم، ها أنا أفعل".

"لا أرغب في تغيير العالم.. تكفيني مرة.. محرر العبيد صنع الملايين منهم، ومنح السادة سوط النظرية".

"ليس خطؤك".

صمت ماركس قليلا، قبل أن يأمر أحد أتباع إنجلز أن يرقص كقرد. فعل الرجل ذلك في سعادة. قال ماركس: "لا تحصل القرود على الحرية أبدا".

قال إنجلز: "حسنا.. تريد غزال المتعة فلتستحقه إذنْ.. رأيتم زرائب القلعة القذرة، إذا نظفتها في يوم واحد، سأعطيك إياه".

"لكنك تعلم أنها مهمة مستحيلة وحقيرة".

قال إنجلز بتحدٍّ: "هذا ما لديَّ".

قلت لماركس: *"سأفعلها، لديَّ القوة. شكرني، لكني همست في أذنه: أي واعظ سخيف تحمله في قلبك!"*.

كانت الزرائب تحمل خراء وقمامة عشرة آلاف شخص. لماذا ينظف أحد الجنة؟ أثناء محاولتي الأولى، سمعت همسات ضاحكة من أتباع إنجلز. يعرفون أنها مهمة تفوق طاقة البشر، وعرفت أنه قد كلف بها من قبل مائة من أقوى رجاله، ظلوا يعملون طيلة شهر كامل، ولم يسفر الأمر إلا عن تضاعف القذارة.

طلبت من إنجلز أن يخلي القلعة من سكانها إن أراد الحفاظ على حياتهم؛ لأن الأرض ستهتز وأنا أنظف الزرائب دفعة واحدة، لم يصدقني.

أمسكت معولا ضخما، واخترت مكانا على جانب النهر الذي يوصل الماء إلى القلعة، ضربت بمعولي لأحول مجراه إلى سفح الجبل حيث تقع الزرائب، فانحدرت مياه النهر بعنف إلى أسفل مكتسحة ما أمامها إلى خارج القلعة. لكنها صبت في نهر آخر أكثر عمقا، نهر وادي السيليكون الذي يهرب منه إنجلز. اكتسحت القاذورات من الزرائب في لحظات.

جن جنون إنجلز: *"لقد كشفت موقعنا للسادة، ما هي إلا لحظات حتى نجد قواتهم هنا"*. أمر أنصاره بالقبض عليَّ، لكنهم كانوا

مشغولين بالهرب من الفوضى التي خلفها فيضان المياه. قلت: *"سأصلح كل شيء"*.

لكن ماركس فاجأني عندما طوق إنجلز، مهددا إياه بسكين فوق الرقبة طالبا غزال المتعة. رفض قائلا: *"النهر هو من أتم المهمة، لا أنتم"*.

كانت القلعة تنهار تحت أقدامنا، وقوات مولانا تقترب. ثبت ماركس السكين أكثر على رقبة إنجلز، فنزف مجروحا. قال إنجلز: *"أتقتل أخاك؟"*. قال ماركس: *"سأنقذك"*. ثم ذبحه. أفلت الجسد المنتفض على الأرض، وردد باكيا: *"سامحني"*.

صرخت غاضبا: *"مختل.. خائن، لمَ؟"*. رد ماركس: *"لا تسأل عما لم تحط به خبرا. الآن أسرع.. لا وقت لدينا سيلحق بنا جنود نخنوخ، اصطد غزال المتعة، وسأسير بالحشد إلى مكان آمن، سأعرف كيف أجدك"*.

5

انطلقتُ في أثر الغزال، لكنه كان شديد السرعة، فلا الخيل تلحقه ولا الريح تسبقه، لكن الحذاء النحاسي، هدية نفيسة البيضاء، كان عونا على السباق الرهيب، كان حذائي وحوافره النحاسية يحدثان رنينا هائلا في الجبال والوديان الخالية، لا أعلم كم لبثنا في العدو، ربما أياما وربما أسابيع وربما أشهرًا. كان يمرق في سرعة بالغة، ثم أعدنا دورة المطاردة من حيث بدأنا، دون أن نتوقف عن الجري، حتى أصابه التعب، وروح عبد المولى ترتق رئة المدخن المهترئة.

اقتربت منه رويدا رويدا، حتى وصلت إليه، لكن ما إن هممت بالقبض عليه، حتى شعرت بالأرض تهتز تحت قدمي. وسمعت داخلي صراخا مخيفا وغاضبا.

كانت فردوس التي منحها الغضب الانعتاق عن جسدي. تجسدت أمامي، كما لم أعرفها من قبل، أقوى من كل شيء، كإعصار يمكنه ابتلاع الكون. لم تغضب مني من قبل تحت وطأة أي خطأ أو خيانة. على ظهرها رأيت قوسا وجعبة أسهم نارية. قالت:

"أأنت الذي تحاول خطف معبودي؟ ألا تعلم أنني لو شئت لأرديتك بسهامي؟".

ركعت تحت قدميها، متضرعا: "لا أفعل ذلك من تلقاء نفسي. لا أريد سوءًا بالغزال. إنها مهمة أمرت بإنجازها؛ كي تُفتح للعائلة بوابات الفردوس".

انحنت على غزالها المرهق من الركض، ربتت على عنقه بحنان بالغ، نظرت في عيني، ثم قالت: "أتعلم لَمَ كنت أغفر لك دوما، رغم كل خطاياك التي لا تغتفر؟".

قلت: "لَمَ؟".

قالت: "شيء في عينيك، صادق لا يلوث. أملك الدائم في النجاة وأن اللعبة قد تبدأ من جديد وأنت شخص أفضل، كراهيتك العميقة لمسارك رغم انغماسك فيه. لم يتبدل فيك هذا يوما واحدا، جوهر صلب. سأترك لك الغزال، لكن لو أصابه جرح واحد، فلن تحصل مني إلا على عقاب نهائي وقاصم".

أعطتني إياه، بعد أن همست في أذنه بكلمات لم أتبينها، ثم اختفت.

سرت بجوار غزال المتعة كخصمين يقدران بعضهما، أنهكهما عبث الفوز والخسارة. لم أقيده، ولم يحاول الفرار، ممتثلين معا لوصية فردوس.

أنظر للغزال، حياة من اللذة الصافية، حلم الميديوكرز الذي لن يتحقق، يعرفها الأثرياء فقط، ويحجبها عنهم الشره للمزيد. لا يدخر إلا الرأسمالي، بينما يصرف جادو دخله كله على عشاء وملابس لأطفاله، كأن لا جوع غدا، ولا ظمأ. عندها وللحظة سرعان ما تزول يصير سيدا في حديقة خيالية تدعى الفردوس.

لو كنت مكانك يا ماركس، لما أفنيت عمري في الدفاع عن حق الفقراء في الثروة والعمل، زوج ابنتك كتب نصا قصيرا أذكى من رأس المال: الحق في الكسل. لقد وأده أتباعك، رغم أنه وضع إصبعه على الجرح تماما: *"هوس غريب، يحكم الطبقة العاملة في جميع البلدان التي تسود فيها الحضارات الرأسمالية، هوس أنتج البؤس الفردي والمآسي الجماعية التي تسود في المجتمع الحديث: حب العمل"*. لو قابلت لافارغ، زوج الابنة الذكي، سأصرخ معه في وجه البروليتاريا التي تأمل في المزيد من العمل، ويُنظر أنبياؤهم لحقهم فيه: *"عار عليكم.. عار عليكم"*.

6

حاذيت خطو الغزال، لا أمامه، لا خلفه، حتى وصل بي إلى الحشد.

يعيشون حياة مزرية في خيم ممزقة، لكنهم استطاعوا اكتشاف التسلية بصناعة ثور من ذهب غير خالص، عبدوه لتزجية الوقت. هُيِّئَ لي أن له ملامح مولانا دون هيبته. كيفوا حياتهم هنا بسرعة، وتكونت مصالح وتجارة وحياة يمكن لعنها والاستفادة منها في آن.

لم يكنّ ماركس أي ضغينة نحو الثور، بل تأمل صنعته في إعجاب، وكافأ صانعه على عمله الفني المدهش، لكنه أثّر على صهره. رمى ترابه في بئر وأمرهم بالشرب منه، من رفضوا طردوا من صحبتنا.

وجدت الوقت لألومه على ذبح إنجلز، قائلا: *"انتصر مولانا بالحصول على قلعته"*.

قال: *"فليفعل.. فليبلغ ذروة انتصاره"*.

قلت: *"لا أفهمك"*.

قال: *"حتى لو فهمت، ستصنع من فهمك نسختك الخاصة مني. لم يقتلني إلا التأويل"*.

ثم ابتسم ابتسامة الكهنة السخيفة. فقلت متعمدا إثارة غضبه: *"لم يحيك إلا التأويل، لولاه لكنت شبحًا من حفريات التاريخ. تقول هذا كي تجد منفذا تعلق عليه براءتك، جرثومة القهر كانت بين تعاليمك. جحيمك الحقيقي، ليس شوكك إلى جبيني. بل أن تواجه ما ظننت أنك قادر على تثبيته، كشأن أي مستبد: التاريخ"*.

قال: *"ببغاء، جحيمي الحقيقي هو أن أوجه نفسي بصحبة قواد"*. ضحكت مكتفيا، فقد حصلت على مرادي باستفزازه.

التفت عني إلى الحشد، هتف فيهم: *"انثروا الأرواح، وسيروا في الطريق"*.

كان علينا أن نجد الثلاث تفاحات الذهبية، خيمنا عند ضفة نهر. في الصباح لم نجد الحشد، كنت أنا وماركس وباكونين عراة، وثلاث فتيات شديدات الجمال يدلكن أجسادنا المنهكة. في أعينهن الواسعة كحل وملاحة وحسن وبهاء، كأنهن لؤلؤ مكنون مستور عن الأعين والريح والشمس. لا عيب في وجوههن، كاملات الأوصاف، تأملك فيهن يسر الخاطر والنظر، كأنهن الياقوت في الصفاء والمرجان

في البياض، طلة وجوهن تضيء ما بين السماء والأرض وطيب ريحهن يملأ ما بينهن. كنا في الجنة لا شك.

وحده ماركس من بدا عليه الانزعاج، فأزاح فتاته بعنف ليسأل: *"أين شعبي؟"*، قلت ساخرا: *"السؤال الأهم الآن أين ملابسنا؟"*. أحضرت لنا الفتيات ملابس جديدة ونظيفة تفوح منها روائح المسك، أي قذارة كنا نحملها.

قالت فتاة ماركس: *"شعبك في أمان. صدقني إنهم راضون تماما، لقد حصل كل واحد منهم على شريكه الجنسي المناسب. للرجال نساء ورجال وغلمان، وللنساء رجالهن ونسائهن. لكلٍّ على قدر شهوته ومن كل حسب قدرته. جزاء المحبة والإيمان والمشقة.. ألم تدرك بعد؟ إنه الفردوس"*.

قال: *"فردوس زائف يزرعه نخنوخ في طريقنا"*. مضى غاضبا، فذهبت معه، متجنبا الاعتذار لحورية الفردوس؛ كي لا أشعل غيرة ليلى المتقدة.

وصلنا إلى الحشد، كان غائصا في لذات جماعية وكرنفالات من السعادة.

عاد ماركس غاضبا إلى الجميلات الثلاث. تشجعت وسألت فتاتي عن ليلة أمس، فأجابتني أننا مارسنا الجنس سبعًا وعشرين مرة في

ليلة، قلت: *"لا شك فهي الجنة"*. ثم أكملت في دلال: *"أنت رائع يا عبد المولى"*. ضحكت ليلى ساخرة، وشعرت بالحرج.

سأل ماركس فتاته عن مكان التفاحات الذهبية. فأجابت: *"لا يعرف مكانها سوى شخص واحد، لكنه بخيل مجنون وقاس، يسكن على شاطئ نهر"*. ثم أضافت: *"ألم تكتف من المشقة، عمَّ تبحث أكثر من الفردوس؟"*.

صرخ ماركس في شعبه أن يكف عن اللذة من أجل (حديقة تفاحات غبية)، قلت. لم يجب دعوة ماركس سوى مائة شخص. فقال غاضبا: *"ليحصل كل على فردوسه"*.

مضينا بعد أن ودعتنا الحوريات وداعا مفعما بحرارة الغرام. أصر باكونين على مضاجعة أخيرة قبل الرحيل. قال ماركس: *"لا أرفض المبدأ، أرفض الخداع"*، وقضى وطره من فتاته.

في الطريق، عاتبته. قال: *"أنت أبله.. لم تضاجع إلا يدك. صور. أتحب مضاجعة الموتى إلى هذا الحد؟"*.

وصلنا إلى حيث دلتنا حوريات الوهم. لم يكن الرجل العجوز إلا ستيف جوبز، يجلس في ردائه الكهنوتي الأسود، بشعر ولحية طويلين بملامح أكثر قسوة وبجسد أكثر عجزا، يصلي صلوات غامضة ويشوي سمكة.

ذكّره ماركس بأيامه الأولى عندما كان يؤمن بتوزيع الثروة وأن المعرفة للجميع، لكنه رفض بشدة أن يدلنا على حديقة التفاحات الذهبية، أمسكته من رقبته مهددا إياه، لكنه سرعان ما تحول إلى جرادة سوداء، فانفلت مني قبل أن أطبق يدي عليه من جديد، فتحول إلى ثور ضخم، تقهقر إلى الخلف قليلا، ثم اندفع بقرنيه الحادين نحوي، فحدت عن طريقه، ثم درت حوله، حتى قبضت على قرنيه بيدَي عبد المولى الفولاذيتين، لويت عنقه حتى بدأ يخور خوارا مروعا، لم يتحمل وطأة الألم، فعاد إلى طبيعته الأولى ككهل، جاثيا أمامي، ليخبرني أن أتوجه إلى جبل، فوق قمته رجل معاقب بحمل السماء، الوحيد القادر على قطف التفاحات الذهبية.

أطلقت سراحه، ومضينا إلى الجبل، صعدت إليه وحدي لوعورته. لم يكن حامل السماء إلا أبي مرمم الأجساد. كان مرهقا جدا، أثار شفقتي فطلبت أن أحمل عنه ثقله لأريحه قليلا. رفض في البداية، ثم استسلم لتعبه، فحملتها عنه.

كانت سماء أرض الظلام، أخبرني بما تحمله، معلومات بلا نهاية، تسري عبرها إلى حيث نبغي: شجرة معرفة الخير والشر. وأن مولانا حكم عليه بحملها؛ عقابا له على خيانته بمساعدتي في اختلاسه، وعندما منحني سرا روح فريد الدين العطار، التي تحميني من أصير محض آلة.

أخبرته عن حاجتـــي. فقال: *"حديقة التفاحـــات الذهبية، حديقة صغيـــرة في غابة الســـيكويا العملاقة بقصر مولانـــا. وحده مرمم الأجساد يستطيع العبور إلى ما حرم عليَّ"*.

أدركـــت أن جادو كان علـــى حق فـ(الاتجاهـــات خدعة)، كل الطريق الذي قطعناه ابتعادا عن قصر مولانا لم يقربنا إلا منه.

غـــاب أبي عدة أيـــام ليحضر التفاحات، تأخـــر أكثر مما وعد. فتســـرب الشك إلى نفسي، وجثم ثقل الســـماء على جسدي. سلتني العائلة بالغناء.

عاد أخيرا يحمل التفاحات الثلاث. لكنه تردد في إعطائها لي. جلس على الأرض، ثم قال: *"امنحني يوما إضافيا قبل أن أحمل السماء عنك. الحمل ثقيل جدا يا ولدي"*.

مر يوم تلو آخر، وفي كل مرة يطلب يوما إضافيا. يبكي وهو يراني أحمل عنه السماء، قبل أن يقول بحسم: *"كل ابن منذور لموت"*، مقررا الرحيل تاركا لي حمل السماء والعائلة.

قلت: *"لا شيء أجمل من أن أفديك يا أبي، فلم أعرف الأبوة إلا منك، لم يعطف عليَّ أحد أو ينجيني من الموت إلاك. سأحمل السماء راضيا. كل ما أطلبه هو أن أحضر وسادة ناعمة من الريش تخفف وطأة الثقل عن عظامي"*.

كانت خدعة غبية، لا تنطلي على طفل، لكنه ابتلعها. هو في النهاية محض آلة لا يعرف الكثير عن الكذب، أو ربما أراد أن ينخدع. حمل عني السماوات ريثما أعود، نظرت إليه نظرة حنونةً، لكن قريرتي لم تحمل سوى الغدر. عدت إلى ماركس وأنا أبكي قائلا: *"سامحني يا أبي.. سامحني يا أبي"*.

دون أن يسأل ماركس عن شيء، احتضنني، حتى أفرغت حمولتي من البكاء، ثم مضينا معًا كان كالشمس، وكنت كالطفل في صحبته.

7

من هول الطريق تأوه الحشد، وسالت من أقدامهم الدماء، فقد رأوا الطريق غير معلوم النهاية. تملك الخوف منا، وسلط علينا التعب والجوع والبرد، رأى ماركس أن نتوقف عن استكمال المسير لنسترد عافيتنا. اختار من بيننا عشرة أشداء؛ للبحث عن الطعام.

قال باكونين: *"بأي حق كان لك علينا السبق؟ أنت تشبهنا ونحن مثلك تماما، فلَمَ نشأ هذا التفاوت بيننا؟ أي ذنب اقترفته أرواحنا وأجسادنا، حتى يكون الشراب المصفى من نصيبك والثمالة من نصيبنا!"*.

فأجابه ماركس: *"ما حصلت بذلك على ذهب أو فضة، فأي حظ تظنه"*. ثم أشار إلى الدمامل التي تغزو وجهه: *"أتمنى أن تتذكروها حين نصل"*.

ثم رأى أن يحدثهم عن (الفردوس المفقود): *"يقولون إن الشيوعية مستحيلة، وإنها انهارت بطغيان أتباعي. لكن ذات يوم عرف الإنسان أنها ممكنة. في كوميونة باريس حيث حقق العدل، وانتصب الحق،*

وحكم الشعب نفسه بنفسه، أول سلطة منتخبة من الفقراء والعمال في التاريخ.

تخلصوا من أداة القمع السياسي بالتخلص من الجيش الدائم والشرطة النظامية؛ ليدافعوا بأنفسهم عن مصالح الشعب، لا مصالح حكامه. اختفت الرواتب الخرافية بتحقيق حكومة قليلة الكلفة عالية الكفاءة. وضعوا حدا أعلى للأجور، أسقطوا الديون عن الفقراء، أعلنوا حرية الصحافة، وحصلت النساء على المساواة.

ثم استداروا إلى أداة القمع الروحي، فصادروا أملاك الكنيسة، دون حظر لممارسة الشعائر الدينية.

أما التعليم؛ فقد استعاد جوهره، بلا طبقية أو أفكار مسمومة، محاربين الداء الأول للأطفال: الملل.

ناقش الكل مصائرهم، من القاعدة إلى القمة. القضاة يعينون بالانتخاب، ويمكن عزلهم إذا ما حادوا عن النزاهة.

ذات يوم غزت باريس السعادة والضحكات وصارت مدينة هادئة، مفكرة، مناضلة، اختفت الجريمة؛ لأن أسبابها الاجتماعية قضي عليها.

نظمت التعاونيات الإنتاج الوطني وفقا لخطة مشتركة، فوضعت حدا للفوضى الدائمة للإنتاج الرأسمالي.

هل تريدون أيها السادة الأعزاء أن تعرفوا كيف تكون ديكتاتورية البروليتاريا؟ فلتلقوا نظرة على كوميونة باريس.. فجر الثورة الاجتماعية الكبرى التي تحرر الإنسانية إلى الأبد.

كانت الشيوعية الحقة، ممكنة جدا، لم تكن استبدالًا لحماقات الرأسمالية بحماقات الطغاة".

عندما انتهى، كان قليل من الأمل قد تورد في الأرواح المنهكة، والكثير من الأسئلة القلقة قد اشتعلت في الرؤوس، قال أحدهم لماركس: "*ما تصفه غير قابل للتكرار، والجنة جد بعيد، أين نحن من ظروف كوميونة باريس؟*".

فأجاب ماركس: "*يا أسير المجاز، لقد بعدت عن الصفة، وتعلقت بالصورة*".

قال آخر: "*عشقت الذهب، حتى صار هذا العشق جحيمًا في جسدي. وعندما لا تكون في يدي وردة الذهب، فإنني لا أستقر مثل وردة متفتحة*".

فأجاب ماركس: "*كل من قطع الذهب الطريق عليه، ضاع في الطريق*".

سأله آخر: "*لَمَ تصبر على الطريق؟*".

فأجاب: "إن لي حبيبًا وجهه كالجنة. فإن كان لا بد لي من جنة، فهذه جنتي".

قال آخر: "إنني لا أستطيع قطع الطريق، إنني عديم القوة شديد الوهن، ولم يعرض هذا الطريق أمامي مطلقًا، إنه واد بعيد وطريقه عظيم المشاق، لذا فإنني أموت في أولى مراحله، وما أكثر الجبال المحرقة في الطريق، إن هذا العمل ليس في مقدور كل مخلوق، وما أكثر أنهار الدم التي سالت فيه وفاضت، وفيه عجزت آلاف العقول، ماذا يتأتى مني أنا الضعيف غير الغبار؟".

فأجاب ماركس: "سيصيبك الهزال أكثر، إلى متى سيبقى قلبك في الأسر أكثر من هذا؟ إن كان حظك عثر في الحياة، فماذا لديك لتخسره؟!"

سألت امرأة ترتدي فستانا فستقيا وقرطين ذهبيين: "إن كل قاسي القلب عديم الإنسانية أقام لأمثالي قفصًا فولاذيًا، فظللت أسيرة هذا السجن الفولاذي أذوب شوقًا إلى ماء الحياة".

أجاب ماركس: "كوني كالرجال، وفي طريق الأحبة انثري الروح".

تقدمت وأنا أحجل، والدم يقفز من عيني اضطرابا، قائلا: "إني شغوف بالجواهر. ولما كانت الجواهر تزين مفرق الجبل دائما،

فدائما ما كنت أرى الملك في الجبل، وأفروديت في الصخرة العمياء، وداود في كتلة الرخام التالفة. وما وجدت جوهرا أنفس من الجواهر، ولما كان الطريق إلى السيبرغ شاقا، فستظل قدمي على الجمر والجواهر غاصة بالوحل".

فأجاب ماركس: *"لا تبحث عن الجوهر، إنه ضرب من الحجر، وكن جوهريا دائما في الطلب. ومن تعلق بأي شيء في الطريق، صار صنمًا له، فليهنأ بصنمه"* (*).

جاء الطعام، فوزعت مع ماركس وباكونين الخبز على الجياع، أكلنا بنهم بالغ عداه. كانت أكبادنا خاوية من كل رمق. قضم ماركس قضمة، ثم رمى الرغيف من يده كأن حية لدغته قائلا: *"جعلت خبزي سما روحي، لتعد روحي، وليمض خبزي"*.

فأخذت رغيفه، وأكلته بنهم، لا وقت لإدراك الحقيقة ببطن خاوية.

(*) بتصرف من منطق الطير لفريد الدين العطار.

8

جاءتنا نبوءة فانجا: *"المياه صافية، مثل ملح دموع الطفولة. هجوم بياض أجساد النساء في الشمس. وحرير رايات الحرب الغزير، من زنبق خالص تحت الجدران التي تدافع عنها عذراء ما. والمرأة ملاكا كانت أو عاهرة، كانت بحاجة إلى شخص عفي، ذي عتاد قوي. لكن حين تدق ساعة عقم، فإذا بالحصان والثور قد لجما شهوتيهما، ولن يجترئ أحد بعدها على رفع كبريائه الجنسي"*.

أثناء المسير، مرق رمحٌ بجوار رأسي، وجدنا أنفسنا محاصرين بنساء يمتطين الخيول، ويحملن أسلحة نارية، نصف عراة بملابس حربية، شديدي الجمال والقسوة، أثداؤهن اليمنى مقطوعة، وأثرها مكوي بالنار. تقودهن سيدة جميلة تضع زنارا من حرير، استسلمنا للأسر. لم أجد في نفسي القوة لهزيمة كل هذا الحشد من النساء.

ظللنا في الأسر ثلاثة أيام، نتبادل فيها الهمس المذعور عن مصائر ذكورنا، فالمحاربات يكرهن الرجال، ولا يخرجن هكذا إلا لمضاجعة ليلة واحدة، تكون الأخيرة لصاحبها قبل قتله؛ كي يستمررن في التناسل.

كن ينظرن نحوي ما بين الإعجاب والعطف، ويتهامسن، لم أكترث؛ فهن في الأغلب لا يرين إلا عبد المولى، الذي أغاظني تفاخره الفج بفحولته. قلت له: *"لا يرين فيك أكثر من ثور للمزرعة"*. فأجاب: *"لكنه يملك ما لا تملكه"*. فقلت: *"هل تظن حقا أنهن سيعبدن قضيبك، رغبتهن الحقيقية هي قطعه"*.

ثلاث محاربات تقدمن نحونا، فازداد فخر عبد المولى الطفولي فجاجة. الهوس بالفحولة يستعبد النساء والرجال أيضا. لكن عندما اقتربن تجاهلن وجوده، لقد أعجبتهن الرأس ذات الدمامل، رأس ماركس. قال عبد المولى بغيظ: *"سحاقيات!!"*.

تحسست إحداهن وجه ماركس برقة. ثم جلسن لتطبيبه. قال: *"تنتشر في جسدي كله، الجلوس جحيم، مؤخرتي تعج بدمامل كالمسامير"*. كان العلاج بسيطا. الماء. تتابعت المناشف المبللة على جسده.

قال ماركس الذي بدأت ثورة دمامله في الذوبان: *"وحدها جيني كانت تستطيع أن تسهر ليالي طويلة؛ كي تطيب جسدي بالماء، أي مشقة تحملتها، مياه صافية مثل ملح دموع الطفولة. لقد استنزفتها"*.

قلت: *"لا تقسُ على نفسك.. لقد فعلت جيني ما فعلت بقناعة كاملة"*.

قال: *"لا فارق، استنزفتها كأي عامل لامرأته.. الفارق أن ما انتجته كان يحمل سحر المجد"*.

قالت إحدى المحاربات: *"إن زعيمتهن ترغب في رؤيته"*، أصر على اصطحابي إلى خيمتها.

كانت رائعة الحسـن، رغم ردائها المتقشـف قياسا إلى كونها زعيمـة. ورغم أنهـا لا تملك خداع الغواية في عيني نفيسـة، بل نظراتها صريحة حادة وواضحة.

قالت لماركس: *"أأنت حكيمهم إذنْ؟"*.

قال بتحدٍّ: *"ربما"*.

قالت: *"أتعلم ماذا سنفعل بكم؟"*.

قال: *"سـتقتلين الذكور أو تتخذينهم خدمـا، لمحت بعضهم هنا يقومون بالطبخ والتنظيف والعكـوف على خدمتكن في ذلة. ربما تضاجعينهم، تقتلين نسل الذكور وتبقين الإناث"*.

تفحصته من جديد: *"أتعلم كم شخصًا مر عليَّ يدعي أنه ماركس؟! ألف شخص.. قتلتهم جميعا.. لمَ عليَّ أن أثق أنك هو؟"*.

قال: *"لا أعرف.. قد لا أكونه"*.

قالت: *"ملامح وجهك بعيدة كل البعد عنه، لكن في عالم كهذا*

لا يعد ذلك مهما.. علامة ماركس الحكمة، سأختبرك، فإن فشلت، ستقطع رقابكم جميعا قبل طلوع الشمس".

قال بلا اكتراث: "لا بأس".

سألته: "ما السبعة التي تخرج، والتسعة التي تدخل، والاثنان اللذان يقدمان شرابا، والواحد الذي يشرب؟".

فقال ماركس: "فأما السبعة التي تخرج فهي أيام الحيض، والتسعة التي تدخل فهي شهور الحمل، والاثنان اللذان يقدمان شرابا هما الثديان، والواحد الذي يشرب هو الرضيع".

قالت: "صحيح. سأسألك سؤالا آخر: "أبوك هو أبي، وجدك هو زوجي، أنت ابني وأنا أختك؟".

قال ماركس: "ابنتا لوط".

قالت: "يخرج كالغبار من الأرض. غذاؤه الغبار، يُسكَب كالمياه؛ ويضيء المنازل؟".

قال: "النفط".

قالت: "أثرت إعجابي.. لكن عليك أن تجيب على هذا أيضا. شيء عندما يعيش لا يتحرك، وعندما يقطع رأسه يتحرك؟".

قال ماركس: "السفينة في البحر".

سـألته من جديـد: *"الميت عاش ويصلي والقبـر يتحرك، من هو؟"*.

فأجاب: *"الميت يونس، وقبره الحوت"*.

همست في أذنه ساخرا: *"أنقذتك يهوديتك، كما أنقذتك الرأسمالية من قبل.. فلتشكر الرب"*.

قال ماركس لزعيمة المحاربات: *"ها أنا قد أجبت كل أسئلتك"*.

قالت: *"لم تثبت بعد أنك بالحكمة الكافية.. فرغم كل شيء لم تعرفني"*.

قال ماركس: *"لا أتذكرك"*.

بأسى واضح على وجهها تقدمت نحوه، أرته الزنار الحريري قائلة: *"إن لم تكن تذكرني، فاختبارك الأخير أن تتذكر هذا؟"*.

تفحص ماركس الزنار بعينيه، تبددت جهامة ملامحه إلى رقة، ثم تحولت إلى الغضب: *"من أين سرقت هذا؟.. هذا زنار جيني"*.

ابتسـمت زعيمة المحاربات، عادت إلى عرشـها الخشبي، ثم قالت بعتاب: *"أتتساوى سيدة البيت وخادمته؟"*.

تراجع خطوتين في وجل: *"هيلين؟"*.

قالت: *"الخادمة التي لا تليق بالعشق.. لكن بإنجاب ولد لا يعرف حتى وفاته من هو والده الحقيقي"*.

كان يحاول يانسا العثور على كلمات، قبل أن تقول هيلين: *"من بين ألف نسخة زائفة أنت الوحيد الذي تعرّف على زنار جيني. كيف يمكنك أن تخطئه. أتعلم.. أنا لم أحمل أبدا ضغينة نحوها، كانت تستحق عشقك، أفنت نفسها من أجلك"*.

قال ماركس متلعثما: *"لكنه زنار جيني.. يجب أن يكون معها.. لا معك"*.

"أحمق"، همستْ سرا. آخر ما يمكن قوله الآن.

الغيرة كانت تأكل وجهها، لكنها تماسكت كمحاربة قوية. أي عقل مختل في هذا العالم، يخلط كل شيء بكل شيء، ويصنع نسخه الغريبة؟! هيلين، بلقيس، محاربات الأمازون. صور، صور محض صور، لا شيء حقيقي واحد، إلا الحلم والجنون.

قالت: *"تريده؟، عليك أن تجلب لي شيئا. جماعتنا مهددة من ثور كبير، يتفاخر بفحولته مثل أي ذكر تافه وتحميه طيور متوحشة، عليك أن تحضر لي خصيتيه وقضيبه، لأعطيك الزنار"*.

قلت: *"لم نعرض أنفسنا لخطر كهذا من أجل زنار تافه؟ ألا يكفيها غزال المتعة؟"*، قال ماركس متجاهلا إياي: *"سنحضره"*.

قلت بعصبية: *"لن أفعل ذلك من أجل نزواتك"*.

قالت هيلين: *"الثور هو حارس الطريق، وحارس ذكورة مولانا.. لا عبور إلى الفردوس إلا بهزيمته"*.

لم أقتنع، لكني لم أملك ردا. قالت إنها سترافقنا لحمايتنا.

مضينا. بوجه يائس همست هيلين في أذن ماركس بشيء. صمت، ثم نظر إلى الأرض هازا رأسه بعلامة الرفض بتهذيب بالغ.

سألته عما همست به. أجابني: *"أخبرتني أنها على استعداد للتخلي عن كل شيء من أجلي، حتى زعامتها للمحاربات، مجدها الخاص، إن وافقت أن نهرب معا. أخبرتها أني لا أستطيع التخلي عنكم أو التخلي عن حلم تحقيق الشيوعية الحقة"*.

قلت ضاحكا: *"أصدقت تلك الكذبة؟ لقد أصبت على الأقل بعدم ذكر جيني"*. ابتسم وفي عينيه يشتعل الغرام قائلا: *"كل من له قدم في العشق راسخة، قد تخطى الكفر والإيمان معا"*.

9

سألته لتزجية الطريق ووحشته دون أن أنتظر إجابة حقيقية: *"أتصدق أني قد أستحق الفردوس؟"*. أجابني ماركس: *"ربما.. إذا ما تخلصت من جحيمك. ما زلت مسحورًا بنخنوخ، تخافه مرة، وتغضب منه أحيانا، وتلومه وتحمله مسئولية وضعك أحيانا أخرى، وفي كل مرة تطالبه بتملق ونعومة المتذللين أن يحقق لك شيئا ما"*.

لم أجب. حاولت إرباكه بسؤال آخر: *"أما زلت حقا تتمسك بالفكرة البالية أن انتصاره التام يخلق موته؟ أتظنه بتلك السذاجة؟"*.

قال ماركس: *"نعم هو بتلك السذاجة"*.

فأجبت: *"أنت تؤمن به أكثر من أي شخص آخر. يهيَّأُ لي أحيانا أن لا أحد يشبهه أكثر منك، لا ترى حريتك أبعد من آلته، ومع كل كر وفر هزيمة وانتصار تتماثلان أكثر"*.

أجاب ساخرا: *"كل المؤمنين بالله، يؤمنون بالشيطان ضمنا"*.

من أنا لأجادل المرشد. أنا ألاعبه بالحديث فقط، لو أراد مواصلة الجدل لهلكت.

عند نقطة ما، تقدمت وحدي حتى وصلت إلى جزيرة في وسط بحيرة، حيث تقطن الطيور الوحشية حارسة الثور، هائلة الضخامة تملك مخالب وأجنحة ومناقير نحاسية، وجبتها البشر، كان الوصول إلى أعشاشها مستحيلا. لكن محاربات هيلين اللواتي انتظرن بعيدا، دققن على طبول من صفيح، بعنف وتكرار أزعج الطيور.

فبدأتُ في اصطيادها بسهامي المسمومة. لكن عددها المهول فاق قدرتي. حشدت الطيور نفسها كسحابات ضخمة، وهاجمتني بضراوة، كادت أن تفتك بي. لم تفلح هراوتي إلا في جعلها تتراجع قليلا، لتهاجمني بقوة أكبر، ثم أدركت أنها تدرس حركاتي كالروبوتات في هجوم زاوية النجار، فتطور نفسها مع كل هجوم، فأيقنت هلاكي.

ما إن تسلل اليأس إليَّ، حتى وجدت درعا ذهبية أقوى من درعي ألف مرة تحول بيني وبين الطيور، وصوت نفيسة البيضاء يهتف: *"أرسلْ سهامك يا رزق، وأنجز مهمتك، فدرعي تحميك، وشجاعتك تستحق حمايتي وتشجيعي"*.

كانت المرة الأولى التي تذكر فيها نفيسة اسمي بفخر، لا اسم عبد المولى. عادت القوة إليَّ، وقضيت على الطيور واحدا تلو

آخر، عندما انتهيت، جلست أحاول استعادة صوتها العذب، أي امتنان يا نفيسة يمنحي رضا نادرا عن النفس.

عدت أدراجي بحثا عن الحشد. وجدت حافلات رمادية، كتب عليها حافلات الفردوس، ومعلقة على جدرانها صور ماركس بملامحه الأصلية في حياته الأولى.

توقفت إحدى الحافلات أمامي، أشار لي باكونين الجالس بجوار هيلين أن أركب.

فعلتُ، فرأيت ماركس مقيدا في المقعد الخلفي وحوله حراس يرتدون زي ضباط الجستابو. نظرت إلى باكونين ليشرح لي، أسلم رأسه إلى الأرض بحزن قائلا: *"لم يكن هو.. لم يكن ماركس. ما قطعنا الطريق إلا مع نبي زائف"*. نظرت إلى هيلين كي تكذّب ما يقول، لكنها عاجلتني: *"ماركس الحقيقي، وصل إلى فردوسه بالفعل.. نحن في الطريق إليه"*.

صرخت: *"كاذبون"*. حاولت أن أتقدم لتحريره، لم يكن لتلك الابتسامة المطمئنة المرتسمة فوق وجهه الآن أن يحوزها نبي زائف. لكن ضربة على رأسي أفقدتني الوعي.

أفقت فوجدتني مقيدا بجواره في الحافلة. أدركت أن عبد المولى مسلوب القوى، قوة أعلى تملكنا الآن.

همست في أذن ماركس: *"أحقا ما يقولون.. نبي زائف؟"*، قال بلا اكتراث لثقل التهمة ودون أن يغادر سخافة الاطمئنان: *"لا أعلم.. ربما"*.

كدت أن أسبه، لولا نظرات ضباط الجستابو الزاجرة.

وصلنا إلى بوابة كبيرة. عبرنا حدائق غناء تتخللها مساكن بسيطة التكوين. أشجار، أشجار، أشجار. لمَ ترتبط الجنة دائما بالخضرة؟ لون القطيع والتكرار، خمول التفكير وبلادته، السكون الزائف وانقطاع الطموح. رأيت خلايا نحل من البشر، شديدي الانشغال بالعمل، لكن الابتسامات تعلو الوجوه، وأغانيهم الحماسية تشعل فيهم البهجة، كان كل شيء نظيفا ورائقا رغم بساطة المباني. أتكون تلك هي الجنة؟ مجرد مكان بسيط، مرتب بعناية، يعمه السلام والسكينة، بلا بهرجة أو زخرفة أو حور عين أو أنهار خمر. توزيع الزهد لا الغنى.

عبر الجميع عداي أنا وماركس إلى مبنى حمل لافتة: (معبد الناس). قادنا الجنود بغلظة إلى مبنى من دور واحد، فهمت أنها زنزانة، كانت جيدة مقارنة بما حصلت عليه من قبل. مروحة وسرير وإضاءة معقولة وصنبور مياه وحمام نظيف وثلاجة، مكتبة صغيرة، حملت بعض كتب ماركس.

وجه ماركس كان يحمل آثار ضرب شديدة، بنطاله ممزق، وقميص بدلته كذلك، فيما بعد سأعرف أنها لم تكن آثار ضرب ضباط

الجستابو، بل أيدي وأقدام الحشد الغاضبة لتضليلها.

فكرت أني أكره حقا أن يكون ماركس مجرد نبي مزيف، هل هي محبة المجذوب، أم ببساطة كراهية أن أكون قد خدعت؟

كان يهذي. وجسده مصاب بالحمى، أرحته على السرير، خلعت ملابسه وحذاءه، وبللت المناشف الموجودة؛ كي أرطب جسده، لم أتبين من هذيانه إلا كلمة واحدة: "جيني".

أفاق عقب ليلة طويلة سهرت فيها بجواره. أشار إلى جيب سترته، فأخرجت ما فيه، وجدت أظرفًا معنونة: *"إلى جيني.. شارع الفردوس"*.

قال بلسان ثقيل ومجهد: *"اقرأها"*.

قرأت بصعوبة، كان خطه شديد السوء، كانت رسائل غرامية.

دخل علينا باكونين ضاحكا: *"لم يتحملوني كثيرا. ستطردني في كل مرة إذنْ، في حياتك الأولى ونسخك المتعددة. قالوا في الخارج إني كنز للفردوس في اليوم الأول، لكن في اليوم الثاني عليَّ أن أعدم بالرصاص"*.

قال ماركس غاضبا: *"جلف"*، ثم طالبني أن أعيد القراءة.

10

"ها أنذا أكتب لكِ ثانيةً، لأنني وحيد. ولأنه يزعجني أن أناقشك دائما في الخيال، من دون أن تعرفي عن هذا النقاش شيئا، أو حتى تتمكني من الحديث معي، إنني أراك أمامي رغم الغياب، لم تغيبي عن ناظري ولو ثانية واحدة، أحملك فوق يدي وأقبلك من الرأس حتى القدمين، وأركع أمامك وأتنهد. أحبك أكثر مما يستطيع عطيل أن يحمل من عشق لمحبوبته. مَن مِن مشوهي سمعتي وأعدائي ذوي لسان الثعابين قد اتهمني مرة بأني مؤهل لأن أؤدي دور العاشق الأول في مسرح من الدرجة الثانية؟ ولكن هذا هو الواقع، ولو كان عند الأوغاد ذرة من النكتة لرسموا (علاقات الإنتاج والتبادل) في جانب، وفي الجانب الآخر رسموني وأنا عند قدميك، وكتبوا في قصاصة: انظروا إلى هذه الصورة، ثم إلى الصورة الأخرى. غير أنهم أوغاد أغبياء، وسيظلون كذلك إلى أبد الآبدين.

يبدو أن الغياب المؤقت جيد، فالتعود على الأشياء من حولنا يجعل الأشياء تتشابه، ويصعب التفريق بينها. فالقُرب يُقزّم حتى الأبراج، بينما توافه الأمور والمألوف منها إذا ما نظرنا لها عن قرب

تبدو كبيرة وذات أهمية. والعادات السيئة، التي قد تزعجنا جسديًا وقد تتحول إلى صيغة عاطفية، تختفي عندما تذهب مسبباتها من أمام أعيننا. أما المشاعرُ العظيمة، تلك التي تأخذ من خلال القُرب قالب الأمور الصغيرة الروتينية، تكبر وتنمو وتأخذ بُعدها الطبيعي على حساب المسافة السحرية بينها وبين الأشياء. لقد خُطفتِ مني فيما يشبه الحلم، وها أنا أعرف بأن الوقت يقوم بما تقوم به الشمس والمطر للنباتات من أجل أن تنمو. ففي لحظات غيابك، يظهر حبي لكِ على حقيقته، كعملاق يجمع كل طاقتي الروحية وكل خصائص قلبي. فهو يعيد شعوري بإنسانيتي لي مجددًا، لأني أستطيع الآن أن أشعر بهذا الشغف الجم.

ستبتسمين يا قلبي وتتساءلين من أين لي فجأة بكل هذا الفصاحة؟ ولكني لو استطعت أن أضم قلبك الناصع إلى قلبي، لصمتُّ، وما تفوهت بكلمة. ولما كنت لا أستطيع أن أُقبّلك، وجب عليَّ الكلام.

لكن هو الحب، ليس ذاك الحب على أسلوب فيورباخ، وليس من أجل الاستمرار في هذه الحياة عن طريق تلك التغيرات الحيوية، وليس من أجل نساء هذا العالم، واللاتي بعضهن نعم يتحلين بالكثير من الجمال. لكن، أنى لي أن أجد وجهًا كل خواصه، كل تجاعيده، هو عبارة عن تذكار لأجمل وأعظم لحظات حياتي؟ حتى آلامي المبرحة اللامنتهية، وخسائر حياتي الفادحة التي لا تعوض، أراها

في محيّاك الجميل. إني أُقبّل الألم قبلة الوداع؛ إذا قبّلتك.

ألف قبلة لك وللأطفال"(*).

عطيل.

قرأت الخطابات واحدا تلو آخر، أكررها إذا انتهت، حتى غفا كطفل يحمل وجهه المتعب السكينة والهدوء، رغم مخالب الكدمات والدمامل.

باكونين قلد حركات جيني ومشيتها بسخافة وهو يتمزق غيظا لحمله على سماع (الرومانسية الفارغة). تجاهلت جلافته، وسألته عن ماركس (الحقيقي) بالخارج؟

قال باكونين: *"مجنون بالكامل، لقد خدعنا. نسخة مزيفة"*.

أشرت إلى ماركس النائم، وقد تجدد أملي. قال باكونين: *"زائف أيضا.. لا أحد منهما ماركس الحقيقي، لكن بعدما رأيت الهوس بالخارج، يمكن لي أن أؤكد لك.. لا أمل لنا سوى تلك النسخة الغارقة في عشق ساذج"*.

أوضح لي أن أثناء انشغالي بقتال الطيور، أوعزت هيلين إلى الحشد بزيف قائده. ما قالته كان منطقيا جدا: كل خطوة خطوناها، لم تسفر إلا عن انتصار نخنوخ. فكر في الأمر. الجهاديون صاروا

(*) كولاج من ترجمات لرسائل ماركس إلى جيني.

أشرس، ويعملون سرا لتحقيق مصالحه، استطاع نخنوخ عبر غابة الجنس الحر ابتزاز العالقين بها. أخبرتنا هيلين بكل هذا، وعرضت مقاطع مصورة لماركس الذي صنع فردوسه، كانت حجتها الحاسمة هي أن ملامحه تشبه ماركس الحقيقي على عكس مرشدنا، وسعادة أتباعه في فردوس معبد الناس على عكس شقائنا في الطريق. جنة على عكس ما وعد به صاحبنا، حققها فعلا.

فكرت فورا أن ما فعلته هيلين طبيعي للانتقام من إنكاره لولدها في حياته الأولى، ورفضه لعرض الهروب معا في حياته الثانية.

قلت: *"هل صدقتها يا باكو؟"*.

ارتبك قليلا، قبل أن يقول: *"لا.. لم أفعل"*.

قلت: *"لقد صدقتها.. أردت أن يكون مرشدنا مزيفا. الغيرة جعلتك أعمى كهيلين، لقد رأيتكما معا في الحافلة، غرامك ينمو فوق جثتنا"*.

قال غاضبا: *"حذارِ.. باكونين ليس بخائن"*.

قلت: *"أعلم.. لكن الغرام والحقد كذلك"*.

لكمني، كان قويا، وعبد المولى بلا قوة. ضربة عمياء وغاضبة أردتني أرضا، لكني شعرت رغم ألمها أنها توقظ عبد المولى، وتحرره من الشيء الغامض الذي يسلب قوته.

تحاملت على نفسي، وقفت قائلا لباكونين: *"اضربني"*. لكنه قرر في الوقت الخاطئ أن يتحلى بالعقل. تجاهلني وتوجه إلى المكتبة، أمسك كتاب (الحرب الأهلية في فرنسا) لماركس، قرأ عدة فقرات، ثم قال: *"لم يكن أمام الماركسيين إلا أن يزعموا أن برنامج كوميونة باريس -التي أثبتت خطأ أفكارهم- هو برنامجهم وهدفهم؛ كي يتجنبوا خطر السقوط والنبذ. هذا تشويه مضحك، هل ظن ماركس حقا أن العمال يلقون بالا إلى رطانته؟"*.

قلت مستفزا إياه: *"مخصي!!"*.

ترك الكتاب وقد تملكه الغضب: *"ماذا قلت؟"*.

"هذا الجسد الفحل لا يملك إلا قضيب نملة.. لماذا علينا أن ندفع ثمن فشلك الدائم مع النساء؟".

هجم عليَّ بقوة، ركلني ولكمني بغضب في كل موضع بجسدي. كان هذا بالضبط ما أريده، مع كل ضربة يتحرر عبد المولى أكثر، حتى استعاد جزءًا كبيرا من عافيته. فلويت ذراع باكونين خلف ظهره، حتى تلوى من الألم، قلت: *"فلتهدأ. لنخرج من هنا"*. قال مستسلما: *"حسنا.. حسنا"*. قلت: *"ساعدني، كي يرتدي ماركس ملابسه"*.

عندما عدلت جسد ماركس، رأيت ذلك للمرة الأولى، في نقطة أسفل الظهر تحوطها الدمامل، ختم صغير ومنمنم. أعرفه كما

أعرف كفي، ختم العبودية، باركود نخنوخ الذي يثبت ملكيته في هذا الجسد. تماسكت كي لا يلحظ باكونين ما وجدته. ألبسته قميصه بسرعة.

نبي مزيف. طيلة هذا الوقت لم يصحبني إلا عميل نخنوخ وصنيعته. لم أفهم لمَ صنع تلك النسخة وطلب مني قتلها؟

تتضح الأشياء البديهية ببطء، وكل شكي وإنكاري يتحول إلى حقائق. نحن مناجل الحشائش، نقتل الوحوش الكامنة؛ كي نفسح لآلات التقدم والنمو طريق الحضارة. كيف تهزم حشد النمل؟ أجمعه كله حول مكعب سكر كبير. طُعم زائف، فراديس مخاتلة. هكذا يتخلص من الماركسيين والعجزة والثوار المحتملين، ويملك الطريق بضربة واحدة. لم يبدد طاقته في مطاردة الفئران داخل جحورها، فليمنحها الأمان الوهمي للخروج. من يصدق منه فراديسه الزائفة فلا حاجة لقتله، لقد صار عبدا لنخنوخ.

كل شيء كان واضحا منذ البداية، التقيته في مسرح أعده نخنوخ، ومسار صممه سلفا. كان يحاول إخبارك منذ اللحظة الأولى: لست هو.

تضحك الآن يا نخنوخ؟ أتعلم شيئا، رزق ببساطة سيفعل آخر ما تتوقعه. أنا من سأمنع عنك الغفران، ستتوسل إليَّ، ولن تناله.

توجهت إلى الباب لأخلعه، لكنه انفتح ببساطة، ولا حراس. نبي معبد الناس يريدنا أن نخرج.

صفعت ماركس متخفيا وراء رغبتي في إيقاظه، لكني كنت أمنح غضبي منفذا للخروج، صحا فزعا، فابتسمت منافقا في وجهه.

خرجنا. قال باكونين: *"ماذا سنفعل الآن؟"* ، قلت: *"سأحطم الفردوس"* .

11

خلا الطريق إلى المعبد من الحراس، رفضت اقتراح باكونين بالهروب والعودة بقوة أكبر، واستسلم ماركس لما أراه. فصار السالك مرشدا لمرشده.

قلت لباكونين: *"فلنقع في الفخ، هو لا يرغب في قتلنا، بل في إيمان ماركس به؛ كي يكتمل إيمانه بنفسه"*.

شخر باكونين: *"أدركت هذا كله دون أن تراه"*. قلت: *"أملك خبرة لا تقبل الشك بالأفخاخ والإيمان. كل جروحي كانت منهما"*.

لا يثق باكونين الأناركي كالماركسيين بالبشر، شكهم البالغ بكل شخص، تصنيفاتهم الساذجة للآخرين بالعمالة أو الخيانة أو البرجوازية أو التحريفية، تدحض كل شيء عن إيمانهم البالغ بالإنسان. لا ألومهم؛ فالهوس ابن العقائد.

أفكر، هل يملك هذا البائس الغليظ الحل؟ فخلف كومة الخراء المتحركة بجواري، تكمن فكرة نبيلة عن الحرية. لكن ألم تعرف البشرية انحطاطها إلا عبر الإيمان بالأفكار النبيلة. قفص حديدي

مفاتيحه في أيدي الكهنة. والإنسان قد يصنع عقيدة شديدة التماسك والهوس حول خيط قماش، كما يتجمع الصديد حول الجرح، الإيمان غرغرينا العالم، وإن بترت ساقي ضعت، تلك هي المسألة.

أين تخبئ استبدادك يا باكونين؟ أين تكمن جرثومة القهر؟

تبعنا صوت الغناء الحماسي حتى وصلنا إلى المعبد:

لم أسمع رجلا يتحدث هكذا من قبل.

طوال أيام حياتي

لم أسمع رجلا يتحدث مثل هذا الرجل قط.

رأيت القس ماركس يعتلي منصة.. يا اللـه.. كان يشبه ماركس الحقيقي جدا. هيلين بجواره. تلك هي الصفقة إذنْ، أن تحل محل جيني.

كان حولهما أطفال من أعراق مختلفة، أفارقة وأوربيون وآسيويون وعرب، عرفت فيما بعد أنهم أطفاله بالتبني، عملا بنظريته عن تساوي الأعراق. أي نبل!

كان الحضور في معبد الناس ينبض بالقوة والحماس والحياة، أغلبهم من الفقراء والمنبوذين، انغمس حشدنا من العجزة وسطهم في طقوس الإيمان. كان لعيني القس ماركس سحرٌ أشد من ماركس

السكير بجوراي. يسيطر على الجميع كنجم روك، يتفاعل التابعون مع كل همسة تخرج منه:

"أمثل مبدأ كونيا.. مساواة كاملة في مجتمع يمتلك الجميع فيه كل شيء بينهم، حيث لا وجود للفقراء، ولا وجود للأعراق.. حيث ما يوجد أشخاص يصارعون من أجل الحرية والحق والعدالة.. أكون هناك محاربا معهم.. العالم مثل عائلة صغيرة.. كلنا أطفال، عجزة.. دون تكاتف، دون هذا العهد أن يرعى بعضنا بعضًا، فلا مكان لنا في العالم.. مثلكم.. ولدت وعشت كأني على الجانب الخطأ من الطريق.. عرفت الفقر والنبذ.. انظروا إليَّ.. ليس لديكم ما تخسرونه، من جاءكم قبلي وقال سأعطيكم منزلا؟! لا أحد. من جاءكم قبلي وقال سأمنحكم فراشا وأضمن لكم طعاما دائما بلا مشقة؟! لا أحد.. اتركوا كل شيء خلفكم دون خوف.. من تظنونه مستعدا لقول هذا.. يقولون كي تأكل عليك أن تعمل.. ماذا عن كبار السن والعاجزين عن العمل؟! لديهم هنا غرفهم الخاصة.. غرفتي فارغة من الأثاث.. لكن في غرفهم كل شيء.. كل شيء".

شرب جرعة ماء، وطوفان تصفيق. تمر امرأة بيننا هامسة في الآذان، مكررة تلك العبارة عدة مرات: *"هذا الرجل يملك قوة علوية"*.

يتابع: *"الأمل الوحيد يكمن داخلكم، ساعدوا أنفسكم، أو لن تحصلوا*

على شيء، لم تفعل الكتب المقدسة، ملحميات الكهنة أكثر من تعطيلكم. أتريدون الحقيقة؟ لا أحد سيهبط من السماء، لا جنة هناك.. فردوسنا هنا على الأرض.. بالأسفل".

علق ماركس السكير: *"لن أقولها بشكل أفضل"*. قلت: *"كلنا نعرف أين تقودنا الأفكار النبيلة في النهاية"*.

وزعت علينا أوراق وكتيبات، بينها ما أسموه الخطايا السبع: الغباء، الغرور، الأنانية الزائدة، خداع الذات، قصر النظر، التبختر الفارغ، نقص الحس الجمالي.

ذلك شديد الروعة.

وقعت ورقة مطوية بعناية بين الكتيبات، كانت رسالة إلى ماركس: *"أخرجنا من هنا. جيني"*. فسرها ماركس أنها استغاثة من هيلين، التي كانت تتابعنا بأعينها.

وقفت امرأة بيضاء صغيرة السن، قالت: *"أنا واحدة من القلة الذين نجوا من قلعة إنجلز، كنت أظن أن في المخدرات فردوسي. لكني أبصرت على يد القس ماركس، لولاه لما عرفت الطريق الصحيح. الآن أنا نظيفة كالماء، شفاني بلمسة منه، كما شفا مرضاكم من السرطان، وحمى أطفالكم من الموت، ووهبنا العمل والأطباء والمدارس والغذاء"*.

علا التصفيق والحماس. رفع القس ماركس قطة صغيرة في الهواء؟ سأل: *"ما الموت؟"*، ثم ذبحها أمامنا، ليتقاطر دمها المقدس في حوض تمسكه هيلين. ليتابع القس: *"الموت ليس إلا محطة أخرى. طريق سريع نحو النور. من يؤمن يملك الخلود"*.

ثم أشار إلى رجل مسن مقعد: *"ستشفى الآن"*. مسح القس فمه، فتح يده وأغلقها على هواء، آمرا إياه بالمشي، جن جنون الحاضرين، عندما قام الرجل المقعد، ثم بدأ بخطوة واحدة بطيئة، والقس يتابع: *"يمكنك أن تفعلها"*، فيبدأ الرجل في المشي، ثم الركض، فيشتعل المعبد من أثر المعجزة، ليقول القس: *"آمنوا فقط بما يمكنكم رؤيته.. إن رأيتموني كصديق، سأكون صديقا لكم.. إن رأيتموني كوالد، سأكون والدكم.. إن رأيتموني كمخلص، سأكون مخلصكم.. إن رأيتموني كإله، سأكون إلها لكم"*.

كل هذا الإيمان يصيبني بضيق في التنفس. لكن القس ماركس أمر أن تتقدم واحدة من المحاربات. قرأ خطابًا غراميًا أرسله لها شاب. كان خطابا فضائحيا رغم شاعريته، يصف ليلة جميلة مارسا فيها الجنس معًا.

أمر القس ماركس بأن تتعرى الفتاة أمام الحشد قطعة قطعة، صارخا: *"المتعة؟ أتتركون للذات الزائلة أن تعيقكم عن البناء والعمل*

والتكاتف ومساعدة بعضكم؟ تذكروا.. لم نصل إلى النور الكامل بعد".

ترك الفتاة المسكينة لعقاب أتباعه، تحرشوا بها وضربوها، ثم تكرر المشهد مع رجال ونساء آخرين بإخلاص شديد، لأسباب مختلفة الرابط الوحيد بينها هو الالتفات عن الفردوس. ذلك شيوعي جدا. أحدهم فقد وعيه من شدة الضرب، فصبوا فوقه جردل ماء ليفيق؛ كي لا تفوته حفلة تعذيبه.

نظر إلينا القس ماركس قائلا: *"والآن ماذا لدينا؟!.. نبي زائف"*.. قدم أمر كشفه لماركس كمعجزة، ما المعجزة في اكتشاف نبي زائف من قبل آخر أكثر زيفا.

لوح ماركس للجماهير في حركة هزلية، وانحنى لسبابهم. اكتسى القس بملامح الوداعة وهو يقول: *"أما آن لك أن تؤمن؟"*.

قـال ماركس بحماس: *"كنت أظن فـي نبوتي حتى رأيتك.. ألا أطمع في التوبة؟"*.

ابتسم القس: *"تريد الانضمام؟.. لا مشقة، ولا أعباء.. كل ما عليك أن تفعله قد فعلته.. أن تستقل حافلة الحرية وتأتي إلى هنا، كل ما تبقى أن تعلن إيمانك بي"*.

قال ماركس: *"نعم أرغب في الإيمان.. لكنّ لديَّ مشكلة بسيطة.. إصبعي مخدر من الألم، وأرغب في البكاء بقوة"*.

"انظر إليَّ" قال القس ماركس، ثم نفخ نفخته المقدسة في الهواء: *"الآن سيختفي الألم.. تقدم نحوي.. اركع وأعلن إيمانك للجميع"*.

تقدم ماركس إلى المنصة. تابع القس: *"انظر إليّ.. انظر إليَّ.. أنا أحبك.. كل من هنا يحبك.. المشقة انتهت، الكراهية انتهت.. ذب.. ذب.. افن ذاتك في الناس، تدرك.. تخلَّ عن روحك، تعرف. ابك.. ابك.. أخرج كل ما في داخلك"*.

بكى ماركس -لدهشتي- بكاء حارا وصادقا، كأن كل جراح الطريق ومشقته تكالبت عليه الآن. عندما فرغ من البكاء، لم يكن هناك من شك أنه صار مؤمنا حقيقيا. قال: *"إصبعي الآن بخير"*.

قال القس: *"أره لنا"*. لم يكن إلا إصبعه الوسطى مشهرا في وجه القس. ضحكت بشدة وأنا أراقب احمرار وجه القس من الغيظ والغضب. نبينا الزائف واحد.. نبيكم الزائف صفر.

انهال أتباع القس على ماركس بالضرب. تقدمتُ، وأزحتهم عنه، عصرتهم بين ذراعي وسط دهشة القس الذي ظن أنه يتحكم في قواي، لم يبق على حياتي إلا طمعا في استغلالها. توجهت إليه، لويت ذراعه، مهددا بخنقه. لم يتقدم أحد من أتباعه خوفا مني، لكني أعلم أنها مسألة وقت حتى يظهر السلاح، لن يقيم هذا الرجل فردوسه دون آلة قمع.

قلت: *"سأتركك حيا بشرط واحد.. أن تترك للجالسين هنا حرية البقاء أو المغادرة. إذا كنت ماركس الحقيقي، فلن تجبر أحدا على البقاء"*.

رُفعت يد خجولة، تبعتها يد أخرى. أحدهم قال: *"نعمل هنا عشرون ساعة، نُضرب لأقل هفوة"*.

ضربت عاصفة المكان من اللا شيء، اسودت السماء، وهبت الريح، وهطلت أمطار متدفقة، النذير أم البشارة؟

تتابعت الأيدي المرفوعة، قالت المرأة التي عريت لممارستها الجنس: *"لقد ضاجعني كي يهبني من روح النبوة نذرا، قال إن هذا من أجلي. لا أهتم.. لقد حرم علينا ما أحله لنفسه.. كم امرأة فعل معها ما فعله معي؟"*. ارتفعت الأيدي بتتابع، أيدي نساء ورجال وأطفال، قضيبه يؤمن بالمساواة.

قال القس: *"باب الفردوس لم يغلق يوما.. من يرغب في الرحيل، فليرحل"*.

تركت ذراعه ومضيت، لم يتبعني سوى ثلاثين فردا من الحشد إلى خارج المعبد. ظني أن الراغبين في ترك الفردوس أكثر عددا، لولا الخوف من ترك المألوف. أما الباقون فقد تمكن الإيمان منهم حد العمى عن رؤية الحقيقة البينة كشمس: نبيهم مهووس.

تقدمت هيلين محارباتها لحمايتنا. ركعت هيلين أمام ماركس في ندم. مسح على رأسها قائلا: *"غفرت لك"*. ثم عاد وقال: *"لا لم أفعل. لكني أتفهم.. أتفهم تماما"*.

سمعت القس عبر مكبرات الصوت يصرخ في أحد تابعيه: *"أترغب حقا في رؤية أهلك؟ يمكنني أن أرسلك إليهم.. لكن ليس في حافلة أو على خطوط الطيران. أترغب حقا في الرحيل؟.. إذنْ أغلق فمك القذر، ولا تتحدث مجددا"*.

عندما وصلنا، وجدنا بوابة الفردوس موصدة. تقدمت لأنزعها. لكن دوت أصوات الرصاص، فتفرق الحشد للاختباء. ونظمت المحاربات أنفسهن للرد. أسمع صوت القس المهووس يصرخ، آتيا من كل مكان كإله: *"أنسيتم العهد؟! عندما لا تملك شيئا فأنت تملك الفردوس.. الحرية أو الموت.. ما ماركس الزائف وكلب حراسته إلا جنود نخنوخ، أتوا للنيل من حريتنا.. سأخبرهم الآن بقراري.. أعطونا حريتنا أو موتنا"*.

لم يبث صراخه إلا الرعب في أتباعه، فتزايدت أعداد الراغبين في الانضمام إلينا، فتابع في يأس ينذر بكارثة: *"لا يمكنكم الرحيل.. أنتم شعبي.. أهلي.. ناسي.. عائلتي.. لماذا تودون الرحيل؟ حسنا.. ارحلوا إن أردتم، لكنكم تخونوني"*. تدافعت الأجساد. بينما انقلب يأسه إلى جنون تام: *"إن لم نستطع العيش في سلام.. فلنمت في سلام"*.

انطلق وحش على هيئة خنزير، قابضا على أرواح من يقع في طريقه. ورقة القس الأخيرة، التي فاجأت أتباعه أيضا. تقدم الوحش نحوي.

جنود القس كانوا يأسرون الأطفال من أمهاتهن: *"علينا فعل هذا.. لا أمل أمامنا إلا الموت"* يقول القس. كان الوالد يسلم طفله، والمرأة زوجها، والأطفال آباءهم. بينما تصرخ بعض الأمهات: *"لا أريد الموت لأطفالي.. إنهم يستحقون الحياة"* . فيجيب ببرود: *"رجاء أيتها الأمهات لا تفعلن هذا.. موتي مع طفلك.. لكن لا تتصرفي هكذا.. موتوا باحترامكم، موتوا بكرامتكم.. إنه ليس موتا.. إنه فقط ذهاب إلى محطة أخرى.. التحقوا بالنور.. بسرعة.. بسرعة.. بسرعة"* .

رأيت براميل تهبط من السماء، شرب منه أتباع القس طوعا وقسرا، إيمانا وكفرا، لم تكن إلا سم السيانيد، من رفض، حظي برصاصة سريعة في الرأس.

فر الخنزير، عندما شعر بصعوبة هزيمتي مع المحاربات. تتبعناه. حتى وصلنا إلى جبل يحد الفردوس، تقفينا آثار أقدامه، كانت خطتي هي دفعه إلى مغارة من مغارات الجبل التي أعدها القس لطقوس تأمله. تمكنا من حصار الوحش، ودفعه في مطاردة عنيفة، حتى سقط في مغارة عميقة، ألقيت عليه شباكا قوية. كنت أريده حيا؛ كي

يرى أتباع القس أن ما يخيفهم به يمكن هزيمته. فحملته إلى بوابة الفردوس، وأنا أخطو فوق الجثث المكومة، بينما ما زال صوت النبي المجنون يدوي: *"أنتم لا تنتحرون.. أنتم فقط تقومون بموت احتجاجي على ظروف عالم غير إنساني.. تشعلون الثورة"*.

كانت هناك سيدة عجوز على وشك الموت، ألقيت صيدي جانبا؛ كي أحاول إنقاذها. نظرت لي في وداعة قائلة: *"لم نرد تلك النهاية.. أردنا أن نعيش ونزدهر، أن نجلب الضياء لعالم يتشوق لقليل من الحب.. ربما لن يفهم أحد.. لكننا حاولنا"*. توقفت لثوان عن الكلام، ثم تابعت: *"لا أرى النور الذي وعد به، لا شيء سوى الظلام.. لكني لست نادمة.. كان الأمر يستحق.. أنا جاهزة للموت الآن"*. ودعت العالم بابتسامة راضية، لعلها في فردوسها الآن.

كانت السماء رمادية. أحاول عبثا إيقاف الأرواح التي تذهب جماعات للشرب من براميل الموت، نظرت لجثث الأطفال المكومة، وبكيت. ربما كنت أبكي زين، متذكرا كيف قتلته لأنجيه: *"كل ابن منذور لموت"*، كيف يسقي والدان طفلهما من شراب الإيمان والموت؟

لم ينج سوى ثلاثين روحا من الحشد. اختبأ بهم ماركس في إحدى غابات القس التي زرعها أتباعه. مدينة جميلة لولا السموم.

توجهت إلى منصة القس حاملا خنزيره. كان ينفذ المساواة بين

الأعراق بسقاية أطفاله المتبنين من شراب الموت. لم أنجح في إنقاذهم. ألقيت حملي الثقيل أمام منصته، قطعت الشبكة بسكين؛ ليتحرر الخنزير الذي حملق فيه القس طويلا قبل أن يعي أنه سيكون ضحيته الأخيرة. مزقه إربا.

حررت غزال المتعة مع المحاربات، بعدما أخبرتني هيلين بمكان حبسه. ثم عدنا إلى الحشد. فتحت بوابة الفردوس الموصدة. هلل الحشد بالحرية، أحاطوا ماركس بالمحبة اللائقة، رفعوني على الأعناق بجواره.

ونحن نخطو خارج الفردوس، قال ماركس: *"لقد عرفت أني لست هو أليس كذلك؟ كنت أحاول إخبارك طيلة الوقت. أتظن حقا أن نفيسة قادرة على تحرير جيني؟ وحده نخنوخ من يملك ذلك. صاحب المسار وصانعه.. هذا وعده.. لا أكترث للانتصار، كل ما اريده هو رؤيتها. لا تقتلني قبل أن أراها"*.

نظرت إلى الثلاثين روحا الناجية والمحاربات، ثم قلت: *"لن أفعل.. لقد بررت بوعدي لمولانا، لقد قتلت ماركس، حتى لو كان واحدا من نسخه الزائفة والمخاتلة. دوره الآن ليفي بدينه. كما أني لا أستطيع أن أنزع الأمل من هؤلاء، لقد تبعوك وكفروا بك من أجله. الإيمان هش. تنهيدة الكائن المضطهد، قلب عالم لا قلب له، وروح شروط بلا روح. أفيون الشعوب"*.

ضحك على تكراري لكلام ماركس، فضحكت. ومضينا عابرين بوابة الفردوس، مخلفين آلاف الجثث. من قتلوا أنفسهم من أجله، ليسوا حمقى. أنا أتفهم.. أتفهم تماما.

الفصل السادس

وادي الفناء

1

لكننا لم نذهب إلى أي مكان، فلم يكن ما عبرنا إليه إلا حديقة قصر مولانا المحرمة عليَّ أسرارها، غابته من أشجار السيكويا العملاقة. كنا هنا طيلة الوقت، لم نغادر متاهته أبدا، الاتجاهات خدعة كالموت وكالفراديس.

فانجا تهمس: *"لمحت الهداية إلى الخير والسعادة! الخلاص. إن استطعت وصف الرؤيا، فهواء الجحيم، لا يحتمل الترانيم! كانت هناك ملايين الكائنات الفاتنة*، ومعزوفة روحية عذبة، *القوة والسلام، الطموحات النبيلة، ما يدريني؟ هنا* حيث نرسل *إلى الشيطان* بسعف *الشهداء، وأشعة الفن وكبرياء المخترعين وحماسة الغاضبين،* حيث نعود *إلى الحكمة الأولى والأبدية"*. فأتذكر أخيرا صاحبي، رامبو. لم تكن فانجا إلا لسانه، ولا حاجة لي بماركس ليفسر، كل شيء الآن واضح ومفهوم.

ألمح أعين الثيران، حراس سر مولانا، من وراء الأشجار. تحثني هيلين: *"تقدم فهزيمتك للثور تهزمه"*. الآن أفعل يا نخنوخ، فلتخرج أول أشباحك، وحوشك، لم أعد أهاب شيئا. أنا رجل

الأشباح، في كوابيسي وداعة، وفي أحلامي فظاظة، وفي طموحي العدم. رغم كل شيء عبرت وعبرت رغم كل شيء. سالما من فراديسك. فلترني جحيمك.

خرج ألف ألف مقاتل، فابتسمت. الآن أرى. انعتق الطفل الصيني عن جسدي، فصار ألف ألف مقاتل، يستنسخ نفسه من نفسه، مشتبكا مع مقاتلي مولانا، فيختلط النور بالظلمة والفردوس بالجحيم والخير بالشر. متماثلان ولا فضل لأحدهما على الآخر. وهم. تركت الحرب تدور كموسيقى ناعمة، الرؤوس تتطاير كبالونات ملونة، الأطراف تبتر كلعبة فيديو جيم، الدماء نهر عذب.

الميديوكرز ينتصرون، ولا يدرك مولانا أني أملك مفتاح هزيمته. أن لا تخاتلني الصورة. الملتفت لا يصل، فلن ألتفت.

عبرت بالحشد وبالمحاربات، فاختفت الحرب؛ لأنها لم تكن. تقدم بجواري الطفل الصيني. فابتسمت له، كل طفل هو طفلي، كل جريمة هي جريمتي، كل الخطايا حررتني.

ينحني الصيني أمامي تاليا:

"التاو واسع، يسري يمينا ويسارا، وفي كل مكان

جموع المخلوقات تعتمد عليه في وجودها، ولا يدعي سلطانا

يكمل عمله، ولا يدعي فضلا

بلا رغبات، أبدا، يمكن أن ندعوه الصغير

ولأنه لا يدعي سلطانا عندما تدير الجموع وجهها إليه"(*).

تقدمنا *"وبعد ذلك لن يكون لك سلوك بالطريق، فإن تدرك نهايته، يتلاش مسيرك. وإن تكن لك قطرة ماء، فإنها تصبح بحرا خضما"*، قال ماركس.

جاءت نفيسة البيضاء، وبصحبتها المدد. جميلة كنور القمر وخيال الظل والنسيم وشاي العصاري، لقد رفع عنها أخيرا ثقل الغواية، همس ماركس في أذني: *"ليست بخير"*.

مراد بك صار أكثر بدانة وغباء، قواته ترتدي أزياء فرسان المماليك وتمتطي الخيول. أخطر العبيد هم من يملكون الفرصة لتغيير العالم. أعادت لي نفيسة أسلحتي التي فقدتها في الطريق، قائلة: *"من يضيع هدايا نفيسة؟"* قلت بخجل: *"الأحمق"*.

انقضت علينا الثيران، يقودها وحش له ثلاثة أجساد وستة أذرع يعدو بسرعة الريح، وعندما يعوي يهتز الفضاء. دار القتال. وخبأنا الثلاثين روحا الناجية وغزال المتعة -أثمن ما نملك- خلف الأشجار التي كانت تصرخ: *"ورائي ماركسي فاقتلوه"*.

أمسك الوحش صخرة هائلة بأياديه الست، وألقاها نحوي، تحولت

(*) من كتاب الطاو، لاو تسي.

عن طريقها في خفة، ثم أمسكت قوسي، وأطلقت سهامي السامة، أصبته بثلاثة منها، فخر مضرجا بالدماء. أسر جيشنا الصغير الثيران. نظرنا إلى الثيران في نشوة وانتشر الهمس: *"يمكن للسادة أن يُهزموا"*.

حذرنا ماركس من نشوة الانتصار: *"لم نصل بعد"*. كنت في حاجة ماسة إلى الأمل.

بحثت هيلين بينهم عن الثور المرجو، ولم تجده. لكني ميزته. شديد الجمال، قويا، لكنه بلا حماية، في عينيه تطل نظرة مختل. قاوم بشجاعة باسلة، وأطاح بجنود مراد بك، إلا أنني استطعت إمساكه من قرنيه، كسرتهما، أخضعته، وبسيفي بترت قضيبه. بلا ألم، بلا عويل، فقط بكبرياء مكسور يضاعف الجنون في العينين، استسلم تماما.

لم يكن الأمر يحتاج إلى قوتي، وحدها الأساطير هي التي صنعت قوته المتوهمة، وأخافت هيلين ومحارباتها. هلل الحشد وامتلأنا بالثقة. حارس ذكورة مولانا. أعطيت هيلين ما أرادت، وبحسم قلت: *"الزنار"*. حاولت المماطلة قليلا. لكني شددته منها في قوة، أعطيته لماركس، فشكرني، والدموع تترقرق في عينيه.

هل انتصرنا؟ ذكرتنا نفيسة بكلب الجحيم، آخر المهام. قلت: *"قوتي ستتكفل بكل شيء"*. لكن سرعان ما زالت نشوة النصر

الزائفة. ترجل جنود مراد بك من فوق خيولهم، وجهوا بنادقهم إلينا، وطاردتهم خيولهم الوحشية آكلة اللحم المحاربات.

صرخت نفيسة في مراد بك: *"لمَ الخيانة؟"*، قال وهو يشير إلى قضيبه: *"أنا أنا وأنتِ أنتِ"*. كانت الخيول أسرع من قوتي، هربت هيلين باتجاه ماركس وباكونين. حملت نفيسة فوق كتفي وهربت. تشتتت الأرواح الناجية وغزال المتعة.

رأيت كل الأشباح تطاردني، كأن الطريق لا شيء، شبح جادو يردد: *"اقتل العائلة.. امنحها الخلود"*، شبح أمي يهمس بفحيح الحية: *"اقتل مولانا"*. وحش الدوجما برأسي تروتسكي وستالين يطاردني وبجواره أسد الإسلام يسألونني بتهديد: *"أتؤمن بالله؟"* جماهير الكولوسيوم تصرخ في حماس: *"دق العنق.. دق العنق.. دق العنق"*. أشباح الطيور الوحشية تحلق في انتظار موتي لتأكل جثتي ودق الطبول النحاسية لا يصم إلا أذني، إنجلز يمسك بعقار الأمل ويسألني: *"كيف تتحمل درجات الجحيم دونه؟"*، ثم ينظر لي بكراهية لأني سلمته لمولانا. الثور الأكبر يتوعدني لأني قطعت قضيبه. المحاربات يتخذن صور أخواتي البنات، ويلمنني لأني تركتهن للنهش والإجهاض، وهن يصرخن فيَّ: *"يا رزق.. لماذا تركتنا؟"*. شبح القس ماركس يهتف بي: *"التحق بالنور.. ماذا لديك لتخسره؟"*. لكن أكثر ما عذبني كان وجه لويس شديد البراءة، خطيئتي الأصلية، لم يصرخ ولم يهتف،

فقط ابتسامته الشبحية اللطيفة، كان أثرها أكثر عذابا من أي جحيم. دفنت الحقيقة. كل شيء قد يغفر إلا دفن الحقيقة.

توقفت من التعب وصراخ الأشباح، وضعت نفيسة على الأرض. ما إن رأيت جسدها ووجهها أمامي، حتى جفلت، جلست تحت قدميها باكيا ضياع الجمال الأبدي. كانت شائخة وقبيحة. تقول: *"أنا عطشانة يا رزق.. حلقي جاف كالجحيم"*. رأيت بئرا، فذهبت إليه، أنزلت الدلو، وعدت بالماء كان حلوا، لكن ما إن أعطيته لنفيسة لتشرب، حتى صار الماء دما وقيحا. نظرت إلى اللامكان قائلة: *"ألم يكفك أن تسلبني جمالي.. أتستكثر عليَّ شربة ماء أخيرة؟"* ثم نظرت إليَّ، تورد الأمل في وجهها، أعادت قولها: *"شربة ماء يا رزق"*. قلت عاجزا: *"من أين؟"* ابتسمت في وداعة وقالت: *"من روحك"*. ثم قبّلتني قبلة رائعة وطويلة من شفاه عجوز. لم تكن لي ولا لعبد المولى، بل لليلى.

روح ليلى انعتقت لتسكن جسد نفيسة الشائخ، فعاد إليه جماله الأبدي، بملامح ليلى، التي كانت طيلة الوقت أنفس ما أملك، أجمل ما أملك، أندر ما أملك، أشهى من نفيسة البيضاء.

الآن ترحل منعتقة عني بعد أن امتزجت بروحي نفيسة وليزا. تحولت إلى نسر، حلقت فوقي مرات عدة، قبل أن تعود لتنقض عليَّ في شراسة، دبت مخالبها في صدري. لكنها لم تكن تقصد إيذائي،

كانت تحرر سارة وجيهان، تحولتا إلى بومتين، حارستيها، كانتا جميلتين جدا. تعلقتا بمخالب النسر. طارت ليلى بعيدا جدا بشقيقتيها. بعيدا عني وعن يد مولانا وعن الفردوس والجحيم، تحررت أخيرا؛ لتعيد سيرة ليليث.

صرتُ وحيدا في أرض التيه من جديد. أنتظر، لم يعد معي سوى زين وعبد المولى وفريد الدين العطار. أما ماركس فلا أثر له. لا أثر لشيء.

2

لا رجاء، ولا أمل. لا طريق، ولا سالك، ولا مرشد. خارج العالم، خارج النهار والليل. لا شيء سوى نهر ساكن رأيت صورتي في صفحته. أنا أيضا شخت، التجاعيد تغزو وجهي، والشيب مشتعل كحريق هادئ، جسدي يقطر دما. ثم رأيت جماجم وعظام لرجال سبقوني إلى هلاكهم، وبلغوا ما بلغت، ولم يدركوا الوصول. سألت زين عن عمره: قال: *"ثمانية عشر عاما"*. سألت عبد المولى: *"ما حالك؟"*، قال: *"بلغت تمام قوتي، ولا شيء أمامي سوى الفناء"*. سألت فريد الدين العطار: *"وما هنا؟"* قال: *"وادي السيليكون، بوابة الفردوس والجحيم. حيث تأتيك الحيرة وتصاب بالعمل المتواصل والألم والحسرة، ويكون كل نَفَس سيفا مصوبا إليك، وتحمل كل لحظة الأسى إليك، وفيه تكثر الآهات والحركة والآلام، ويكون النهار والليل لا ليلا ولا نهارا كذلك. وفيه يتخيل الشخص أنه يقطر دما، لا من السيف، ولكن جذر كل شعرة، ويا للعجب! والنار تؤلم رجل هذا الوادي، فيحترق في الحيرة، وعندما يصل الرجل الحيران إلى هذه الأعتاب، يظل في حيرة ويضيع منه الطريق. كما*

يضيع كل ما حصلته روحه. لست أولهم ولا أقواهم".

أمسكت بجمجمة لأحد الهالكين وقلت: *"فإلامَ أتحمل الحسرة والاضطراب؟ وإن كان هؤلاء قد ضلوا في الطريق، فكيف أدركه أنا؟ فلا أعلم وليتني أعلم، فإن أعلم أسقط في الحيرة، فقد صار الكفر إيمانا، وصار الإيمان كفرا. صرت في نفي النفي".*

تتبعت الجماجم. دليلي لم يكن في أي لحظة إلا الموت. حتى وجدت بابا، عليه قفل ضخم. فجلست على تراب الطريق. ماذا أفعل لو ظل الباب موصدا أمامي؟ وكيف أتصرف لو ازدادت الآلام؟ قال فريد الدين العطار: *"من قال لك ابتئس؟ فما دمت تعرف الباب فامض إليه، فسيظل مغلقا. وقل: فليظل مغلقا. فإن تكثر الجلوس أمام الباب المغلق، فسيفتحه شخص ما دون أدنى شك".*

نظرت إلى الباب المغلق، ثم إلى الجماجم الهالكة، لم أر الموت فيها تلك المرة، بل الشجاعة. كل ما يملكه الإنسان، وكل ما تبقى من سيرته الأولى هو شجاعة خوضه في المجهول، حيث لا فارق بين الوصول والعدم. كيف أدركت؟ لا أدري. أنا هدف كل شيء، وسيد كل شيء. مولانا أنا، أنا مولانا. صنيعة رغباته، وصنيعة رغباتي. أفر إليه من الشقاء عبر الشقاء. صار صنما، فعبدته. هو من أرادني هنا. أراد أن أصل، أن أخوض، أن أعبر، سعادته بهلاكي هي سعادته بنجاتي. أرادني أن أحطمه كي أتحرر. ذلك

إرثه، وصيته، ومحبته. لم يكن أبدا شرا خالصا ولا شيطانا يلهو بي. كان يفضلني من البداية على ناجي، الذي لم يكن سوى قربان يذبحه.

أخوض بنصف قدرة ونصف قوة، حتى وأنا مسلوب الروح والإرادة أقاوم. أعي اغترابي وقيدي. ينمحي مع الإدراك الفارق بين الحرية والعبودية، السعادة والهم.

فتحت الباب، فانفتح. أرض الشيطان الذي ليس شيطانا، أرض الأسرار التي لم تعد كذلك. واجهتني نيران كثيفة لم أر مثلها، تحوم فيها الثعابين والمسوخ، بأنين قتلى الطريق. الصراخ يصم أذني. لكني بلا خوف تقدمت غير عابئ، كأن قاع الجحيم مكاني، النيران لا تحرق، الثعابين منزوعة السم، المسوخ محض بهلوانات. بثباتي، اختفت النيران والثعابين والمسوخ، وتلاشى الأنين. ثم عم الضباب، ورأيت أرواح الموتى تهيم، كانت أرواحا عدوانية وساخطة. يقتات بعضها من الوحل، بعضها أنصاف آدميين وأنصاف حيوانات. تهجم عليَّ واحدة تلو الأخرى، فأهشها بسيفي، فتتراجع. ثم عبرت جسرا، تلقى منه الرؤوس والأجساد والأرواح والظلال في بحيرات من نار، بينما تلقى أخرى إلى مسخ له جسم أسد ورأس تمساح. في نهاية الجسر عرايا مقيدون يأكلون من فضلاتهم، لكن أكثر ما يعذبهم كان الهاتف الذي لا يكف عن الصياح: *"ظلمات تدوم زمنا طويلا،*

طعام نتن، صرخات يأس وضيق، تلك هي الحياة التي استحقتها أعمالكم" ، ثم علمت أن الهاتف لا يوجه كي يثير فيهم الرعب، بل لأتراجع عن المضي قدما. لكنني أعلم. وهمٌ يتلو وهمًا. إن كذبته عبرت، وإن صدقته للحظة هلكت. يهمس فريد الدين العطار كي أصمد: *"كل ما قلته، وكل ما سمعته، وكل ما عرفته وكل ما رأيته، لا يعدو أن يكون كله خرافة. وعي مقلوب لعالم مقلوب"* .

ثم عبرت غابة أغصان أشجارها أشفار حادة، تقع على الهالكين، فيجرحون ويتعثرون على رماد حار، ثم تمزقهم كلاب وحشية. نجوت.

رأيت، ورأيت، ورأيت، حتى وصلت إلى جبال، فتسلقتها إلى نبع بارد، تنحدر مياهه إلى نهر يصب في وديان سفلية. نهر عنيف، أمواجه قاسية. ألقيت نفسي في دوامة النهر الجارفة، فحملتني من طبقة سفلية إلى أخرى. حتى وجدت نفسي في بحيرة. رأيت رجلا بجوار قاربه، ضخم البنية بأذنين طويلتين، عضلاته مفتولة، وذراعاه قويتان، يدخن البايب، ويقتل الوقت بالنظر في مجلات فاضحة. ارتبك عندما رآني، ثم دارى ارتباكه بادعاء الغضب: *"أي ريح قذفت بك إلى هنا؟ قاربي لا يحمل إلا الموتى"* . فقلت: *"أنا رزق بن نخنوخ الهواري. ارتكبت الغش ضد كل إنسان، وأزعجت الأرملة، كذبت أمام المحكمة، وعرفت الإيمان الفاسد. فرضت على العمال عملا*

أكثر مما يتحملون، كنت مهملا، انتهكت حرمة كل المقدسات، شكوت العبد إلى سيده، جوعت أناسا، وأبكيتهم، وقتلتهم، دفنت الحقيقة، اغتصبت أرضا، وانتزعت اللبن من أيدي الرضع، أضعت غزال المتعة، ميت كالموتى إلا من روح ولدي".

هدأ غضب الرجل قليلا، ربما رق لحال مرتكب كل الخطايا، ودعاني للركوب في القارب. ولم تكن أجرته إلا آخر ما أملك، ثلاث تفاحات ذهبية سألني: *"أتعرف وجهتك؟"* ، قلت: *"كلب الجحيم"* .

عبرنا إلى الشاطئ الآخر. ربض كلب الجحيم ذو الرؤوس الثلاث، نباحه أجش، قاس ووحشي. تقدمت في جرأة أذهلت الكلب الذي تقهقر إلى الوراء مع كل خطوة أخطوها إلى الأمام. دخل قصرًا مظلمًا، فتبعته، قصر نخنوخ، أعرفه كما أعرف كفي عدا السرداب المخيف الذي عبرنا إليه، حامل البنات القاصرات وأشباح عائلة البارون إمبان. وجدت البارون إمبان يجلس على كرسي أبنوسي مرتفع، وعيناه وجسده يقطران بالدماء، وإلى جواره نورا، عشيقة مولانا. لقد نجحت في ترويض أشباح قبوها. ما الذي قد يخيفها أكثر؟

قال البارون: *"كيف تجرأت على دخول مملكتي؟"* ، قلت حاسما: *"أريد الكلب.. حارس الأبواب السفلية للجحيم"*، قال غاضبا: *"أأنت مجنون؟ ومن يحرس الأبواب؟"* .

قلت: *"لقد كلفت بمهام في نهايتها عتقي. لم يبق لي إلاه. نبحت عائلتي وأضعتها. عبرت بحشد العجزة، وأضعتهم. فقدت كل أمل وكل يأس. أضعت كل فرصة، وارتكبت كل خطيئة. لم يتبق لي إلا وعد أخير أحمله أن أعتق عبدي. خير لك أن تأتيني به بدلا من أن أهدم قصرك للأبد"*. انتفض البارون، فكر قليلا، ثم استجاب لطلبي. أعطاني الكلب، فذبحته بلا تردد ودون أن أهتم بنواح البارون وأشباح عائلته عليه.

تقدمت نورا مني، تشممت الدم. ثم ركعت أمامي، قبلت قدمي، وبكت بشدة، كطفلة فقدت طفولتها للأبد. سألتها: *"أين هن؟"*، أشارت وراء كرسي البارون، فتقدمت وأزحته من مكانه. خلفه زنزانة لمائة طفلة قاصرة أو يزيد، امتصهن نخنوخ لتسليته. كسرت القفل الضخم بفأسي. فخرجن كفراشات صغيرة من نور. تجمعن رويدا رويدا حول جسد نورا. قلت لها: *"اغفري لي.. أنتن أحرار الآن"*. همست في أذني: *"عالم آخر ممكن. هذا مقتله"*. ابتسمت لها شاكرا، أعلم من تقصد، نخنوخ، فخ غوايته القادم. طارت نورا بعيدا وهي تشير لي إلى مدخل الحفل المحرم عليّ، حفل السادة.

تحرر عبد المولى، طار نحو نار كبيرة مشتعلة، سقط فاحترق، ثم صعدت روحه مطمئنة باسمة إلى فردوسها.

مضيت إلى حيث أشارت. وجدت بابا في خلاء، يبتعد كلما اقتربت.

انفتح قبل أن أمد يدي إلى مقبضه. رأيت ناجي، كان يبتسم لي ابتسامة ودودة ومحبة لا أثر فيها لزيف، ابتسامة أخ يعترف بأخيه. قال: *"تأخرت على الحفل"*. هبطنا تحت الأرض إلى بستان الجحيم. قبل الدخول انعتق فريد الدين العطار عن جسدي. صار هدهدا.

3

في بستان الجحيم، لم ينسوا الخضرة. أتعثر في قمامة الفائض، طعام ملقى كتلال صغيرة، زجاجات خمر بلا حساب، مخدرات، وواقيات ذكرية ملوثة بالمني بلا عدد.

لمَ احتاج العالم عبيدا إلا لأن الأطباق الملوثة ببقايا الطعام تتكاثر بلا نهاية؟ لمَ يحتاج المرء عبيدا إلا لاعتماده على شخص يمسح خراءه من تحت مؤخرته؟ من يقطع الأشجار؟ يقيم السكك الحديدية، يستخرج الذهب، كي يحمل الرجل الأبيض عبأه في تكديس السعادة والأفكار النبيلة الوحشية؟

ذكور، ذكور، ذكور. بستان جاف كقطعة حصى. بعضهم عراة أو نصف عراة، لا شيء في مكانه. يقول ناجي: *"قربان استمرار الذكورة، لا يتم إلا باستبعاد الأنوثة". سألته: "وقضيب الثور؟"* قال: *"طعم جيد للمحاربات"*.

هنا حفل استجمام للسادة، نخبة النخبة، سادة العالم، والمتحكمين فيه، مخططي الجحيم، الجنس المختار، سلالة العماليق. معسكر كشافة كبير بطقوس عربدة جماعية، يلعبون ألعاب حظ وذكاء

وهم يتسامرون حول أحدث الأنظمة العسكرية وعن بهاء القنبلة والمحو وجمال السرعة والخطر، يلعبون المونوبولي وهم يرسمون خريطة اقتصادية وسياسية جديدة، أي طفولة! في دور دومينو قد يتحدد مصير شخص أو ألف أو مليار، من يهلك ومن يبقى. كآلهة، رأيتهم يسمون أنفسهم بأسماء آلهة البرق، الرعد، الحكمة، الشهوة، الحب، الثروة، الحظ، الذكاء، العلم، القوة، الجمال، النار، الريح، الحرب، الفنون، القمر، الشمس، السفر، التجارة، الخبز، الهواء، الماء، الأنفس، الظلال، الأرواح، البصر، الشم، اللمس، التذوق، الخيال. لم يتركوا شيئا دون احتكاره.

رأيت رجالا يرتدون ملابس نسائية، كانوا عبيدا يعملون في خدمة السادة. من وقت لآخر أرى ذكرين من السادة يتبادلان اعتلاء بعضهما. فهمت من ناجي أنه طقس مقدس لا علاقة له بمثليتهم؛ كي ينزعوا رغبات الهيمنة ضد بعضهم، ويوجهوها ضد حلقات العبيد. يفرطون في شرب الكحول والمخدرات؛ لقتل قواهم. لا يأمنون شر بعضهم.

رأيت تمثالا عملاقا لثور من معدن، ثور مولوخ، تتراقص حوله النيران وكهنة حليقو الرؤوس، أطفال مقيدون في سلاسل إلى محارق النيران حول الإله الرهيب، الذي لا يشبعه إلا طفل بريء وذكي. كل طفل ختم على ظهره اسم صاحبه. قربان الخلود

واحتكار المستقبل *"ولطرد مخاوفهم"* يقول ناجي. رغم احتكارهم لكل شيء، دماء الأطفال تهدئهم أكثر مما تهدئ ثور مولوخ.

رددت عواء جيسنبيرج:

"مولوخ! مولوخ! كابوس مولوخ!

مولوخ سيّد البغضاء!

مولوخ الفكري!

مولوخ قاضي البشر الصارم!

مولوخ السجن العصيّ على الخيال!

مولوخ الحبس الشاقّ بعلامة الموت ذات العظمتين المتقاطعتين وكونجرس المآسي!

مولوخ الذي مبانيه يوم الدينونة!

مولوخ الحجر الضخم للحرب!

مولوخ الحكومات المصعوقة!

مولوخ الذي عقله آلية خالصة!

مولوخ الذي دمُهُ مالٌ جارٍ!

مولوخ الذي أصابعه عشرة جيوش!

مولوخ الذي صدره دينامو آكلٌ لحومِ البشر!

مولوخ الذي أذنُهُ قبرٌ يعلوه الدخان!

مولوخ الذي عيونه ألف نافذة عمياء!

مولوخ الذي ناطحات سحابه تنتصبُ في الشوارع المديدة كعدد لا نهائي من يهوه! مولوخ الذي مصانعه تحلم وتنعق في الضباب!

مولوخ الذي مداخنه وهوائياته تتوّج المدن!

مولوخ الذي ولعه نفط وحجر بلا نهاية!

مولوخ الذي روحه كهرباء ومصارف!

مولوخ الذي فقره شبح العبقرية!

مولوخ الذي قدره سحابة من الهيدروجين لا جنس لها!

مولوخ الذي اسمه العقل!

مولوخ الذي فيه أقبع وحيدًا!

مولوخ الذي فيه أحلم بملائكة

مصروع في مولوخ!

مصّاص الذكور في مولوخ!

محروم الحبّ ومخنّث في مولوخ

مولوخ الذي باكرًا اقتحم روحي!

مولوخ الذي أنا فيه وعي بلا جسد!

مولوخ الذي أرعبني وصدّني عن نشوتي الطبيعية!

مولوخ الذي أهجره! أصحو في مولوخ!

نور يشعّ من السماء

مولوخ.. مولوخ.. شقق رَبوطات.. ضواحي لا مرئية.. كنوز هياكل عظمية

رساميل عمياء.. صناعات شيطانية.. أمم وهمية.. مستشفيات مجانين محصّنة!

أعضاء ذكوريّة من الغرانيت! قنابل مَهُولة!

قصموا ظهورهم رافعين مولوخ إلى السماء!

أرصفة، أشجار، راديوات، أطنان!" (*).

رأيت مراد بك وقد ارتدى ثمن خيانته، حلة الجنرال. بدا تائها، بعينين ميتتين، منبوذا وتافها وسط السادة.

(*) ترجمة: آمال نوّار.

رأيت، ورأيت، ورأيت، حتى عبرنا إلى خيمة السادة السبعة، *"صفوة صفوة الصفوة"*، يقول ناجي. فتقدمت وحدي. لم أر إلا ستة منهم، وكرسيا خاليا، خمنت أنه لأبي. نصفهم من بشر، ونصفهم من آلة. أبلغوا الخلود؟ لم أميز منهم إلا مارك زوكربيرج، مسخ من معدن، بعين من رضا، وعين من غضب، بذراع تحكم العالم، وذراع تحك جلده.

قال مبتسما: *"أنا من أشد معجبيك.. لقد استحققت خلودك، مملل بعض الشيء، لكنك ستعتاده"*. ثم أشار لي أن أجلس على مقعد أبي الخالي.

سألت: *"أين أبي؟"*، نظروا إلى بعضهم لثوان، قبل أن ينفجروا في الضحك. تضاعف أثر العبوس والضعف على وجهي. هل مات؟ لم يلحق باكتشافكم للخلود؟ لقد قطعت كل تلك المسافة من أجل أن أرى وجهه راضيا عني؟ أفعلها قبل أن يحتضن بذراعيه البدينتين جسدي المثخن بجراح الطريق؟ قال إنه أعد مفاجآة للموت. هل كذب عليَّ مجددا؟ خدعته الأخيرة أم الجديدة؟ كان شديد الثقة من نجاته. النذل ينجو، النذل يموت. محبته ثقل على كتفي، ومحبتي ثقل على كتفه، هذا عهدي به، لم يخنه. أين هو حقا؟ لا يمكن له أن يفعلها. ثم انخرطت في البكاء.

قال مارك: *"ألا يبهجك أن تصير خالدا كإله؟"*.

قال سيد آخر: *"يبدو أنه ليس طموحا كوالده"*.

تابع آخر بحدة وغضب: *"عبد أصيل، يصير واحدا من السادة المختارين. أي عبث!"*.

أخرسه مارك بنظرة زاجرة، فعلمت أنه أقواهم. ثم قال لي بلين: *"أين المفتاح؟"*.

قلت: *"أي مفتاح؟"*.

قال: *"ألم يخبرك نخنوخ؟ ألم يرسله معك؟"*.

قلت: *"لا أعلم عمّا تتحدث"*.

نظروا إلى بعضهم بتوتر بالغ. ابتهجت روحي قليلا. هناك لعبة أخيرة من مولانا، ليست ضدي تلك المرة بل ضدهم. يرفض أن يموت. فقلت في رمية نرد قد تكشف لي المزيد: *"لا أتذكر أي شيء.. لقد أرهقتني الرحلة، حتى أني نسيت هدفها. لقد بدأت من أجل قتل ماركس ونجاة العائلة، لكن ماركس اختفى، ولم يبق من العائلة إلا ولدي"*.

انفلتت عبارة غاضبة: *"الكلب خدعنا من جديد"*. قال مارك بهدوء: *"سانعش ذاكرتك. تعال معي"*. انزعجت حقا من وصف أبي بالكلب، لو كان هنا لنهش من سبه حيا.

مضيت معه، ركبنا عربة يجرها حصانان، سارت فوق بحيرة من ماء. يفضل الآلهة الطرق القديمة.

في الطريق إلى ما لا أعرفه سألته: *"لماذا ضحكتم عندما سألت عنه؟"*.

قال وهو يغالب الضحك: *"نخنوخ.. دوما ما كان مسليا، مضحكا. كان عليك أن تراه وهو يرقص تلك الرقصة السخيفة مرتديا ملابس النساء، ويرجرج ثدييه ومؤخرته بتلك الطريقة الفاضحة، ويغني لنا بصوته القبيح أغاني مصرية بذيئة.. لا نستطيع أن نقاوم كلما تذكرنا"*.

قلت مستنكرا: *"تتحدث عن من؟"*.

قال: *"لا تجعل الأمور أكبر مما هي عليه. لقد فاز في النهاية. لقد فعل كل هذا من أجلك، ألا يفعل ملايين الآباء هذا كل يوم، يضحون حتى بكرامتهم من أجل أمل بعيد بأن يروا في أبنائهم ما لم يستطيعوا تحقيقه؟! كان عبدا طموحا، يفعل أي شيء من أجل غايته، لقد نفذ مهامه بكفاءة، لكن لعبته الكبرى، كانت في أنه لم يجعلنا نشعر أبدا بخطورته حتى اطمأن إلى حصوله على مفتاح القوة. هنا كأي عبد أصيل ظهر وجهه الآخر الشرس والذكي والعنيد"*.

كان خادمهم إذنْ، كلبهم اللطيف والمضحك.

وصلنا إلى غرفة بيضاء، فارغة من كل شيء، إلا من شجرة صغيرة اصطناعية وبائسة كأشجار الكريسماس الرخيصة، تتدلى منها تفاحات سبع.

قال مارك: *"ها نحن ذا.. حيث أوصلك أبوك.. شجرة الخير والشر. المعرفة. الخلود. بها نصير آلهة، وتصير إلها"*.

قلت: *"أي إله أكون؟"*.

قال: *"إلامَ أنت مؤهل في رأيك؟"*.

قلت: *"إله الموت؟"*.

قال ضاحكا: *"ومن سواه تكون"*. ثم صمت متأملا الشجرة. لعبت موسيقى رأيت اسمها يعبر أمامي على خلفية الغرفة البيضاء، موسيقى فاوست لفاجنر، ثم بدأ في تلاوة صلوات من أكواد، توقف سريعا ليقول: *"من أخدع.. لم أستطع يوما أن أستشعر أي قداسة أو مهابة في حضرة هذه الشجرة، ولا حتى بإضافة موسيقى فاجنر السخيفة والمرعبة في الغرفة"*. *لم أعلق. حاولت أيضا استشعار المهابة، لكن لا شيء لتستشعره أمام شجرة من معدن.*

قال مارك عندما لاحظ تحديقي في التفاحات: *"أتشتهي واحدة؟"*
قلت: *"لا.. لكن لا شيء آخر يلفت النظر في الغرفة سواها"*.

قال: *"ليست تفاحات. هذه سبع خزائن. لكل منها مفتاحها الخاص مع واحد من السادة السبعة، لا يمكن لأحد ولوج شجرة الخير والشر، إلا بأن تفتح السبع خزائن معا، قلق السادة ضد السادة".*

أشرت إلى ذراعه المعدنية: *"ألم تصلوا إلى الخلود بعد؟"*، قال: *"خطوة واحدة تفصلنا عن الأمر. كل ما استطعنا استبداله من أجسادنا الميتة، لم يمنحنا ما أردنا. لكننا نعلم أن السر توصلت إليه الشجرة، ما هي إلا حاسوب معقد، لقد منحناها الوقت الكافي. كدنا أن نصل لولا خيانة نخنوخ. خطوة ذكية. لا بأس، أنا أحترم هذا النوع من الذكاء. لقد سرق مفتاح أحد السادة، وقتله. أخفى الكود معك. كان يعلم منذ البداية أن الموت سيسبقه قبل أن تصل الشجرة إلى سر الخلود. لكنه منحك إرثه، كنا نظن أنه وهبه لناجي. وأنك محض آلة تجز لنا حشائش الطريق. لم نصدق أنك ابنه المفضل وأن الميديوكر لن يمنح سره إلا لميديوكر مثله، كنا نراك تعبر كل مهمة وأخرى ونضحك، كانت عروضك مسلية ولا تفتقر إلى الدراما. لقد خدعنا مرتين بحيلتنا نفسها: الفرجة. مدرب براغيث. هذا مضحك حقا، وذكي. لم ندرك أنك حامل سره إلا عندما عبرت إلينا فعلا".*

قلت: *"لا أعلم أي حيلة أخيرة يلعبها نخنوخ. لم يرسل معي أي شيء عدا ما يعينني على الطريق. أنا حتى لا أفهم كيف أرادني*

أن أصل، وفي الوقت نفسه غضب من أن أحصل على روح فريد الدين العطار. لعبته معقدة أكثر من قدرتي على الفهم. أرى أن تفكر مجددا بشأن وصفه بالميديوكر".

طوق رقبتي غاضبا بذراعه المعدنية وقد نفد صبره، كانت قوية حقا: أي لعبة قذرة تلعبها! عبيد. أوساخ. كدت أختنق، لكني لم أر أو أفكر في أي شيء سوى تلك العلامة الكريهة التي برزت فجأة أمام عيني: (*ممنوع التدخين في غرفة الخير والشر*). أفلتني. سعلت بشدة. عندما استعدت أنفاسي أشعلت سيجارة. نظر مندهشا، ثم أشار إلى اللافتة.

قلت: "*لو كنت مكانك لما تعلقت بسخافات كتلك، ولاعتبرت محاولة قتلي حماقة. إن كان هناك سر، فسيدفن معي*". أخذت نفسا طويلا، مستمتعا بمعابثته: "*صف لي هيئة المفتاح*".

قال: "*بار كود طويل ومعقد*".

فكرت فورا في الباركود على جسد ماركس، كود ملكيته لمولانا، لم يكن سوى إرثي. كان المفتاح معي طيلة الطريق. قلت: "*أملك ما تريد. لكني أرغب في بعض الضمانات*".

قال مارك وهو يكبت غضبه: "*ضمانات؟*".

قلت بهدوء مستفز: "*نعم.. تدشين علني لألوهيتي وسط السادة*

الآخرين ببستان الجحيم، بوثيقة مدمغة بالدم. لا أطلب الكثير".

فكر قليلا، ثم قال: *"حسنا.. لكن عليك أن تثبت أمامهم استحقاقك"*.

قلت: *"لقد فعلت ما يكفي"*.

قال: *"إله الموت عليه أن يقدم عرضه الأخير. مهمتك الأصلية لم تتم بعد"*.

قلت: *"ماذا تقصد؟"*.

ضغط على شيء ما في الهواء، فاختفت غرفة الخير والشر. وجدت نفسي فجأة معه وسط بستان الجحيم من جديد. كان ماركس والأرواح الثلاثون الناجية مقيدين إلى الأشجار التي كانت تصرخ: *"اقتلهم.. اقتلهم"*. يتسلى السادة برمي مخلفات الطعام وزجاجات الخمر الفارغة. يتحرشون بأجسادهم في صبيانية سخيفة. وهم يهتفون: *"دق العنق.. دق العنق.. دق العنق"*.

قال مارك: *"الآن.. اقتلهم. أثبت استحقاقك لألوهية الموت"*.

قلت في محاولة يائسة للإفلات: *"لا أستطيع.. مصدر قوتي انعتق عني. وولدي ما زال ضعيفا. حتى عندما كنا نقتل كنا نفعلها لننجو"*.

قال: *"أيحتاج القتل حقا إلى قوة، أو سبب منطقي كالنجاة؟"*.

صمتت. فمس صدري بيده المعدنية، ثم تابع: *"لقد نسيت شيئا.. قاتل الألف نفس. سيد أبو كرنبة. إنه داخلك"*.

أعلم. نسيته لأنه على عكس أرواح العائلة، كان صموتا كشأن القتلة، لم يحدث جلبة. ظل منزويا في ركنه. يختلس انشغالنا في الحرب؛ ليجعل من القتل عملا باردا، حياديا، يد لا تفرق بين الخير والشر، الضحية والجلاد. حانت لحظته ليعتلي المسرح وقد خف زحام العائلة.

قلت بصوت سيد أبو كرنبة: *"فلنجعله عرضا رائعا إذنْ"*.

4

عيناي جمرتان من الجحيم. ويداي سوط العصاة. وريقي شراب لا مفر منه. في قبلتي النهاية، قدماي يخطوان بثبات المؤمنين على صراط الشوك. لا أرى سوى موتى مؤجلين. يؤرقني الفارون من الموت، من القدر. كيف أقتل دون سبب يا سيد؟ كيف أقتل دون سبب؟ يمسك السكين ويطعن خادما من خدم السادة ببساطة: كده؟!

ماركس ينظر لي بثبات الشهداء المستفز. أقول: *"أنسيت؟ ما أنت إلا نسخة عن نسخة عن نسخة. أي عرض قد يقدمه سيد الموت، إلا حفرًا رائعًا ومثاليًا للقبور"*. أمسكت معولا وحفرت أول قبر، هذا لماركس، فلتتقدم الشهداء إذنْ، هذا أفضل من النظرية. *"العمل الإنساني هو الانفجار الذي يضيء هاويتي من حين إلى حين"*. ثم فتحت الثاني وأنا أنشد: *"من نفس الصحراء إلى نفس الليل، دائما ما تستيقظ عيناي المتعبتان على النجمة الفضية، دائما دون أن ينطلق ملوك الحياة، المجوسيون الثلاثة؛ القلب، والروح، والعقل"*. أسمع النواح والتوسل والحماس للقتل، ولا ألين لذل الموتى وهياج القتلة. أحفر القبر الثالث: *"فلتحترس، يا عقلي، لا اندفاعات عنيفة*

للخلاص. ولتلتزم الحنكة!". حفرت القبر الرابع تاليا: *"يا روحي الخالدة*، تمسكي *بأمنيتك رغم الليل الوحيد والنهار المشتعل*، هكذا *تحررين نفسك من التوافقات الإنسانية والانتفاضات الاجتماعية، لا أمل أبدا، ما من فجر. المعرفة والصبر، والعذاب أكيد"*.

فكوا قيودهم، تمهيدا لذبحهم. هكذا يسير العالم، اصطفوا أمامي، روحا تلو روح. حفرت القبر الخامس: *"سأعري كل الأسرار: الأسرار الدينية أو الطبيعية، الموت والميلاد، المستقبل والماضي، نشوء الكون والعدم. أنا سيد الرؤى الخارقة. أنصتوا!"*.

كلما اقتربت أرواحهم من اليأس من الحياة، ظهر جوهرهم أكثر. الثلاثون روحا، ثلاثون كنزا. أحفر القبر السادس: *"يا أسلافي، لقد صنعتم تعاستي وصنعتم تعاستكم، والجحيم لا يستطيع المساس بالوثنيين، تلك هي أيضا الحياة"*.

حفرت القبر السابع، بدني يهده التعب. أرغب في الموت. لمَ لا يقتل القتلة أنفسهم؟ أيرون في الموت شيئا جميلا يستحق الحياة من أجله؟. *"لا! لا! سأتمرد على الموت! خيانتي للعالم ستكون عذابا بالغ القصر، وفي اللحظة الأخيرة، سأهجم على اليمين وعلى اليسار. إذنْ فيا روحي العزيزة البائسة، ألن تكون الأبدية قد ضاعت منا؟"*.

أرى شبح جادو، يمر أمامي يذكرني: *"اخترتك لأنك نذل.. الحياة*

علمتني أن أحتقر الأنذال.. لكن الموت علمني أنهم يستطيعون العبور من الجحيم ومن الحياة".

رميت المعول بعيدا. غاضبا سألني مارك: *"لم أوقفت العرض؟"* قلت: *"لا فائدة من قتل الموتى.. فليس لديهم ما يخسرونه"*. ثم توجهت إلى ماركس. أخرجت سكيني. وضعته حول رقبته، بحركة استعراضية جلبت حماس السادة، ونواح الأرواح التي عبرت طريق نجاتها إلى الهلاك. لكني عريت قميصه، وقطعت كود عبوديته وحريتي. قلت: *"هذا إرثي"*. فقال وهو يتألم وينزف: *"لقد أديت الأمانة. كان نخنوخ يحبك حقا يا رزق. لكن قطعة اللحم تلك لا شيء، دليل إليه، لكنه ليس الإرث، فلا تنخدع"*. قلت ساخرا: *"ألم تسع لإلغاء ميراث الأبوة، الآن تحمله؟"*، فابتسم، وابتسمت.

أنا أفهم. إرثي هو أن أختار بين الخلود أو الموت. أستعيد قدميَّ مجددا، كالخير والشر ممتزجين، أنا التاو، والتاو أنا.

حملت قطعة اللحم، تأملت تلك الأكواد الممزوجة بدم ماركس. وأشهرتها في وجه السادة. هتفت في مارك: *"خلودك هنا"*. صرخ: *"مفتاح الخلود"*. قلت: *"مفتاح حريتي وانعتاقي.. اقترب لتأخذه"*. فلما فعل. أبعدت يدي عنه قائلا: *"الحرية وهم"*. قذفت قطعة اللحم بكل ما أوتيت من قوة نحو نيران مولوخ، فأذابتها، ثم انطفأت كاشفة عن هياكل الأطفال المتفحمة، ماحيا أثر نجاة صفوة الصفوة. لا آبه

لنواحهم وصراخ مارك وغضبه. اخترت موتي.

ما إن فعلت، حتى حلقت الأرواح الثلاثون على هيئة جسد طائر كبير، رأسه رأس ماركس.

عمت الظلمة، ثم أضاء برق، فأحرق مائة من السادة في لمح البصر. وانكشفت الأسوار الخرسانية عن شقوق، وتصدعات صغيرة. ثم بزغ من قاع الظلمة نور أسطع من نور الشمس، أضاء العالم السفلي، وجلجل صوت كقصف الرعد قائلا: *"افتح أبوابك الأبدية؛ ليدخل إليه ملك المجد"*. فاضطرب مارك وأعوانه محاولين تدعيم بوابات العالم السفلي متسائلين: *"ومن هو ملك المجد؟"*، فأجاب الصوت: *"إنه السيبورغ الذي سيحطم بوابات النحاس، ويكسر قضبان الحديد؛ ليحرر المأسورين، وينير شعاب الموت المظلمة"*.

كانت الأرواح الثلاثون متحدة معا في روح واحدة، كحاسوب مفتوح على حواسيب العالم. ثم اتصلت بي، فصرت منهم. فرأيت. كانت تستدعي شيئا ما، شيئا من الهاوية. ثم جاءت عاصفة تحمل غيوما ضخمة في أحشائها، غيومًا سوداء تتقدم لتثير الرعب، تخرج منها ومن الشقوق ومن تحت الأرض ما يبدو من منظار مقلوب كأنها حشرات في حالة جنون. جماعات كئيبة تزحف كالنمل، تتشح كلها بالسواد والنتانة. مسوخ لا اسم لها ولا صفة. لكنها تملك كل شيء: الأرض والفردوس والمستقبل. كلما اقتربت أكثر ظهرت حقيقتهم.

تنانين عملاقة، جبابرة حقيقيون. سكان الجحيم حاملين معهم سوس البؤس وعفن الجذور.

في غمرة العاصفة، قتلت خمسة من السادة الستة، قاذفا واحدا تلو آخر في القبور المفتوحة على الجحيم، قيدت مارك في شجرة، مبقيا على حياته إلى حين؛ كي أرى حسرته على قيامة القيامة. وعرفت أن قبري سيجاور قبره. انعتق عني القاتل سيد أبو كرنبة. نظر إلى السماء في رضا ووداعة. لقد غُفر له قتل الألف نفس. ودعني إلى فردوسه.

عندما هدأت الغيوم. رأيت باكونين وغزال المتعة والزعيم الهندي يتقدمون، كل من جهة، يقود كتيبته. رأيت تروتسكي دون رأس ستالين يقود سكان غابته، ورأيت إنجلز وهو يقود سكان قلعة ألموت، حوريات الجنس، وهيلين تقود المحاربات، سكان معبد الناس دون نبيهم الزائف والمجنون. لكني فهمت عبر اتصالي بالسيبورغ، لم يكن موتهم إلا لاستعادة نسخهم الأصلية محررة من كل زيف. خطة ماركس الكبرى التي لم أحط بها خبرا.

كان السيبورغ يتصل بكل روح تنشد خلاصها في العالم، معيدا توزيع ثروته، المعرفة مشاع للجميع.

رأيت مجموعات تحمل مطارق ذات صرير، وأخرى تحمل رماحا إغريقية، تسد الطريق على السادة الذين يحاولون الفرار

من القيامة بصنع شبكة عنكبوت ضخمة من خيوط الغزل، كانوا يتساقطون في فزع كالذباب. رابطة فلاحين اشتراكية غاندية من الهند، جمعيات صيادي أسماك من إندونيسيا، اتحاد معلمين من الأرجنتين، سكان أصليون من نيوزلاندا، حركة عمال دون أرض من البرازيل، عبيد فارون من جنوب أمريكا، اتحاد عمال البريد في كندا. جمعية سرية تدافع عن حقوق المثليين في السودان، نسويات من الجزائر، عمال سكك حديدية من بريطانيا. عمال محاجر من مصر، عبيد صناعة الكاكاو في كوت ديفوار، عبيد الملح في كوريا الجنوبية. من كل مكان، كل مهمش، كل عفن، كل بؤس، كل سكان الهاوية يتقدمون بلا توقف، يهدمون أسوار بستان الجحيم، ويقطعون أسلاكه الشائكة. كما حلمت يا ماركس. أممية القهر توحد الجميع.

أمسكوا بناجي، كان ذليلا، يرتجف كطفل. قيدوه بجوار مارك. قرروا موته، لكني ماطلت للإبقاء على حياته.

تحطم بستان الجحيم تحت وطأة النمل، واختفت أشجار السيكويا المخيفة والغامضة، فنت المباني وكنس السوس قذارة الحفل، انمحى تمثال مولوخ، وتحررت الأرواح التي التهمها. رأيت جثة مراد بك وقد دهستها الأقدام. ملامح وجهه المدمى، لم تفتها القيامة وسقوط روما تحت وقع الآلام الهائلة وزمجرة الموت. يتدافع السادة الجبناء

في ذعر، تبتلع الأكواخ الخشبية القصور، أصرخ: *"فلتجنوا، تبدون مضحكين وأنتم مذهولون"*. كلما حاولوا الفرار، ابتلعهم نور كثيف ومجنون. يتوسلون دون أن ينالوا شفقة أو غفران. احتللنا كل شبر، استعدنا الماء والهواء.

انفكت وحدة الثلاثين روحا في جسد الطائر، دون أن ينفصم اتصالهم، تقدم ماركس نحوي، قائلا: *"لقد أحسنت الحفر أيها الخالد العتيق"*.

بزغت شجرة المعرفة وحيدة وسط خلاء. بضربات فأس متتالية وواهنة، قطعتها. كل ما تحويه من معرفة لا تجيب على سؤال واحد. هي مثلي كيس صفن فارغ. فنبتت مكانها نبتة صغيرة سرعان ما تعملقت، قرأت ما بها، كانت تحمل لوح الوصايا العشر الجديدة والبديلة عن مانفيستو ماركس:

1. *~~إلغاء~~ تبادل ملكية ~~العقارات~~ أدوات الإنتاج المعرفية وتخصيص الريع ~~العقاري~~ للأغراض ~~العامة~~ التبادلية.*

2. *~~فرض ضريبة تصاعدية مرتفعة~~ ترسيخ دخل مضمون على شكل أرباح أسهم مدفوعة إلى كل عضو في المجتمع مساوٍ لنصيب الفرد من الريع الذي تم جمعه من أفراد المجتمع.*

3. *~~إلغاء حق الوراثة~~ حق العضوية لكل من ساهم بعمله، ومنح العضوية فقط عن طريق المساهمة بالعمل في إنتاج المعرفة، وليس*

عن طريق الوراثة أو شراء الملكية أو نقلها بأي شكل كان.

4. ~~مصادرة ملكية المهاجرين والعصاة~~ اتفاق ملزم بين جميع أعضاء المؤسسات على التخلي عن ملكيتهم الخاصة للأصول الإنتاجية للمعرفة، وعوضا عن ذلك، يستحوذون على ما يحتاجون إليه عبر تأجيره وفق نظام الملكية المشتركة.

5. ~~ترك التسليف والقروض في أيدي الدولة بواسطة مصرف وطني تحتكره الدولة~~ إنشاء سوق للسندات المتبادلة تباع فيها السندات عبر المزاد لإنشاء أسهم مشتركة من الأصول الإنتاجية.

6. ~~مركزة كل وسائل النقل في أيدي الدولة~~ تطوير المصادر التي تضع وسائل الاتصالات والنقل في أيدي الأعضاء.

7. ~~مضاعفة المصانع وأدوات الإنتاج المملوكة للدولة واستصلاح الأراضي البور وتحسين الأراضي المزروعة وفق خطة عامة.~~ تمنح جميع المؤسسات الفرصة لاكتساب وزيادة الأدوات المتاحة لإنتاج المعرفة إلى أقصى درجة ممكنة.

8. ~~الالتزام بتوفير عمل للجميع بشكل متكافئ، وإنشاء جيوش من العمالة وخاصة في الزراعة~~ توفير فرص للجميع للمساهمة في الإنتاج.

9. ~~التوفيق بين العمل الزراعي والصناعي، والعمل تدريجيا على محو الفوارق بين المدينة والريف.~~ إزالة الفوارق بين منتجي

المعرفة ومستهلكيها، وتحويل العلاقات الاقتصادية من معاملات تجارية إلى توزيع عام، حيث يتقدم إنتاج القيمة الاجتماعية على إنتاج البضائع السلعية.

10. ~~*مجانية التعليم العام لكل الأطفال، وإلغاء عمل الأطفال بشكله الراهن، والتوفيق بين التربية والإنتاج المادي.. إلخ.*~~ *إنشاء شبكات تشاركية للمعرفة والمهارات وأنظمة دعم لكل الأعضاء، وتوفير فرص لتطوير المهارات من خلال المساهمة في الإنتاج.*

أحرقتها دون تردد. فنبتت وصايا أخرى، فأشعلت فيها النار، فنبتت من جديد، فأشعلت فيها النار، وظللنا هكذا في هذيان لا نهائي حتى خارت قواها. كانت تطرح وصايا نبيلة شديدة الإقناع، ترفض القهر والطغيان، غواية الشجرة الأخيرة، لن يخدعني هذا. كانت تعرف أنها شارفت على الموت، عندما صرخت في هيستيريا حملت كل سخافات الدوجما واليوتوبيات والآباء: *"الشيوعية أقوى من الموت، وأعلى من أعواد المشانق"*. ابتسمت بهدوء القتلة، أتممت مهمتي، ثم تبولت فوقها باستمتاع بالغ.

5

على قبور السادة السبعة، انتصبت راية من منجل ودم، لم ينكشف الفردوس بعد، لا شيء سوى خلاء وصمت قاتل. نتلو صلاة تلو أخرى، صلوات من إيمان، وصلوات من كفر. صلوات للـه، وصلوات للا شيء.

كانت رغبتي في الموت أكيدة، وشعوري بالعدم راسخا لا يتزحزح، أشعر بتعب النهاية.

انعتق زين عن جسدي، شابا جميلا. تحسست وجهه، تشممت رائحته. أمطرته بالقبلات السخيفة، واحتضنت جسده النحيل والمرهق. كان محرجا بعض الشيء من قبلات والده العجوز، شديد الحزن رغم ذلك، فقد خبر قبل أن يبلغ الثمانية عشر عاما كل المآسي. قلت له مخففا أثر الرحلة عليه: *"أتظن حقا أنك رأيت كل شيء؟ لم تر الفردوس بعد"*. هز رأسه دون إجابة. قلت: *"البهجة لا الحكمة هي ما تليق بسنك"*. لم يرد، فعرفت أنه أبكم من كثرة ما سمع دون أن يتكلم. مغالبا دموعي: *"الكلمات سخافة وخداع.. لا حاجة لنا بها في الفردوس"*. أخذته من يده، وعرفته إلى ماركس بفخر: "هذا

ابني". قال ماركس: *"ولد جميل وذكي. الأعين لا تخدع"*. ابتسمت فرحا بكلام ماركس، ربما تلوث لا إراديا آيات الحسد، ضحكت من سخافة ذلك، لكن كيف أكون أبا دون سخافة! لاحظت أن يد زين تقبض على ورقة مطوية، حاولت أن أحصل عليها منه، لكنه رفض بشدة، فتركته لحاله.

كان القلق من تأخر ظهور الفردوس يشتعل كفحيح الأفعى في نفوسنا. على أنقاض اللا شيء صعد ماركس، ليخطب: *"لم نعبر فقط سوى الجحيم والمطهر، لكن الفردوس سيظهر، حتما سيظهر"*.

كنت أعرف أنه يحترق شوقا للقاء جيني، وأن صبره تلك المرة قد نفد، وأنه لا يصدق حتمية ظهور الفردوس، كان يطمئن نفسه قبل أن يطمئننا. بدأت الهمهات القلقة والغاضبة والمكذبة في الظهور.

تابع خطبته بعينين زائغتين:

"يوما ما في المستقبل وليس الماضي، ستعثر الثورة على منبع شاعريتها. أفكلما أكلت وشربت أقل واشتريت كتبا أقل، وكلما ذهبت إلى المسرح وإلى الحفلات الراقصة وإلى النوادي الليلية أقل. وكلما أحببت ونظرت وفكرت أقل، كلما غنيت وتكلمت وتبارزت أقل.. تدخر أكثر وتزيد ثروتك؟ إلامَ نسعى؟ لتحرير الجوهر الإنساني، تحرير الحواس، تصير الأذن موسيقية من جديد، تدرك العين مجال الشكل. إذ يبلغ الجوهر الوجود في العاطفة الإنسانية، وفي انسيابها

نهاية العزلة والانتصار على الموت. حرية الفرد في تطوير ذاته كانت غاية الشيوعية، وليس أنظمة أدارها مجرمون".

"كل إنسان يستحق، لا أحد لا يستحق قليلًا من العمل كثيرًا من الفراغ، بيتًا نظيفًا، ماءً نظيفًا، هواءً نظيفًا. تأملوا زنابق الحقل، كيف تنمو؟ لا تكدح ولا تحصد. ولكن بالحق أقول لكم. إنه ولا سليمان في كل مجده، كان يرتدي واحدة منها. أقصد بالراحة الحياة العائلية والأصوات الطفولية. فكل هذا العالم الصغير الميكروسكوبي، أكثر إمتاعا من العالم الأكبر.

كيف نستطيع أن نبيع ونشتري السماء ودفء الأرض؟ ما أغرب هذه الأفكار!

انهزمنا مرارا أمام زحف الرأسمالية، أمام الغريب الذي تسلل في ظلمات الليل. لا يترك هذا الغريب حيث يحل ويرحل شبرا من الأرض دون ضجيج. ربما أكون متوحشا منافقا في نظرهم. لكني لا أفهم كيف يصبح الصوت أداة لصم الأذن؟! ما يتبقى من الحياة عندئذ حين يعجز الإنسان عن سماع صرخة طائر، أو يصغي في أعماق الليل لنقاش الضفادع حول البركة. لكن ربما أنا متوحش فعلا فلا أفهم، لكني لم ألجأ إلى قصر، ولم أكن ذليلا لحقير، ولم أطعم خبز ظالم، ولم أختم كتابا بذكر سلطان مطلقا".

تحولت الهمهات الغاضبة إلى صيحة مستهجنة شديدة الوضوح: *"أي زنابق ونقيق ضفادع تهمك الآن؟"*.

"نحن في الخلاء يا غبي".

"هل الفردوس سراب؟".

"هل أضعنا الطريق؟".

صمت ماركس لعدة دقائق. تأمل الحشد، كأنه يستجمع كلماته أو كأنه يرغب في أن يعرف محدثه الذائب وسط الحشد. انتظرت أنا وباكونين أن يقول شيئا حماسيا ولو على سبيل الكذب؛ ليبدد وحشة الخلاء واليأس التي تمكنت بالأرواح.

نظر إلى السماء نظرة طويلة. أطلق زفرة مكلومة، ثم قال: *"الإنسان يصنع الماركسية، وليست الماركسية هي التي تصنع الإنسان. الماركسية هي النظرية العامة لهذا العالم، ملجأه الأخلاقي، كمالته الرصينة والقاعدة الشاملة للمواساة وللمقاومة. إنه التحقيق الخيالي للجوهر الإنساني؛ لأن الجوهر هذا لم يحز أي تحقق واقعي. الماركسية هي أريج العالم. إن معاناة المؤمنين بها هي في الآن ذاته تعبير عن المعاناة الواقعية واحتجاج على المعاناة الواقعية. الماركسية تنهيدة الكائن المضطهد، قلب عالم لا قلب له، وروح شروط بلا روح. إنها أفيون الشعوب"*.

صعقني ما قاله، صرخ باكونين في أذني: *"أحمق.. مزيف.. خائن"*. حطت كآبة الصمت علينا. هبط ماركس من منبره، قلت: *"كيف فقدت إيمانك؟"*، قال: *"كنت أتكلم ما داموا يسلكون. ولكن ما إن وصلوا، حتى لم يعد للقول بداية ولا نهاية. فلا جرم إن نضب معين الكلام هنا، حيث فنى السالك والمرشد والطريق"*.

قلت: *"بل حظنا السيئ، نبينا الوحيد، صارت ديانته الشك لا الإيمان. تفعلها في الوقت الخطأ دائما. لا نملك الآن سوى الإيمان بأن الطريق استحق شقاءه"*.

قال: *"أتؤمن بي حقا وأنت تعلم أني نسخة عن نسخة عن نسخة؟"*. لم أرد.

ما إن اكتمل قيد اليأس، وانسحب البعض رويدا رويدا، في هدوء وذلة، حتى اخترق الصمت صوت رنين دراجة، تهادت إلينا على مهل، في مقدمتها كاسيت قديم، يشدو بأغنية لأم كلثوم: *"وعمري ما أشكي من حبك مهما غرامك لوعني"*، كان صاحبها رجلا عجوزا وأنيقا يحمل عدة خطابات.

توقف. ثم هتف: *"رزق بن نخنوخ الهواري. جواب مسجل بعلم الوصول"*. تقدمت إليه. قال: *"أعطني رسالة جادو، أمنحك رسالتك"*. قلت: *"لا أحمل أي رسائل"*. قال: *"ليست معك.. ابنته الكبرى تركتها له مع حفيده"*. تذكرت الورقة المطوية التي يقبض

عليها زين. تقدم منه زين، وأعطاه إياها. أخذها ساعي البريد، ثم أعطاني خطابي. سألته: *"ماذا يوجد في الورقة؟"*. قال: *"نهاية جحيم أسعد جادو. أحداث الحلقة الأخيرة في مسلسل تركي توفي قبل أن يشاهدها"*. قلت ساخرا: *"أخيرا سبب حقيقي لقطع كل هذا الطريق"*. ابتسم ساعي البريد، ثم شق طريقه في الزحام حتى اختفى.

فتحت خطابي، لم يكن مكتوبا به سوى كلمتين:

غفرت *لك*..

لويس:).

لم أشعر بشيء، فقط توقفت طويلا أمام تلك الابتسامة الطفولية التي تصنعها نقطتان وقوس. ثم تسللت إليَّ الراحة بخفة وبطء. تقدمت إلى قبري، قرفصت بجواره، وأعدت قراءة الرسالة بعيني مرة تلو مرة تلو مرة. لم أُرها لأحد، لا لزين ولا لماركس. وظللت هكذا، حتى سمعت صراخًا هيستيريًا: (باب الفردوس).

رأيت بوابة كبيرة، تُظهر من خلفها قبة قصر عال، وأمامها حراس، تنفس الحشد الصعداء، وتدافعوا نحو بوابة الفردوس، ما بين مقبل وباك، ومسرور وشاك. لكن الحراس الأشداء تمكنوا من إبعادهم.

لم يسمحوا لأحد بالعبور، إلا غزال المتعة.

خرجت من البوابة سيدة بصحبة أبنائها وبناتها، كانوا ثمانية. أخواتي البنات كن أيضا هناك. صرخ ماركس: *"جيني"*. حاول شق الزحام إليها، لكنه ذاب وسط ألف نسخة، تشبهه تماما وهو شاب. فقدت أثره، ولم أميزه من بينهم. لا كهل واحد بينهم، وكلهم يهيمون بالشوق نفسه، لا أثر للكذب على وجه أحدهم، كلهم يطلبون الوصول إلى جيني. فعلمت أنها لعبة مارك الأخيرة، كانت ابتسامته الشبحية الصفراء تحوم على وجهه. فتوجهت غاضبا حيث قيدته، ففككت قيوده، ودفعته دفعا إلى قبره، مهددا إياه بمسدس من طراز قديم: *"فلتنه ذلك حالا"*.

قال ببرود: *"أتظن حقا أن العبيد سيرثون الأرض؟ الحتمية الوحيدة هي الإقطاع. وما موتي إلا ليتجدد ميلادي، نابذا ضعفه وأجزاءه الميتة"*.

قلت: *"لو فجرت رأسك الآن.. سيزول الوهم"*. قال بلا اكتراث: *"فلتجرب"*. فجرت الطلقات كلها في رأس المسخ. لكن موته لم يصنع الفارق. قذفته في قبره، ورأيت جحيمه. رأسه مكان قدمه، وذراعاه مكان قضيبه، وأنفه في ظهره. تقلع عينيه نسور وحشية، ثم تنبت من جديد كي تعاود النسور اقتلاعها. عقاب احتكار النار.

لكن جيني تقدمت وحدها دون حراسة، نحو الألف نسخة. دون

تردد اختارت واحدا من بينهم. تعرفه كما تعرف كفها. لم أعرف حقا إن كان هو من اختارته رفيق الطريق أم لا. عادت به إلى باب الفردوس، احتضنها في شوق بالغ، وأنا أرى الحسرة على وجوه النسخ، وأرجو على الأقل أن أعثر فيها على صديق الشقاء. احتضن ماركس المختار جيني، قبّلها، واحتضن أطفاله. ثمَ أخرج من جيبه الزنار الحريري. تلك علامته وهدية جيني. هذا هو. ضحكت مبتهجا. بل وصفقت في حرارة. لقد حصل على ما أراد. لوح لنا لمرة أخيرة. انفتح باب الفردوس له. تحول إلى كرة صغيرة من نور، حملت معها الثلاثين روحا الناجية، انطلقت إلى الفردوس بلا تردد، ذائبة في الكون كله.

خاتمة الكتاب

اختفت بوابة الفردوس. ولأن حدس الأنذال غالبا ما يصيب، فقد كنت أعلم أننا أمام جنة مسحورة أخرى، ستختفي فور أن تظهر؛ كي تمد أثر السراب والطريق. تمددت في قبري؛ كي أتم موتي واختياري.

ولأني خائن العائلة فداء العائلة، كنت قد عقدت اتفاقا احتياطيا مع ناجي، أن يحمي ولدي إذا اختفى الفردوس، وأن يمنحه إرث النجاة مقابل أن أمنحه حياته. لم تزعجني حسرة الأرواح على اختفاء الفردوس. سمعت صراخ باكونين وعناده: *"سأجد الجنة"*. وسمعت صوت ناجي يرن: *"بإمكاننا دوما الاستثمار في الفردوس المفقود"*. لم أعلم إن كان زين قد رحل مع ناجي، أم انضم إلى باكونين. سمعت الطفل الصيني ينشد:

عندما يبلغ الإنجاز تمامه يبدو ناقصا
عندما يصل الامتلاء تمامه يبدو فارغا
الاستقامة التامة تبدو انحناء
المهارة التامة تبدو خرقاء
الفصاحة التامة تبدو تلعثما

الثقيل هو جذر *الخفيف الثابت* هو سيد *المتقلقل*(*).

لكني كنت أعلم أني أيضا رفضت الغفران، وأن بخيانتي الأخيرة لافتداء ولدي من أثر السراب، سوف يبتلعني الجحيم. لذا تقبلت الأمر، وبدأت في كتابة رسالتي الأخيرة من جزيرة، من كهف في جزيرة، من ركن داخل كهف في جزيرة لا يزيد عن مترين أرقد فيه بجسدي الفارغ من أي ضغينة نحو الحياة أو الموت، لقد غفرت لهما.

أجوع، فآكل من جسدي، في انتظار أن تنطلق روحي إلى مكانها الأبدي.

الفردوس يعابثني كأمل ضعيف. أفكر من حين لآخر في شكل جحيمي كيقين. جسدي ساعة رمل، أوشكت على نهايتها. لن تصل إلى أحد رسالتي. لن تُقرأ تلك الخرافة أبدا.

عندما جاء الموعد كي تحل روحي بمكانها الأبدي، لم يكن الجحيم إلا غرفة فارغة من أي شيء. لم أر إلا دانتي وظهره مقيد إلى ظهر محبوبته بياتريتشي، لا يراها ولا تراه. فعرفت أني في قاع الجحيم. عقابنا الأشد هو الانتظار دون أن يحدث أي شيء، لا تعذيب ولا نيران ولا طعام كالقيح، فقط لا شيء وإلى الأبد. لا يتحدث دانتي ومحبوبته أبدا، لقد نفد منهما الكلام في أبدية الوقت. لا وقت هنا.

انفتحت الغرفة، مرة واحدة. قذف لي بعلبة مغلفة بأناقة. فتحتها. فوجدت سيجارة، لتبغها رائحة ذكية لم أشمها من قبل. تشتعل إذا

(*) مقتبس من الطاو.

اشتهيت، تنطفئ إذا شبعت لتولد من جديد. لا تنتهي، ولا تنتهي لذتها، لا تحمل سما ولا موتا ولا ثقل الذنب، تفيض بهجتها، لم أتذوق نكهتها من قبل، أنا الخبير بكل أنواع التبغ النفيس والجيد والرديء. عندما أخذت النَّفَس الأول منها، أدركت أن لذتها تغني عما سواها. كأن الدنيا كلها تحت قدمي، كأني أقبض على الفردوس. لم أعرف الرضا فما زال من الجنون أن أقضي الأبدية في اللا شيء. أفتقد صديقي ماركس، مفتاح كل شيء، مفتاح لا يمكن استعماله أبدا إلا بتحمل اللعنات والأشباح. لعله سعيد بذوبانه في الكون، هذا يليق بمستبد.

بعد عدة أنفاس من الدخان، كانت السعادة تعرف طريقها إليَّ رويدا رويدا. نظرت إلى وجه دانتي الكهنوتي والكئيب، سألته: *"بأي ذنب استحققنا قاع الجحيم؟"*.

شكر وعرفان

إلى العابر المغدور، ورب العائلة العادية والفريدة، ألهمني موتكما إدارك معنى حياتكما. سلام لروحكما الطيبتين والسخيتين. وإلى سالي أسامة الحبيبة التي لولاها لما تمكنت من التفرغ لهذا العمل. وإلى عبد الستار البلشي، الداعم دوما، والصديق الذي رافقت مناقشاته الثمينة كتابة العمل. وإلى صديقي أحمد كامل، لملاحظاته.

وإلى الشاعرة الكبيرة إيمان مرسال، لتعليقاتها الذكية على النص، نفذت منها جاهدا قدر ما اســتطعت وأدركت. وإلى الشاعر أشرف يوسف (محرر الدار، ومسئول قسم النشر)، بآرائه الثاقبة وحماسه للتجربة، وإشرافه الأمين على مراحل عمل الكتاب.

وإلى د. فاطمة البودي (مديرة الدار) لحرفية ونزاهة عملية النشر. وإلى الشاعر تامر فتحي، الذي ترجم قصيدة البكر الشاحب لونها لكارل ماركس خصيصا للرواية، وإلى الصديق حسين الحاج، الذي أفادني بمناقشاته، ومراجعة ترجمات داخل النص.

وإلى كارل ماركس طبعا، الذي كان طيفه رفيقا ودليلا ومرشدا في عزلة الكتابة واليأس والشكوك. وما كنته قبل الشروع في هذا العمل، غير ما صرت عليه بعد الانتهاء منه، وددت لو صرت ماركسيا، لكن كان مفتاح المعرفة أجمل هداياه.

هل بإمكاني أن أشكر الكتب أيضا؟ وخاصة ترجمة الشاعر الكبير رفعت سلام لرامبو، والذي اعتمدت عليه الرواية بشكل أساسي، دون نسيان فضل المترجم الكبير كاظم جهاد، الذي استعنت ببعض مقاطع من ترجمته، فضلا عن مقدمته الرائعة للكوميديا الإلهية.

منطق الطير، فريد الدين العطار، ترجمة بديع جمعة. أطياف ماركس، لجاك دريدا، ترجمة منذر عياشي. Cyber Marx لنيك دبير-ويثيفورد. Cyborg Manifesto لدونا هاراواي. الحرب الأهلية في فرنسا كارل ماركس. The Telekommunist Manifesto. لغز عشتار، فراس السواح. مجتمع الاستعراض، جي ديبور، ترجمة أحمد حسان. المستقبل الأقصى، جيمس كانتون، ترجمة لبنى الريدي. مفهوم الإنسان عند ماركس، إيريك فروم، ترجمة محمد رصاص. جوهر الإنسان، إريك فروم، ترجمة سلام خير بك. الإيروس والثقافة في الفن الأوروبي، ترجمة نزار عيون السود. الأناركية والثورة والإنسان، ترجمة أحمد حسان. بمَ يفكر الأدب؟، بيار ماشيري، ترجمة جوزيف شريم. العقل في التاريخ، فلسفة التاريخ، وأصول فلسفة الحق، هيجل، ترجمة عبد الفتاح إمام. كارل ماركس أو فكر العالم. جاك أتالي، ترجمة

محمد صبح. لعنة آدم، بريان سايكس، ترجمة مصطفى فهمي. ألف باء المادية الجدلية، جورج طرابيشي. المدن المسحورة، فارس خضر. تفاهة الشر، حنة أرندت، ترجمة نادرة السنوسي. الثورة المغدورة، برنار فيسك، ترجمة راوية صادق. سنوات اعتقال وثورات، أحمد القصير. الثقافة في عصر العوالم الثلاثة، مايكل دينينج، ترجمة أسامة الغزولي. الحق في الكسل، بول لافارج. مبادئ الشيوعية، موجز رأس المال، فريديك إنجلز. وغيرها من الكتب والنصوص. وعشرات المقالات على مواقع ومدونات عديدة، مهمات هرقل الاثنا عشرة، ومسرحية ماركس في سوهو، هوارد زين. هاملت لشكسبير، في عدة ترجمات. الفيلم الوثائقي: Steve Jobs - The Man in the Machine، وثائقي عن الانتحار الجماعي في جونز تاون.



المؤلف في سطور

- أحمد الفخراني: روائي وصحفي مصري، من مواليد الإسكندرية 1981، قبل أن يقيم في القاهرة عقب تخرجه من كلية الصيدلة عام 2006.
- عمل بالصحافة في صحف البديل، أخبار الأدب، الثقافة الجديدة، الشروق، المصري اليوم؛ حيث عمل كمدير فريق السوشيال ميديا ونائب رئيس قسم التحقيقات الاجتماعية، دوت مصر؛ حيث عمل كرئيس لقسم الثقافة. ويعمل الآن صحفيًّا حرًّا. أسس موقع قل المستقل، أول موقع مصري وعربي لمقالات الرأي.
- نشرت مقالاته في صحف ومواقع عربية ومصرية: المدن، السفير، الأخبار اللبنانية، موقع هنا صوتك، مراسلون وغيرها.
- فاز بجائزة هاني درويش: جائزة العين المفتوحة 2013 التابعة لموقع مراسلون الألماني فئة (أفضل مقال).

- فازت روايته (ماندورلا) بجائزة ساويرس 2016، المركز الثاني.
- صدر له ديوان بالعامية المصرية (ديكورات بسيطة) عام 2007، ثم (في كل قلب حكاية بورتريه) عن دار العين عام 2009، والمجموعة القصصية (مملكة من عصير التفاح) عام 2011، عن دار نهضة مصر، ثم رواية (ماندورلا) عن دار العين في عام 2013، رواية (سيرة سيد الباشا)، بيت الياسمين 2016.

البريد الإلكتروني:

bahrbasha@gmail.com

عائلة جادو

"بدأ كل شيء سريعًا كطيف، ثقيلًا وضاغطًا ككابوس، تحررت من بطء الوقت، لأسير وفي يدي رسالة: فلتجد كارل ماركس، وفي قلبي مهمة: اقتله. لكني انتهيت كدرويش في حضرته، بعدما رأيته رأي العين، حيًا، دافئًا، يضخ بالدم. عرفت كلماته التي يرغب في أن تقال، لمست ذقنه وشددته منها، عارضته، وأحببته، وشربنا البيرة والنبيذ الغالي والحشيش الرخيص المغشوش بهواء الفقر وحبوب الترامادول المسحوقة. سبّني بأمي وبادلته السباب، تناجينا وتعاركنا بالأيدي كطفلين. سمعت منه نفيره وبيانه إلى الناس، وغنينا الأغاني المبتذلة الحلوة في الحوراي".

في نص يبدأ بمهمة إيجاد كارل ماركس لقتله، يخوض القاتل رحلته جنبًا إلى جنب مع ضحيته، والذي يصبح دليل نجاته ونجاة عائلته (عائلة جادو) من مصير الفناء المحتوم. في رحلة يحركها مقتل أجنبي ينتمي إلى (حركة توحيد الماركسية الناجية) أو حتمن، لإنماء ما أسموه (الشتات الماركسي). أسئلة عديدة يطرحها النص، الذي يستخدم فيه الكاتب أحمد الفخراني، تقنية الكولاج والتوليف، ليحاور النصوص الرئيسية المؤسِسة للمعرفة، فيصبح الطريق إلى كوميونة باريس هو طريق الطيور في منطق الطير، ليخلق نصًا متميزًا، داخل واقع فانتازي وعبر بنية روائية لافتة للنظر.



خطوط وغلاف: هبة حلمي